ليالي إنانا

رواية

مارا أحمد

سلسلة كتاب طيوف

المشرف الأدبي
السيد حسن

المدير التنفيذي
هناء أمين

الكتاب: ليالي إنانا

اسم المؤلف: مارا أحمد (مرفت أحمد محمود)

التصنيف: رواية

المقاس: ١٤x٢٠

رقم الإيداع: ٢٠٢٣/٢١٦٧٢م

الترقيم الدولي: 6 - 75 - 6999 -977 - 978

العنوان: ٢٩٨ شارع فيصل ـ محطة ضياء
موقعنا على الفيس بوك: سلسلة كتاب طيوف
جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

إهداء

إلى الوطن الكبير..

الذي أراده لنا الإله..

وإلى فاطمة...

"مارا أحمد"

"من "هيلانة" إلى "همت"

إليك رفيقة الدرب والفن، مديرة أعمالي، التي أدارت موهبتي كما لم أكن لأفعل "همت".

إلى من بعثت في داخلي مارد الفن، إلى من نقبت بين ثنايايا حتى استخرجت "عشتار" وإيزيس ومي زيادة ومفيدة عبد الرحمن، إلى من أحيت بداخلي كل المبدعات ونفضت عنهن التراب لتخرجن إلى النور؛ لوحات وشخصيات لصقتُها وأطّرتُها ليستمتع بها الإنسان ويذكر اسم "الله" عند كل مشهد جميل.

إلى "همت" المصرية، روايتي لم تكتمل، مازالت تعاني النقص كما حياتي وعمري الذي يتضاءل يوما بعد يوم، فالقدر يرفض أن أستكمل معايشة روايتي حتى أضع نهاية لها، تلك الرواية التي بطلها "الحب".

حاولت أن أتذاكى وأستشرف المستقبل، فأكمل القصة، وأخمن نهاية البطل الذي هو "الحب" في حياة كل منا لأصل إلى توقعات لا حصر لها وقصور في إمكانياتي التنبؤية، فأسلم لك تلك المهمة الشاقة، وأعفي نفسي من فشل حبكتها لتكملي الرواية، كوني كما تعودت منك، كلما ترجلت عن الأحلام أعدتني إليها لأقتبس منها النور ليفتح لي الدروب المظلمة، انفضي عني النوم، مدي يدك إلي، ابعثي بداخلي الروح، خلودي بين تلك الصفحات واللوحات التي منحتني الألوان لكي

أبتكر حياتها، هناك أركان لم أتمكن من اختراقها في حياتك وحياة بطلات تلك الرواية، ولاشك أن الجزء الآخر مازال بين يديك، واصلي رسالتك في خلق عالم يجمعنا لأنك كنت ومازلت الرأس الذي يحلم ويفكر ويهدينا الطرق، كوني أمينة حين تنقلين من قلبي المشاعر، وأنا حبيبتي لا أشك في أمانتك، فقط أذكرك.

أهديك تلك القصة، ولأني لست إلهًا، فقد عجزت أن أكمل حبكتها، وأجمع الخيوط لتكملي، ما شاء لك القدر ودعي لخيال القراء العنان لاستكمال الأحداث. لا تضعي في القصة حكمة أو موعظة، فكم من كتب فقدت بريقها والشغف بها لما فيها من أكاذيب وأمثال وحكم بأوجه متناقضة ، فلطالما رأيت التأريخ في أوطاننا فاشلاً؛ لأن المؤرخ فقد حريته فكان تابعا للأقوى.

شكرا وامتنانا، لتكن روايتك وباسمك، فلا يهم من ألفها، بقدر أن يتذوق الناس الصدق فيها ويستمتعوا.

"هيلانة"

***

"مقدمة الرواية كما صاغتها "هيلانة" "

لماذا أكتب هذه القصة؟ ما الهدف الذي أسعى إلى تحقيقه من كشف سوءة شخصياتها وتجريدهم من ورقة التوت التي تواري ألسنة لبقة، خرساء عن الحقيقة؟

أنا حين أجلستُ الحروف فوق السطور كنت أسعى للبراءة من العطب النفسي، وكأني أجلس خلف ستار الاعتراف بإحدى الكنائس، أو كأني أتمدد على الشيزلونج أمام أحد أطباء "السايكو أناليسز" التحليل النفسي، في محاولة لإضفاء سمة الإنسانية على أخطاء وزلات ولمم تلك الشخصيات التي تعاطفت معها وتقمصت شخصياتهم وتحدثت بألسنة قلوبهم..

"هيلانة"

***

الصفحة ماقبل الأخيرة

الحب، كلمة حرفاها يستولدان الجنة، يمنحان الخصوبة لأرض جدباء، الحب هو من يقتل الموت ويذبح القتل، فيوقف الدم ويزرع السلام، بلا حب نحن مساكين، خواء كما شجر البامبو، أو الجريد العقيم.

كنت حتى هذه اللحظة لا أعرف معنى الحب حتى أدركني وألحقني بأكاديميته، لأتعلم وأحتسي كاساته؛ العسل منها والمر، إلا أنني بلا حب ميتة، حبوت بين أحضانه لاسترضع منه الحب، أتحسس أبجديته مثل كفيف يتهجى "برايل"، لأتذوق كل مسام جسده، ولكن كل متعة، يعقبها صفعة اسمها الخذلان، كان من بُعث في الكون، ثم بضغطة من إصبعه أوقف حركته لأنفجر إلى شظايا ونيازك سقطت باردة.

***

الصفحة الأخيرة

"بانر" كبير يتيمن معرضا في أحد القصورالرئاسية، لم يذكر التاريخ على وجه الدقة ولكن وضح جليا أنه عصر بعثت فيه سوريا، حيث اغتسلت من الدم الذي غطى جمالها، ومن رائحته التي طغت على رائحة الياسمين وعطر شان الذي خجل أن يرفع رأسه لعقود طويلة، لتخرج سوريا كما المارد، عفية، جميلة، تتأنق بالصبا، البانر يحتوي صورة فنانة ذات ملامح خاصة جدا، رشيقة ترتدي (شروالا) أبيض، واسعًا طويلا و(بلوزة) ذات لون سماوي بـ(ياقة) ذات أزرار مقفولة حتى الرقبة، يبدو عليها الاحتشام، لها شعر كستنائي مموج، قد عقفته في كعكة كبيرة، أظهرت مدى طوله، ويحيط برأسها تاج من الزهور، لها عيون سوداء برموش طويلة، ذات حواجب كثيفة متصلة، لها أنف دقيق مستطيل، أسفله شارب خفيف تركته- صاحبة الصورة- عن عمد، وكأنها أرادت أن تحتفظ بإبداع الرب كما نحته، كجسد ووجه وروح، مميزة، متفردة، لتصير ذات ملامح لا تنسى، تجلس على كرسي أرابيسك، مفرودة الظهر، تضع يدها اليمنى فوق اليسرى، وأنفها وذقنها يرتفعان في شموخ، تعمدت أن تبتسم لكن في ابتسامتها يتخفى الحزن.

أعلى الصورة كتبت عبارة "معرض "هيلانة""

لم يسبق اسمها جنسية ولا تعريف، فالجميع يعرف من هي.

حضور عظيم لأول يوم في "أتيليه" للوحات "هيلانة" التي كانت جميعا هي بطلتها في قصص مختلفة.. وبعضها يحمل صورة "عشتار" أو"إنانا" بملامحها المتفردة، فلقد فرضت على العالم مقاييس جمال جديدة تكسر ما ألفه العامة.

أغلب الزائرات كن ذات حواجب كثيفة متلاحمة، ولهن شارب خفيف رقيق، أغلبه طبيعي، والقليل منه مصطنع، وكأنهن نساء يحملن بداخلهن رجالاً، كائنات قد اكتملن بأنفسهن، ربما أردن التمرد على ذلك العالم الذكوري الذي يسن قوانين لا يضاف في نهايتها تاء مربوطة، لا يعبأ بما يليق بحاجات نسائه.

تحركت همت، ومعها "عنود" وسناء، ود. "سهام" و"ميريت" الجميلة، في أنحاء المعرض في فخر، لقد تحولت مدينة (حماة) إلى مدينة سياحية يحج إليها محبو الفن ومحبو "هيلانة".

تم التقاط عدة صور لهن بين جنبات المعرض، ترافقهن "هيلانة" كخلفية ورفيقة، وطيف طيب..

****

أفكار هيلانية

ندور في متاهة الألغاز: لغز العلم، ولغز المرض، ولغز الكون، التي تستعصي على الفهم، ولغز أعظم اسمه النفس الإنسانية.

وطبقية وعنصرية هي من أهم طقوس الحياة، وحقيقة ترتدي أقنعة تتجدد بتنوع البشر والأماكن والمواقيت، وأزياء تتعدد بتعدد القبائل والأمم والديانات، صراع بين القوة والضعف، بين القمة والقاع، والتربع على العرش، أية "حرية" تلك التي نسميها ولا نعلم كيف نعرّفها في كلمات جامعة مانعة لا نختلف عليها؟!

ولماذا رغم روعة الحب وسموه يأتي دائما رافعًا في يمناه اللذة وفي اليد الأخرى يخفي خنجرا؟!

****

تابع الصفحة الأولى

يسير شامخ الرأس، مبتسمًا في سعادة، في فمه (البايب) يتوسط شارعًا يخلو من المارة، فجأة يخرج عدد من الرجال باهتي الوجوه والملامح، يحوطونه، يخرجون من جيوبهم خناجر حادة يطعنونه في قلبه ليسقط أرضا، لم تخرج من جسده دماء، وكأنه كان روحا فقط، هذا لا يمنع تألمه من الطعنات لتتلقفه زوجته بين ذراعيها، ملامحها تشير إلى أنها تصرخ، ولكن لم يكن لصراخها صوت، مجرد صورة وهي تتلوى ألما ووجعا على زوجها، وكنت أتلوى على سريري تشبثا باليقظة، ومحاولة للهروب من ذلك المشهد الموجع.

استيقظت وأنا أتحسس رقبتي، وحنجرتي، وألمًا أصاب ساقيَّ، وكأنني كنت بالفعل في موقع الجريمة، عاجزة عن الصراخ أيضا، أو الدفاع عنه، أو مساندة تلك الزوجة المكلومة في زوجها العظيم.

دخلت أمي على صوتي وأنا أنادي، كنت أعاني من الحمى التي تصاحب الأنفلونزا الحادة، كنت في المرحلة الإعدادية وقتها، أخذت ثلاثة أيام غيابا وتلتحم مع إجازة يوم النصر، يوم السادس من أكتوبر، مصر في يومها تكون في عيد، والتلفاز يقدم عددًا من الأفلام واللقاءات مع أبطال العبور والحالة النفسية للمصريين في أوج الفخر.

قصصت على أمي الحلم الذي زارني، كان الرجل الذي طعن في الحلم هو الرئيس أنور السادات، وكانت السيدة التي تحتضنه باكية وتستغيث هي جيهان السادات، والتي لم يستجيب لاستغاثتها أحد.

أستعاذت أمي من الشيطان ورددت دعوتها: "ربنا يعديها على خير"، لقد تجمع كارهوه وقد صاروا كثرا بعد حملة ال"اعتقال"ات التي قام بها، وسخريته من بعض الشخصيات المهمة، قد عادى الآلاف، ومازال الكثيرون رافضين لتلك المعاهدة، ويرون فيها ذلا للعرب، وضياعا لحلم تحرير فلسطين وأرض الجولان، ودفنًا للقومية العربية، كما أنه خسر الناصريين من قبل.

لقد نقل مصر من أجواء ساخنة إلى برودة قاسية، من اشتراكية كانت حلم الفقراء، إلى رأسمالية وانفتاح أقتصادي لم تحدد ملامحه بعد، لقد عادى الغالبية العظمى من الشعب المصري بل والعربي، حين تخلى عن حلم القومية، وحين تخلى عن الفقراء، وحين أبقى على حاشية عبد الناصر الكارهين له؛ لأنه سحب منهم كل الصلاحيات، بل حولهم إلى متهمين وعصابة تقف كما المطاريد أمام رفاهية المصريين وغناهم،هكذا كان يردد السادات "شوية حرامية"، ولكنه لم يجهز على الرؤوس التي مازالت تنهش في السر في بطون

المصريين والعرب، لقد بتر الذيول، ولم يكن حكيما ليدرك أنها تنمو ثانية.

كانت أمي تطلق كلمات، أحسست من نبرة صوتها الغضب والخوف، وأحيانا التعاطف مع السادات، وأحيانا الغضب منه، لم أكن أدرك معاني تلك الكلمات الضخمة التي تلوكها، ولكن شعرت أن أمرا جللا يدور وسيحدث عن قريب في مصر.

كنت أنصت لها في اهتمام، وأدركت معنى كلماتها فكنت أتابع الأخبار يوميا في الصحف المصرية والعربية.

تجمعنا كأغلب الأسر المصرية حول التلفاز لمتابعة العرض العسكري، والاحتفالية الكبيرة التي يشهدها الرئيس، ومعه نائبه مبارك، وعدد من قادة البلد.

جهزنا الشاي والكيكات والمسليات، وبدأ العرض العسكري، كان الرئيس يتأمل السرب الطائر للطيران المصري في فخر، ثم تقدم عدد من السيارت تحمل اسلحة وهبط منها عدد من الجنود، قام الرئيس لرد التحية لهم، وفجأة سمعنا طلقات نارية لينقطع الإرسال، تشهق أمي وتضع يدها على قلبها وتردد: "استرها يارب".

عرفت في ذلك اليوم أنني قد وهبت شفافية الروح وقدرتي على اختراق الغيب، هكذا قالت لي أمي.

إنها منحة صقلت خبراتي، وأضافت لي، وأحيانا أوجعتني، أفقدتني الدهشة والشغف بل والسعادة أحيانا، ومنحتني الحذر والتهيؤ للفواجع لأستقبلها في رضا أحيانا.

استبعدت أن يراني رجل فيقع في غرامي، فيكتب في الشعر، فأنا لست أنثى مكتملة، إلى أن عشت تلك القصة في إحدى رؤياي.

رأيته يمنحني خاتما في حضور أبي وأمي وأخوتي، كانت ملامحه كواقف خلف نافذة ذات زجاج ثلجي، أعرفه، ولكن صورته مهزوزة.

نهضت من نومي وأنا في حالة من النشوة، كنزت بعضا من الأمل لأكمل يومي، فجأة تذكرت أني كنت أرتدي فستانا به بقع لا تزول.

دخلت على كتاب ابن سيرين لتفسير الأحلام، أدركت أنني في طريقي لقدر ما، نصفه حسن والنصف الآخر موجع.

أقنعت نفسي بضرورة الاستمتاع بالبدايات، وأن أخفي التتمة، أو أتناساها، قد تكون تفسيرات لم تصب قلب الحقيقة، فأنا في حاجة لأن تنتعش حياتي الراكدة.

***

الصفحة ما قبل الأخيرة بقليل

- من فضلك أنا لا أستطيع النوم في مكان يخلو من مرآة.. أريد مرآة أمام سريري.

"إنها هيلانه تتوجه بطلبها إلى ممرضة إنجليزية في مستشفى عريق بلندن".

- سأبحث لك عن واحدة، سيدتي.

- أشكرك.. لا تطفئي النور.

نظرت الممرضة إليها وقد علت شفتيها ابتسامة تحمل كل معاني الرحمة وقالت:

- على الرغم من أنه ممنوع، لكن سوف أحضر لك المرآة، فأنا أحترم الفنانين وخاصة لو كانت امرأة. رضخت الممرضة لطلبات تلك السيدة، التي تم التوصية عليها من مدير المستشفى بنفسه، وحذر الجميع من مضايقتها، وهدد فريق التمريض بالخصم من الحوافز إن تأففت المريضة أو أبدت عدم الرضا عن الخدمة داخل المستشفى.

ظلت تتأمل نفسها في المرآة، أمسكت بريشتها، التي لم تغادر سبابتها وإبهامها منذ افترش المرض جسدها، وبدأت تنزع المرأة التي تلعب على صفحة مرآتها وتنقلها بريشتها على الورق، صاغتها ضاحكة، وفي وضع من تلعب الحجلة بساقيها، فهي ليست عليلة، بل

سليمة الساقين، أرادتها كاملة، ولكنها أبدًا لم تغير من شكل حاجبيها اللذين كانا كما مرج البحرين يلتقيان، بينهما برزخ، لا يبغيان".. وضعت شعرات فوق الشفة العليا، صنعت شاربًا خفيفًا ملحوظًا، ولكن ليس مقززا، إنهما مَن منحا لها هوية مميزة لمعت بهما عن باقي صحيباتها.. ظلت تحافظ على تلك البصمات التي جعلت منها كائنًا متفردًا.

لملمت، بعد قليل، لوحتها، وتركت ريشتها على (الكومود) الجانبي، ثم ارتاحت قليلا لتتداعى الكلمات تترى على ذاكرتها، فكان حتمًا أن تكتب.

أمسكت بالتابلت، الذي لا يفارقها منذ اعتادت الكتابة عليه وهجرت الورق والقلم، فالتابلت كما زمانها، سريع ذو ذاكرة انتقائية، صغير يسهل حمله، ولكنه بلا بصمة خاصة، فالخط عليه واحد لا يختلف باختلاف الجنس أو الجنسية، فقلمه محايد لا يعترف بالعنصرية. شعرت بارتياح في التعامل معه، فهي تفضل مسايرة التكنولوجيا.. أمسكت به وبدأت تخط آخر هزائمها مع الأيام...

"لم تكن تخطط أن تكتب، لم تخطط أن تقتنص الكلمات وتعتقلها في جُمل لتبوح بأسرارها، بل كانت تلعب بالقلم، تلعب بالكلمات، ربما كانت تتوقع أن تصوغ منها لوحة كما ريشتها التي لم تغادرها، بل ظلت برفقتها مع المرض.

كانت تكتب كما كانت ترسم، تتفنن في تشكيل الألوان لتتناسق وتخرج لوحة تتكلم عن زمان عاشت به، وعن رقعة من الحياة شغلتها، عن مشاعر حلقت معها إلى أبعد من حدود الخارطة، طافت بها حول المجرة، فهي البنت التي ولدت لأم مغربية وأب سوري ذي أصول مصرية، وسكنت مصر، جمعت أقصى شرق العروبة مع مغربها، كانت مخلوقًا قومي الهوية بجدارة.

حين أكتب سيرة ذاتية، فلابد من أن أتحدث عن المنشأ وعوامل النجاح، ومطبات الفشل، ولكني أردت أن "أفضفض"، وتخرج تلك الفضفضة كقفزة ألوان عشوائية فوق لوحة بيضاء؛ لتترك للقدر صياغة الصورة، فلن ألتزم بالمنطقية ولا بأصول الرواية لتخرج الكلمات صادقة، فقط صادقة.

كَتَبَت:

"كنت الثالثة بين أربع أخوات، لست البكرية لأحظى بالرعاية والحب، ولست الصغرى لأحظى بالدلال والعطف، كنت أتأرجح بين الكفتين، لا أدري هل كان من حسن حظي أم من سوئه؛ أن حالتي الصحية كانت سببًا في تكثيف الرعاية والحب المتكلف من أمي وأبي. خرجت إلى الحياة ضعيفة البنية، ولظروف اللاذقية، التي ولدت بها، تخلفت عن التطعيم ضد شلل الأطفال بل وخاب تطعيم الدرن؛ فأصبت بالحمى ورحت في

موتة استغرقت شهورا حتى فقدوا في الأمل واستسلموا، فسلموني لملاك الموت، فعند حضور الموت يقف الملوك والشحاذون والأطباء والعباقرة عاجزين، تنهار الكلمات، وتضيع الإرادات، ويسكت الجميع، يعلنون ضعفهم، لا حيلة لك، جلال الموت ينكسر أمامه كل أنواع الغرور والكبر، بحزن سلموني له، ليسخر الموت من الجميع ويغادرني زاهدًا في، يتخلى عني في آخر لحظة وأتنفس أكسجين الحياة.. الموت لا يريدني الآن، منحني فرصة أخرى؛ ما زال لي دور ألعبه في هذه المسرحية، فلم يحن موعدي بعد. عدت إلى حضن أمي، والتي - كما حكت لي - طارت من السعادة لبراءتي من ذلك المرض اللعين، وتكفيرًا عن ذنب لم ترتكبه، تكفلت برعايتي، وتحملت مني الكثير، فقد رأت أنها شاركت مكتب الصحة في التطعيم الفاسد، والذي ألقى بي إلى الموت الذي كان محتملا، فأخرج من كارثة لأنزلق إلى مصيبة.

ظهرت مضاعفات شلل الأطفال، والذي سكن ساقي اليمنى وابتلعها في جوفه، فصارت أقصر من ساقي اليسرى وأنحف بمرور السنوات.

كان حلم أبي أن يهبط مصر، فله فيها ما سأل من أحلام، ووجد في مرضي فرصة وحجة ليغادر ضيعته وأهله، ويقنع أمي بحتمية النزول إليها؛ لعله يجد طبيبًا يعالج مرضي.

في هذه الفترة كانت القومية العربية كشعار، في أوج تألقها، وأغنية لا تتوقف الألسنة عن ترديدها، لم يكن أبي منشغلا، لا بالوحدة ولا بالقومية، ولكن كانت أرضًا خصيبة ليزرع بها حلمه.

أراد أن يعود إلى مصر، موطن جده وأمه، وبالفعل جمعنا القليل من الملبس والكثير من العملات، بعد أن باع أرضه وبيته وسافرنا إلى أرضٍ سبقنا إليها كل مظلوم، موسى، ويوسف، وعيسى، والبتول مريم، وبعدهم أحفاد الرسول وبنات علي وإخوته.

لم يندم لاجئ ولا شعر بالغربة في هذا البلد، هكذا كان يردد أبي.

حبوت على أرض مصر، فلم ينغرس في ذاكرتي شئ عن موطني الأم، كل ما علق بذاكرتي لم يكن إلا صورًا باهته كما الحلم غير الواضح عن ضيعتنا، فكانت مصر بلدي الذي تربيت به وعشت به صباي، وطفولتي، على العكس من أختيّ الكبرتين اللتين شعرتا بشئ من الحنين من آن إلى آخر، أما أنا وأختي الصغرى، والتي ولدت بعدي بأعوام كثيرة على أرض مصر، فلقد تفتحت أعيننا على هذا البلد، فانتماؤنا لهذه الأرض.

كانت أمي تحكي - من آنٍ لآخر - عن المغرب، ويقارعها أبي بالحديث عن سوريا، ثم لا يلبث أن

يتحدى تاريخنا السابق بالحياة هنا بأرض أم الدنيا، أرض أجداده.

لم أعش لمحات هزيمة يونيو، فلقد كنت في عامي الأول، لم أع مفردات النكسات أو الهزائم ولا حتى النصر، إلى أن أدركت وعلمت وعشت معاني النكسات والهزائم التي مُنيت بها، لكنَّ عينيّ تفتحتا على احتفالات النصر بأكتوبر العظيم، وأدركنا سقوط حلم القومية العربية، لنَحيا عصرًا حفِل بالمتناقضات وميلاد مصطلحات جديدة عارضت أحلام العامة، ولكن ذلك لم يؤثر كثيرًا على أحلام أبي بالبقاء على أرض مصر، واستكمال بناء حياته بها، فهي الجذر الأول له.

فتح أبي مطعمًا للمأكولات السورية والمغربية، وعلى الرغم من مخاوف أمي من تقلبات السياسة وتأثيرها على الشعوب إلا أنها ساندت أبي وصمدت معه، وكانت كمن تنسج بيدها معه حلمًا بحلم.

صممت أمي ملابس العاملين بالمطعم، متخذة سمات الزي المغربي والسوري، فكان "اليونيفورم" الخاص بمطعمنا باذخ الجمال والتفرد، فكان مشروعًا مختلفًا فيما يقدم، وكانت أمي تساعده في عمله لتكمل دورها كأم معنا، وخاصة أنا حيث تعبت معي لعرضي على الاطباء، والذين بدورهم قد بذلوا أقصى مجهود ليُحجموا هذا المرض، ويوقفونه حد إعاقة بسيطة في

ساقي اليمنى، لا يلحظها إلا من يدقق النظر في حركتي، وحمدا الله على عافيتي ونجاتي للمرة الثانية من الموت والمرض.

شكرا لله، ذبح أبي عجلا كبيرًا، وقام بتوزيعه على الفقراء وأهل الحي، فزاد ذلك من شهرة أبي وحب المصريين له، واحترامهم لأسرتنا، فكنا في معية الله وحضن أهل مصر.

***

الصفحة الثانية

كلما انتهيت من مدرستي كنت أذهب إلى المطعم أعزف على البيانو، أغني بعض الأغاني التي تربى عليها بنات هذا الجيل، جيل السبعينيات، الذي تغذى على ما تم بناؤه وإنتاجه في الخمسينيات والستينيات، فلقد بدأ الفن يذبل، ورحمه صار بخيلا في إنجاب المواهب، أحيانا أغني لفرانك سيناترا، وأحيانا لمحمد قنديل ونجاة، كان صوتي - الذي ورثته عن أمي – لا بأس به، مدح به رواد المكان، وهناك من نصحني بأن أحترف الغناء، فصوتي أفضل من أصوات كثيرة دخيلة على الفن، وأبي يتلقى تلك العروض بالرفض قائلا: "إنها تمارس هوايتها تحت بصري هنا، حتى تنتهي من دراستها، وستكمل تعليمها بفرنسا أو بريطانيا" .. كان طموحه لا حدود له وآماله فينا عظيمة، لم يسمح لنفسه أن يحلم بولد ولم يعزِ نفسه أبدًا عن هذا الحرمان، بل كان يرى في بناته الكنز الذي وهبه الله له، ومعهن يتحول التراب إلى ذهب، فهكذا اعتدنا أن نَصِف أبا البنات.

دخلت الأخت الكبرى "آمنة" كلية الطب، ثم لحقتها الثانية ليلى بكلية الصيدلة، وكان دوري أنا طالبة الثانوية العامة، كانت لي ميول مختلفة، أنهيت الثانوية والتحقت بكلية الفنون الجميلة بجامعة الإسكندرية قسم ديكور.

رفضت أمي في البداية فكرة العيش أغلب السنة الدراسية بعيدًا عن عينها، في بلد بعيد، لتخرج من حجرتها وأبي وقد غيرت رأيها، ووافقت على سفري والعيش بالإسكندرية، على أن أعود في نهاية كل أسبوع.

خمنت النقاش والحوار الذي دار بين أمي وأبي، أعتقد أنه قد أقنعها بضرورة أن أستقل لأكتسب الثقة في الذات، وأن أعتمد على نفسي في اتخاذ القرار وتنظيم حياتي، ولغرس الثقة في النفس وفي قدراتي، فكيف كان الاتفاق بينهما أن نسافر إلى أوروبا لاستكمال تعليمنا، وترفض هي أن أسافر إلى الإسكندرية وبيننا وبينها ساعتان فقط؟!"

شجع أبي على مساندتي، مراقبته لي، وثقته في عقلي وشخصيتي وثقافتي، حيث كان لي اهتماماتي الخاصة بالفلسفة والتاريخ؛ مما عزز خزيني العقلي ومنحني ثقة أهلي فيّ، واحترامهم، وكان من نتاج تلك الاهتمامات أن صقلت رأسي بالعروبة والقومية وازداد أرتفاع رقبتي فخرًا بحضارة بلادي مصر، وتاريخها الفرعوني وحضارة جدود أبي الفينيقية، وأمسكت ريشتي وبدأت أرسم ملامح "عشتار أو إنانا" كما تخيلتها، ولن أنسى أن أرسم حاجبيها يلتقيان، ولها شارب خفيف كما أنا، فكانت أولى لوحاتي، والتي علقها أبي في ركن مميز على يمين مدخل المطعم،

لتصير اسم الشهرة لأحد أركان المطعم، "ركن إنانا"، يجلس به الأحبة تبركًا باسمها، يظللهم الحب.

كنت أناقش أبي في كل حدث تاريخي، وكان يتلقى أسئلتي بحبور وعطف، فلم يخذلني حين طلب، ولم ينهرني حين سؤال، ربما مساندةً لي حتى لا أشعر بما في جسدي من نقص، فلقد كنت بسيطة الجمال إذا ما قورنت بأخواتي اللواتي حملن معهن جمال بنات الشام، حتى الصغرى، أما أنا فلقد ورثت فقر تلك الأرض وجهلها، فعمّني الشلل والدرن، ولكن أكرمني القدر حين حباني بموهبة الفن بفروعه السبعة، كنت أرسم، وأعزف، وأغني، وأكتب الرواية والشعر والقصة، هكذا أدركت معنى العدل، وأنه كلما زادت المحن، تكرم الله على عبده بالمِنح، فلم أشعر بالغيرة من أخواتي، حيث كنت أنا محور الاهتمام والدلال..رحمة من والدي بي وكذلك تعاطفا من أخواتي..

كان جدول محاضراتي يخلو من أي التزامات السبت والأحد؛ لذا كنت أنزل إلى القاهرة يوم الخميس بعد الانتهاء من المحاضرات، وأعود الأحد صباحًا. استمتعت بتواجدي بمدينة الإسكندرية طوال الخريف والشتاء، على الرغم من قسوة المناخ وقتها إلا أن المدينة تغتسل وتتحمم، وكأنها تستعد لعُرسها الصيفي

حين يهل المدعوون تحت مسمى المصيف والإجازة الصيفية.

الإسكندرية طوال فترة الدراسة كانت لي وحدي، والبحر لي وحدي، كنت ألقي بوشاحي الصوفي فوق كتفي وأجلس على البحر، أتنفس الهواء البارد الغني باليود، وأخزن بذاكرتي وعيني ذلك المشهد الذي رسمته يد الإله.

كثيرًا ما كنت أرسم صورة "إنانا" وهي تمتطي البحر وتشد لجامه بلاخوف، بل هو الذي كان يخشاها ويرتبك من جمالها وثقتها في نفسها.

كانت "إنانا" الشخصية التي لطالما حلمت أن أكونها، إلا أن للقدر تخطيطات لنا، تتناقض كثيرًا مع ما نحلم به، ربما لكي يمنح حياتنا لذة السعي والقتال حتى نحصل على ما نتمنى، ليتني كنت هي، ليتني كنت بجمالها وثقتها في نفسها، وقدرتها على التحكم في لجام قدرها.

ليحين موعدي مع القدر، كنت في ذلك اليوم، وهو أحد أيام السبت بالمطعم أعزف البيانو وأغني "أهواك" لعبد الحليم، كان يجلس بـ "ركن إنانا"، يتأملني، ذو لحية سوداء كثيفة، قصيرة، يرتدي ملابس عصرية، يسبقه عطره ذو الماركة العالمية.

التفتُّ لأبحث عن صاحب ذلك العطر الآخاذ لتلتقي عيناي بعينيه، أذكر أني رأيت ذلك الوجه في مكان ما من قبل،فهو وجه مألوف،إنه هو، لقد أتاني في رحلتي مع الحلم، اقتحم خصوصيتي، وانفرد بالمشهد كله وأحداث صاغها القدر، خلع عن الرؤية عموميتها ليخصني بالبطولة، وناصفني فيها،ما أوسمه رغم فارق السن بيننا!! فلقد كان في اواخر الثلاثين أو ربما تجاوزالأربعين بقليل، وكنت أنا أخطو إلى العشرين، فما زلت في عامي التاسع عشر، ولكن لم أنس ملامح وجهه وأناقته، ولم يغادر عطره أنفي، فقد علقت به.

تعمدت بعدها أن أتيح الفرصة لصدفة أخرى مستفيدة بنظرية النسبية لأينشتاين، فقست الزمن مع المسافة، وتعمدت أن أتواجد هناك كل سبت في الثالثة عصرا.

وهكذا كان موعد بيننا لم نتفق عليه، وتعددت الصدف المختلقة لنجتمع كل اسبوع، أنا أغني بكلمات تعمدت انتقاءها لأرسل إليه رسالة، غنيت "ثلاث سلامات" لمحمد قنديل، و"إلا أنت" لنجاة.

هكذا، إلى أن جاءت اللحظة، غاب أبي لعدة ساعات، كان يتعاقد مع أحد الفنادق لتوريد بعض أصناف الأطعمة السورية والمخبوزات، فانتقل إلى جواري وأنا أعزف ليبدأ الحوار.

يالا صوته الساحر!! ويا لرائحته المعبقة بالفتنة!!

من قال إن الفتنة أنثى؟

الفتنة هي ذلك المخلوق الذي سقط بجواري ليسحرني، فلقد سلب مني العقل والحكمة لأجلس أمامه فارغة إلا من الدهشة والإغواء.

تحدث طويلا، أو ربما لم يتحدث أساسًا، كنت أرى شفاهه تتحرك، ورائحة تغزو جسدي، وصوتًا يسحرني، ولكن لم تصل إلى سمعي لغة مفهومة لأترجمها وأجيب عن تساؤلاته.

لاحظ هو سكوتي وذهولي؛ ليبتسم ويحني رأسه خجلا، سألني بصوت، كل نغمة من نغماته كانت كقطعة موسيقية بأنامل "أحمد الحفناوي"، وأنا أشرد في عالم وراء العالم الذي نعيشه حين أسمع الكمان أو الناي، فلابد أن أنصت وأطرب:

- ألن تجيبي؟

أجبته بسؤال، كما مسحورة تردد إجابة بلا وعي منها...

- أجيب عماذا؟

- لقد سألتك عدة أسئلة ولكنك لم تجيبي على أي منها؟ فهل أزعجتك؟

كنت أتيح لروحي الفرصة للتلذذ بحديثه والاستمتاع بصوته وحضوره، أجبت باختصار حتى يتكلم:

- لا

- إذن .. ما اسمك؟

أفقت، بعد ضوضاء خبط الملاعق بجواري من زبون، وأجبت:

- "هيلانة".

- الله .. "هيلانة"! يا له من اسم له موسيقى تحبها الأذن، هل هو اسم عربي؟

- لا.. بل إغريقي.. اسم ملكة أسبرطة قديمًا.

- ما معناه؟

- المتألقة .. المشرقة.

- أما أنا، المهندس "مظهر" .. أهلا بك.

أعدت نطق اسمه وكأني أتجرع كأسًا من خمر الجنة لكنه مُسكر:

- مظهر؟!

- نعم.. هو اسم قديم، لكن أنت تعلمين أننا نرث أسماءنا كما نرث جيناتنا.

- رغم إتقانك للهجة المصرية، ولكن بين كلماتك ما يشير إلى أنك شامي.

- فلسطيني.. سيدتي.

- ما زال توقعي صحيحًا فهي قطعة شامية.

- كانت.. بل كنا.. نحن الآن جزء لطيم.

فهمت أنك ابنة صاحب المطعم.

- نعم.. كثير من الشبه بين اسمينا، كلاهما يشير إلى الأناقة الظاهرية.

- ربما، لكن ما لفت نظري وقلبي إليك هو أناقتكِ العقلية والروحية.. ترى هل لفتُ انتباهك؟

- لفت انتباهي أناقتك الخارجية، ولكني لم أقترب من روحك بعد حتى ألمس أناقتك الداخلية.

"ربما أردتُ بتلك الكلمات الجافة أن أخفي لهفة وانجذابًا إليه قاتلا، كما الضوء بالنسبة لفراشة، كنت أحاول بناء حائط صد يقلل من لندفاع قلبي إليه أو كأني أمسك بلجامه وأعيده ليهدأ من صهيله الجامح شوقًا إليه"

- لماذا رأيت روحك وأنت لم تتعرفي على روحي بعد؟

لاحظت شبهًا كبيرًا جدا بين صورة "عشتار" وأنت، هل هي صدفة أم الرسام رسمك بملامح عشتار؟

- أنا من رسمت تلك الصورة، رسمتني في جسد عشتار، تمنيت أن تكون لدي قدراتها، أن أكون هي.

- تمنيتِ أن تكوني إلهة الحب والحرب؟! هل تعرفين ما خاطبها به جلجامش في الأسطورة؟

- نعم أحفظه عن ظهر قلب..

"ما أنت إلا موقد سرعان ما تخمد ناره في البرد

أنتِ باب لا ينفع في صد ريح عاصفة

أنتِ قصر يتحطم في داخله الأبطال

أنتِ بئر تبتلع غطاءها

أنتِ حفنة قير تلوث حاملها

أنتِ قربة ماء تبلل صاحبها

أنتِ حذاء تقرص قدم منتعلها".

- أنت عاشقة لعشتار أو إنانا.

- نحن نبحث عمن يكملنا، عمن يحمل قدرات تنقصنا، نتمنى أن نكونهم.

- إنانا كانت رمزًا للمرأة المتسلطة، لقد جعلت من "تموز" أسدًا وهي تمتطيه، وكأنها روّضته وحولته إلى كائن مستأنس بلا إرادة، منقاد تحت سطوة جمالها وعشقه لها، في الأبيات السابقة وصف لإنانا فظيع، فهي أشبه بالبحر، رائع ومبهر في ظاهره، ولكنه يحمل بداخله الموت لمن لا يتقن فن السباحة والغوص فيه.

- هذا ما رأيته أنت فيها، أنا أرى "عشتار" كإلهة الأنوثة والخصوبة والإخلاص، لقد هبطت إلى العالم السفلي أو الموت لتلحق بحبيبها "تموز".

- المناقشة معك ممتعة "هيلانة"، لا يُمل لا من حديثك ولا من صوتك الجميل، أنتِ نجمة ذات ثماني أشعة كما إنانا، ترسمين وتقرضين الشعر، وتعزفين البيانو، سأتعرف عليك يومًا ما لأكتشف باقي الأشعة، والذي أصابني بعضها، أقصد باقي المواهب، أنت كتلة من الفن، "هيلانة" أو إنانا.

- أشكرك على المجاملة.

- هل أجامل؟! أنا أحصي مواهبك فقط، ترى هل سيقدر لي أن أكون ضيفًا في أحد أحلامك أو لوحاتك؟! هل بنت من جيلك قد يعجبها رجل عجوز مثلي؟ " كان السؤال يحمل بداخل حروفه إجابات على أسئلتي التي بلعتها قبل أن أطرحها عليه؛ لذا تاهت مني الإجابات، فأنا أكتفي بأسئلته، ولكن لابد أن أسايره في جلسة السين والجيم حتى تطول اللحظات معه".

- العجوز من العجز، أما أنت فما زلت تمنح الحياة، ووجودك يضفي طعمًا ورائحة طيبة للأشياء وللكون.

- ماذا؟! كلماتك ساحرة كما صوتك ورسمك، أسرتِني "هيلانة".

حاولت الهرب من خجلي ومن نظراته، التي كانت كما "سهام" تتدافع تجاه قلبي، فتصيبني بالنشوة والسخونة ليزداد احمرار خدي، ولمعة ساحرة تخرج من عينيّ، فأضفت بعض كلمات وعبارات تشوش على ما حملته كلماتي من انبهار بشخصيته، تنحنحت وقلت:

- اعتادت بنات جيلي على الانجذاب للمظهر، فكلنا حلم بـ (كلارك جيبل، وروك هدسون ورشدي أباظة)، ثم تأتي مرحلة الانجذاب الروحي، لنكتشف فيما بعد الصفعة الأولى، فها هو روك هدسون الذي لطالما أبهرنا بوسامته، بقامته الطويلة، وقوامه الممشوق وصوته الذكوري الخالص، بأنه كان يحمل بداخله نفورًا من النساء وتعف نفسه الحب."

فلا تنبهر بالظاهر حتى تقترب أكثر من صاحبه، لا يأخذك غلاف الكتاب حتى تقرأ محتواه.".

- وهل اقتربت الصورة التي رسمتِها لفتى الأحلام مني؟

خيم الصمت على لساني، ولكن كان الحوار لا يزال دائرًا في قلبي، تمنيت أن تتقمصني جرأة العاهرات، وأبوح له بما في داخلي من مناوشات ورد جرئ: "بل أنت فقت ما رسمته في مخيلتي عن فتى أحلامي" ليدرك هو الإجابة عن سؤاله دون صوت مني، ويخرجني من خجلي بسؤال :

- أراك هنا كل سبت.. هل تدرسين؟

- نعم أنا في أولى فنون جميلة، جامعة الإسكندرية ..

(أتذكر فجأة أن أمي على وشك المجئ)

- أعتذر.. لابد أن أنصرف فأمي في الطريق ولابد أن أنهي بعض المهام هنا.

- سأراك السبت القادم؟

- إن شاء الله.

ترددت في التحرك، فلاشك أنه سيلاحظ عرجي الطفيف، مكثت في مكاني وأنا غارقة في الخجل والخوف، وتمنيت كما يقول المصريون أن تنشق الارض وتبتلعني، ولكن انتبه إلى أستئذانه في الانصراف، لألتقط أنفاسي التي تبخرت من صدري هروبا ليعود قلبي إلى تنظيم دقاته، وأستعيد أنا توازني.

توالت المصادفات المختلقة وتوالت لقاءات السبت البريئة، كنت أتعجل إنهاء الأسبوع لأهبط إلى الجنة،صرت أتململ من بعدي عن القاهرة والمطعم وموعد السبت، لكن كان لسقوطه كنقطة ضوء في لوحة حياتي أثر طيب، فلقد صار ترحالي بين القاهرة والإسكندرية معنى وجمال ومتعة ونشوة، أسافر للجمال وأتطلع إلى جمال من نوع آخر في ركن إنانا بالقاهرة.

أغني وأعزف وهو يستمع، وكنت ألقي بنظرات متباعدة إليه، لأراه محلقا في غلافي الجوي، تصاحبني نظرته وابتسامة تفوح حبا أو كما أتصور أنا.

لا تدوم السعادة طويلا، فهي كما زهرة "الهندباء"، جميلة ناعمة الملمس، ولكنها لا تلبث أن تحلق وتطير بعيدا لتتركنا في شغف ولهفة للإمساك بها ثانية.

تغيب "مظهر" عدة أسبتة، وراودتني الهواجس، كنت أسرع إلى النوم لعلي أجد أجابة عن أسئلة أتعبتني، أين هو؟ وماذا يفعل؟ هل يتهرب مني ومن فكرة الاستغراق في علاقة مع معاقة مثلي؟ هل أحب أخرى؟ هل ما يدور داخل قلبي من حوارات بيني وبينه من اختلاقي؟! مجرد تمنيات لا اساس لها على أرض الواقع؟! هل هي مشاعر أحادية الجانب؟!

لمّ يضن عليَّ الحلم بالزيارة كلما طلبته، حتى الأحلام ترفض الأوامر والاستجداء، تأبى إلا أن تظل حرة، تأتيني بالخبر اليقين عندما تريد، فتحولت إلى كوابيس خلقتها مخاوفي وعدم ثقتي في نفسي، لتترك سمرة تحت عيني، وعلامات غضب تحولت إلى خطوط بجبيني يسمونها عبوسًا، حاولت الانهماك في المذاكرة، فالامتحانات قد أزفت، الله رحيم، حين تضيق بنا السبل لا شك أنه يفتح أمامنا طاقة نور، ويلهمنا بالصبر والمسكن الفطري.

مرت الأيام سريعة مع المسؤوليات والمشاريع التي يجب أن أنجزها، وحلت الامتحانات.

اجتزت عامي الدراسي بتفوق، وكذلك أخواتي، وأقام أبي حفلا لأجلنا نحن الثلاث بالمطعم، وحملت أمي "ميريت" أختي الصغرى ذات العامين والأنقى على يديها، أحييته بالغناء والعزف، واقتصر الحضور على عمال المطعم وبعض المقربين، وكان "هو" هدية الأقدار لي مكافأة لصبري واجتيازي لاختبار الكلية واختبار غيابه، حضر ومعه ثلاث هدايا لكل منا، لا أدري هل اعتبره أبي من المقربين أيضا ودعاه؟ لايهم.

ولكن حضوره أعاد إلى قلبي النبض الراقص، وبسمة طفلة استدلت على أبيها بعد تيه طويل، وتبدلت أغنياتي إلى أغانٍ تتناسب مع رؤيته: و"كل ده كان ليه لما شفت عينيه؟!!" لأسمع صرخات أخواتي وترحيبهم بالأغنية، وتسلطن من أبي وأمي والحضور.

كانت ليلة استعدت فيها روحي، وانتهز هو فرصة انشغال الاسرة بتنظيم الطعام، واقترب مني ليعتذر عن الغياب متعللا بسفره في عمل وعاد اليوم صباحا، ورغم إرهاقه إلا أنه لم يجرؤ أن يرفض دعوة أبي لحضور هذه المناسبة، هكذا ببساطة اتضحت أسباب غيابه، وكذلك أسباب حضوره حفل أسرتي الخاص جدا، إذن فلقد اعتبره أبي أنه فرد منا، لو لم تتعجل

الاطلاع على الغيب لتفسير الحاضر، لألقى القدر إليك كل التفسيرات دون أن تتعب فكرك وترهق أعصابك ولكن بالفعل "خلق الإنسان هلوعا".

ترى هل أراد أبي أن يقرب بين "مظهر" وبيني، فلطالما لعب دور الأب الحنون المتحضر، ربما ترفق بي وأراد أن يقتنص لي الفرحة، حتى لحظات كتابتي لهذا الكتاب لم تكن لدي إجابة، لكن ابتسم لي القدر، وبدأت مرحلة المنح بعد المحن، أو هكذا هيئ لي.

***

الصفحة الثالثة

مظهر

في بداية العقد الرابع، يعيش حياة أرستقراطية، انفصل منذ عدة أشهر عن زوجته فلسطينية الأصل أوربية المنشأ بعد زواج دام ثلاث سنوات، تعقدت علاقتهما فلقد رفضت زوجته "ريحانة" أن تستكمل حياتها بمصر، لم ترق لها الحياة ببلد شرقي، رغم انبهارها بها في أول الأمر، كسائحة جاءت إلى مصر لتقضي إجازتها نصف السنوية في يناير حيث الجو البارد، فهي لا تتحمل حرارة فصل الصيف، حضرت لتقضي وقتا تتجول فيه في بلد ذي حضارة تضرب بجذورها في عمق التاريخ والزمن، ومازالت قائمة تتحدى الفقر والطمع والفساد، بلد يصمد ويتحمل معاناة باقي البلاد العربية لتنهض، نافضا عنه الأنانية، ويمد يده إليهم وصدره؛ حاضنا كل ضيوفه، بلد يعمل بمنظمة حقوق الإنسان كمتطوعًا، أخذ على عاتقه رفع المعاناة عن شعب فلسطين، وتعريف العالم بالقضية الفلسطينية.

لم تخلع "ريحانة"عن كتفها الكوفية البيضاء المقلمة بالأسود رمز الوطنية والنضال الفلسطيني، وأحيانا تضع على رأسها" البشنيقة" تمسكا بهويتها الفلسطينية، لكنها لاتتقن العربية، فهي تتحدث الفرنسية بطلاقة والإنجليزية، كل ما تعرفه عن فلسطين هو حكايات

سمعتها من أبيها رجل الأعمال الفلسطيني الكبير، الذي ولد وعاش بالمملكة المتحدة، فوالدتها فرنسية، وكانت "ريحانة" تتنقل بين المملكة المتحدة وفرنسا، وحينما التحقت بالجامعة، وتعرفت على أصولها، قررت أن تضع الكوفية و(البشنيقة)، وتتحدث عن فلسطين، وأمسكت بميدالية مرسوم على أحد وجهيها "حنظلة" لناجي العلي، والوجه الآخر لشجرة زيتون، لتتألق في وسائل الإعلام العربية، التي لم تبخل بتلميع وجه "ريحانة"، وكتابة الخطب لها بأحرف لاتينية، حتى تتمكن من قراءتها أمام وسائل الإعلام العالمية.

التقت بمظهر في أحد المؤتمرات التي عقدتها المنظمة تحت رعاية منظمة حقوق الإنسان، تعددت اللقاءات بينهما، وانتقلت للعيش معه، وبعدها تزوجا، وعاشت معه في مصر.

تمر الأيام، وينتهي الشغف، وتشعر بالحنين إلى أرض ميلادها، لتقرر أن تعود إلى وطنها في المملكة المتحدة، ليسألها متهجما:

- وحلمنا، بيتنا، قضيتنا، فلسطين المحتلة؟

- أبدا لن أتخلى عنها، ولكن لا أستطيع أن أتكيف لا مع هذا العالم ولا لغته، ثقيلة على لساني وقلبي. هويتي لن تحتجز حريتي، انتقل أنت معي إلى لندن.

يرفض مظهر، لأن عمله وحياته وأسرته عاشت وترعرت على أرض مصر، وينتهي الزواج وتغادر..

- "ريحانة"، يبدو أن فلسطين التي تدافعين عنها ليست هي التي أحمل هويتها وهمها، فلسطين ليست (بشنيقة) و(علمًا) نتنقل به في سياحة، ما بيننا كان خيالا ووطنا على ورق .. أنت حرة "ريحانة".. وداعا.

قفزة إلى ما قبل النهاية

"دقت جرسًا فوق شباك السرير لتدخل الممرضة"

- نعم سيدتي.

- ألن يحدد الدكتور موعدًا للجراحة. أم أعجبكم جلوسي بينكم؟

- لا علم عندي، ولكن نحن في انتظار د. "آمنة"، لأنها طلبت من إدارة المستشفى عدم التصرف لحين حضورها.

الحديث باللغة الإنجليزية متعب وجاف فلا تلتقي الكلمات بما أشعر به، كلمات بلاروح، هناك فجوة بين مشاعري والكلمات بلغة غير لغتي، حتى وإن أتقنتها.

تمنيت أن يزول عني هذا الكابوس، وأجد نفسي على أرض مصر بين صحيباتي، ليتني ظللت بين جنبات الأمس ولم أغادره، ليت ساعة الشمس كفت عن المغيب، وتركتني بين أحداث الأمس.

ترى أين "عنود" الآن؟ وماذا تفعل "همت"؟

سنوات طويلة مرت منذ آخر زيارة لي لليمن.. كم أفتقد رفقتهن!

***

الصفحة الرابعة

كنت كلما تأزمت حياتي، أو احتجت إلى أن أجلس مع نفسي، أمسكت بريشتي ورسمت صورتي كما يملي علي إحساسي، أحيانا أكون في قمة الحزن، فأرسم صورتي تحت حمية الشمس وحدي، وقد أكون طفلة تحبو بساق طيبة وساق يشوبها العطب، أو عروسا تمسك بذراع عريسها، وهو ممسك بيد أخرى غيرها.

جعلت من ملامحي بطلة لأغلب أعمالي الفنية، وهكذا صارت عادة عندي،الانفراد ب"هيلانة" الحقيقية، ذات الألف وجه، كلما ضقت بالجمع المحيط بي، كنت أكتب قصصًا وأسردها أتوجرافيا بالألوان وصورتي.

تطاردني صور من الأمس، وتتلاحق في الهطول، وكأن عقلي يجترها خوفا من أن تنمحي من ذاكرتي في ليلة، ولكن كيف ذلك، وهي ما تبقى لي من الحياة؟!

فلقد انفصلت عن الأحياء منذ زمن طويل، واكتفيت باسترجاع أصواتهم وصورهم التي تغذي عقلي بالحياة، أما المرآة فهي انعكاس للطرف الآخر من المحاورين، "أنا " الموجودة حقا، وأنا التي أتمنى أن أكونها.

الصفحة الخامسة

أذكر تفاصيل زواجي من "مظهر" جيدًا، فهي اللحظات التي تعرفت فيها على الضحكة من القلب، على السعادة. كنت قد انتهيت من امتحانات السنة الثانية في الكلية، وعدت في لهفة لقضاء الإجازة بين أحبتي، وأن ألتقي بمظهر في لقاءات ممتدة، لا تعكرها التزامات ولا وجوب السفر، لتتوالى المفاجآت التي أسعدتني وأكملت لي ما نقص مني.

لقد كانت فرحة صادقة لا يعتريها أي ادعاء أو تمثيل، فلقد اعتدنا هذه الأيام أن نجامل حتى بتمثيل الفرحة والتقاط صور تبتسم، ولكنها تحمل معاني النفاق والادعاء.

لم تكن هناك جلسة اتفاقات على المهر أو الشبكة أو القائمة، اكتفى أبي أن يطلب منه وعدًا بأن يهبني السعادة. رأيت في عيني أبي وأمي سعادة وفرحة، ليكون القدر كريمًا مرة أخرى معي، ويميزني بشئ آخر عن أخواتي، ألا وهو زواجي مبكرا ومن شخصية عامة، رجل وسيم، رجل أعمال ناجح.

كان حب "مظهر" لي مشجعا لقبول أبي، خاصة أنه قد تعرف على عائلته عن قرب، كانت أسرة فلسطينية ذات نسب مصري، ويتنقل "مظهر" ما بين مصر، والأردن، وفرنسا، وعدد من البلدان العربية، بحكم

عمله كمهندس مدني، وموظف كبير في هيئة تابعة لمنظمة التحرير.

تمت مراسم الزواج في مطعمنا، بحضور أفراد الأسرتين، وخاتم من الألماس، وفستان صممته أمي وطرزته، وكانت إشبينات عرسي أخواتي جميلات الشام ذوات اللمسة المغربية وخفة الدم المصرية، وكانت "ميريت" كما "كيوبيد"، ترتدي فستانا من الدانتيل الأزرق، والذي تماهى مع عيونها بلون السماء الصيفية، كنا وأخواتي كما حوريات الجنة.

كانت ليلة جميلة قطفتها من الأحلام، لتكون آخر تعامل لي مع الفرح، ونسافر إلى سيناء لقضاء شهر العسل.

***

الصفحة السادسة

قضيت أسبوع العسل بالعريش بسيناء، فسيناء ذات قيمة خاصة لدى "مظهر"، فهي النصف الآخر من التفاحة كما كان يردد دائما، أي أنها النصف المتاخم لفلسطين، وبها عبق الأرض المقدسة.

يمتلك مظهر "شاليها" راقيا هناك، ولأسرته عدد من الكافيهات، يعمل بها عدد من الفلسطينين والمصريين وأهل العريش، الجو هنا له عبق عربي خالص.

عشت أسبوعا وكأني سائحة تقتنص الساعات والمتعة، فزمن الرحلة محدد، قصير.

عدت من البحر في تلك الليلة، تملكني البرد، فلقد نسيت نفسي وأنا أجلس ليلا على الكافيه مع البحر وصوت فيروز، اللذين حلقا بي حتى لامست السحاب، أفقت، تلفتت حولي، لأجدني وحدي، وقد انشغل الجميع بالرقص والغناء، وغاب "مظهر" عن المشهد وعني، ربما يكون قد استأذن مني وأنا كنت في غياب مع الحلم، أو ربما لم يستأذن وانصرف دون أن يعبأ بي، لكني وقتها لم أكن أقبل إلا أن أراه ملاكا، نهضت، وقررت العودة إلى الشاليه لإحضار شال أغطي به كتفي وظهري، وأحتضن مظهر، فلقد كان البرد قارسا، وحضن "مظهر" مدفأتي وخيمتي.

فتحت الباب، سمعت صوت تأوهات، تصورت أنه صوت التلفاز، اقتربت أكثر، ليرتفع الصوت كلما تمددت قدماي نحو غرفة النوم، انتابني الخوف، وهيأ لي خيالي البرئ أنه لص وعاهرة، اقترب أكثر ببطء، وكأن هناك نوعًا من "الميكانيزم" قد كبل قدمي ليمنعني من أن أسرع.

يزداد الصوت وضوحا وقوة، إنها نبرة صوته حين يكون في غمرة الحب، هي كلماته التي يهمس بها في أذني حين يرتمي بأحضاني، "مظهر" في حضن امرأة أخرى؟!

ترددت أن أكمل خطواتي، أن أضع يدي على مقبض غرفة النوم لأديره، فتح الباب بيد أخرى، إنها يد تلك "الأخرى "، خرجت فتاة بلا ملابس، إلا من وشاح لفت به جسدها، تسمرت في مكانها، لا أدري هل عرفت من أنا؟ أم تصورت هي أيضا أنني قد أكون "الأخرى" بالنسبة لها؟، ليت ما أراه وأسمعه هي تخيلات ظالمة لمظهر ومجرد هواجس حبيبة لا تثق في نفسها.

ربما أكون في ثنايا أحداث واحدة من تلك الرؤى التي تحمل تنبأ ما، حتى لو كانت رؤية فهي كارثية، قد يكون كابوسًا، وأنا مازلت أجلس على الشاطئ، ورحت في نومة، وتسلقني الحلم لأن الليلة صقيع.

يكذب تفسيراتي صوت مظهر-الذي كان كقرصة في ذراعي تؤكد لي انني أعيش واقعا- وهو ينادي على تلك المرأة التي لم يسجل عقلي اسمها، بل فقط ملامحها العارية وجمالها الآخاذ.

يلحق بها، ويخرج عاريا، واضعا (البورنس) على جسده، يتسمر بجوارها أمامي، أما أنا، فلقد غرست في الأرض وتخدرت قدماي، الرجل الذي تفتحت غرفات قلبي على يديه كان في حضن امرأة غيري، في سريري، يعتصر ظهرها، وقد دفن رأسه في صدرها، (أكملت صورة الخيانة التي رحمني القدر من مشاهدتها)، وقد ارتفعت يداي لتمنع فمي من الصراخ أو الرفض، جحظت عيناي لتخرج من مقلتي وكأنها تسعى لمطاردتهما والإمساك بهما، ظللت في مكاني، وكأن الكون قد قامت قيامته، واللعنة صبت غضبها على شياطين الأرض.

يرفع رأسه بعد أن أحنى رقبته مدعيا الخجل والندم وينظر إليّ.

تجري الفتاة إلى الغرفة، تلملم قطع ملابسها الموزعة على الأرض - فلقد تركت باب الغرفة مفتوحا مكشوفة كما عورتها - والملقاة على شباك السرير، وتغيب، وفي هروبها من أمامي لفحتني رائحتها، تلك الرائحة التي ظلت لصيقة أنفي، وصورة "ماجا العارية" تطاردني طوال حياتي معه، كصاعق كهربائي يلسعني

كلما اجتررت تلك اللحظة، لقد طبعت رائحتها في ذاكرتي، وقطع ملابسها، والتي كانت مزيجًا من ألوان الصيف الساخنة، والتي صارت ألوانا حاضرة وبقوة في لوحاتي، كنت ألبسها لكل عاهرة، إلى أن نضجت تلك الألوان لأجعلها رمزا لكل فتاة حرة، واثقة من نفسها، ومن أنوثتها.

كانت تلك اللحظات التي مررت بها مع خيانة "مظهر" أولى الصفعات على رقبتي، التي علمت في وجداني، والتي منحتني تجربة استخلصت منها معنى هشاشة النفس الإنسانية، والضعف البشري، وحتمية الخطيئة، التي هي إحدى مترادفات الإنسان، لاشك أن الصفعة الأولى كما الحب الأول لا تنسى.

النصف الثاني من حكايتي معه بدأت في التحقق فأحلامي أبدا لاتكذب.

أمسك بيدي، وأدخلني إلى الشاليه، وجلس على الأرض ممسكا برأسه، رافضا أن يواجهني.

صمت ... فقط.

استجمعت شجاعتي، لطمته على وجهه، وبكيت، تمنيت أن تغسل دموعي تلك اللوحة "الأيروتيكية" الرديئة، وتنمحي من ذاكرتي، لكن هيهات، فالجروح قد تداوى، لكن آثارها تظل حية، لتذكرنا بحمقنا.

لا أذكر كم من الوقت واصلت البكاء، ولماذا أبكي أصلا؟ الذي يبكي من ارتكب الخطيئة، الخائن وليس الضحية، نسيت أن الجزار حين ينزل بسكينه على رقبة خرافه لايعرف البكاء أو الرحمة، ودافن الموتى لا يعنيه المكلومون.

هل انقلبت الموازين والمعايير، ليعاقب المقتول بدلا عن القاتل؟

- "هيلانة"

كان اسمي يخرج من بين شفتيه في خجل وكأنه يتعثر في إحدى قبلاته لها.

- أنا لم أكن في وعيي، شربت، فدار رأسي، وهي أغوتني، ضعفت.

كان ردي صمتا، ودموعا تخرج بلا إرادة مني، ونظراتي لاتغادر غرفة النوم.

- حبيبتي! تكلمي، اشتميني، لكن لاتبكي، دموعك تقتلني.

- لماذا؟ لماذا تزوجتني؟

- لأني أحبك!

- كاذب ! هذه الكلمة تفوح منها رائحة الخمر، والحب أسمى من أن يوجد في لحظة سكر، لم يمر إلا أسبوع على زواجنا، وخنتني في سريري في شهر العسل؟!

من أين لك هذا الجبروت وتلك البجاحة؟

حاولت أن أبصق على وجهه، أو أن أفرغ ما في جوفي من غثيان وقئ، ربما أفرغ معهما تلك المشاهد فأنسى وأفيق، لكن كان المشهد أقوى وأكثر إتقانا من أن ينسى ويغيب.

نهضت متجهة إلى غرفة النوم لأغير وجهتي إلى الشارع، فهذه الغرفة وهذا الفراش لم يعودا لي، أمسك بيدي ليمنعني من المغادرة:

- الوقت متأخر أرجوك لتبق هنا وأنا الذي سيغادر.

دخل غرفة النوم، ارتدى ملابسه، ومازلت أقف في مكاني، خرج -لا أعرف إلى أين- ونمت على الكنبة.

كنت صغيرة، لم أمر بتجارب الحياة والخذلان بعد، لكن مشاعري تلخصت في جملة واحدة: "أحبه، ولا أتصور حياتي دونه، عشت طفولتي وأول شبابي في بيت يقدس الأسرة والاحترام -الذي بلاحدود- بين الزوجين، عشت الحب بمعناه الأعظم، وكلمة طلاق لم تتردد في بيتنا، ولا مكان لها في عائلتنا، وقد تشبعت بتلك القيم، ولكن لم يخبرني أحد أن هناك نوعًا من العلاقات مسممًا كمرض السكري، يستفحل في بقائه حتى يقتلنا.

صحوت من نومي الذي تكدس بالكوابيس من البرد والخوف، لأنني لم أعتد النوم بمفردي، لأجده نائمًا

على (الشيزلونج) بجوار الباب في (الفرندا) الخارجية وقد تجمد بردا، أنقذه من العتاب والتوبيخ إصابته بأنفلونزا حادة، ظللت أطببه لمدة أربع أيام.

طلب مني السماح والغفران، فلقد كانت زلة سكر وانتشاء من تذوقه لحبي، والذي أثار بداخله الطمع في مزيد من الحب وعشق النساء، كان فنانا في الغزل والنصب والخيانة، معرفة جديدة اكتسبتها من "مظهر" أن الخيانة نوع من الفن..

تقبلت اعتذاره، بل استسلمت لطعنته، اعتبرتها كطعنة شلل الاطفال والدرن، ولابد من مواصلة الحياة، وأنا أعاني من الآثار الجانبية لتلك الأوبئة، التي لم تقض علي، ولكنها أضعفت شيئا ما من قوتي، وشدت من أزر مقاومتي، ربما أردت أن أثبت لوالدي ولنفسي أنني كما توقعاني مقاتلة ذات موهبة فذة لمواجهة حروبي الخاصة، وأنني كما "عشتار" قوتي تكمن في ضعفي، وحكمة أمهاتنا بأن السنوات الأولى من الزواج تحمل الكثير من الخلافات حتى تنصهر العلاقة وتتقارب وجهات النظر، ولابد أن تكون المرأة كما الجسر بالنسبة للبحر، والبحر هنا هو الرجل، والمقصود هنا أن تحتويه، وتلملم تقلباته، وجنون أمواجه، لم أكن أتصور أن دور الزوجة صعب إلى هذا الحد، فكل ما كوناه من صور عن الزواج هي صور غير واقعية تحمل الكثير من المثالية.

الصفحة السابعة

عدت إلى القاهرة، وتعمدت أن أظهر بكامل أناقتي، بل بالغت في الاهتمام بمظهري، فكنت كما العروس التي مازالت في ليلة زفافها قائمة، فما ذنب أمي وأبي أن أحزنهما، وأكون سببا دائما للنكد عليهما والألم.

لقد كبرت ونضجت، وقد تحملا مني ولأجلي الكثير، أتما دورهما معي، ولم يقصرا في شئ، ويجب أن أكمل أنا حياتي، وأنهض بمشكلاتي، وأتولي زمام أموري بعيدا عنهما، حتى أنني حاولت أن أشد ساقي اليمنى لتطول وأمشي عليها كما الأصحاء، فبدوت كما ممثل هزلي.

أحاطتني نظرات عائلتي في حب وعطف واشتياق.. أما أمي فتمكنت من كشف حجابي -الذي واريت تحته هزيمتي- واقتحام نفسي..

سألتني عن علاقتي ب"مظهر"، فتراقصت أمامها ودرت حول نفسي، كما درويش يتلقى البركة من السماء، لأصف لها مدى سعادتي، وهناك دموع قد شلت ساقيها فتعثرت في الإنطلاق من عيني، شكرت الله على حسن الاختيار، وعلى توفيقي في اختيار زوج من الأساطير.

نجحت في ادعاء السعادة، و ادعت أمي أنها صدقتني، ودعت الله لي بالسعادة الدائمة.

هكذا كان "مظهر" ممتنا لي، لحفاظي على سره، وستر خطيئته، ودفن خيانته في داخلي بلا مراسم عزاء لكرامتي.

في قرارة نفسي بدأت ألتمس له الأعذار، فلست بالمرأة ذات الجسد المكتمل، ولست الإنسان الصحيح بدنيا، فربما يجب أن أقتنع بما خصني من اسمه كزوجة، "مظهر" تقبل إعاقتي، ولابد أن أتقبل عاهته، ولا أنسى كوننا بشرا خطاءين.

تطاردني صورة "عشتار" وهي تمتطي "تموز" الأسد، كيف روضته وحولته إلى ذلك الهين اللين؟!

تناولنا الغداء مع العائلة، وقضينا السهرة معا، استأذن "مظهر" في أن ننصرف إلى بيتنا بالعباسية، حيث شقة أسرته التي يقطنها، والتي تركها لمهندس ديكور لتجديدها بما يتناسب مع العصر.

دخلت السيارة، نظر إلي "مظهر" نظرة كلها حب وندم ورغبة في بداية جديدة مشيرًا إلى ذلك بقبلة على يدي وجبيني، للحظة شعرت بالزهو، وكأنني خرجت من معركة أحمل في إحدى يدي راية النصر، واليد الأخرى رأس غريمتي، للحظات تصورت أنني فزت كما "إنانا".

دخلت الشقة، وقد حملني على ذراعيه، وخطا خطوته الأولى بقدمه اليمنى، وأنزلني وأنا مغمضة العينين على فراش غرفة نومنا، وضعني على الفراش، فتح ذر النور وقال لي:

- أهلا بك أميرتي في مملكتي والتي هي الآن مملكتك.

نظرت حولي، كان إحساسي كسائح ينزل في فندق راق له فيه أن كل شئ في ميلاد جديد، ملاءة السرير، الشراشف، لمعة الأشياء وجمالها، هذه الأشياء التي لم يمسسها أحد من قبل، فكل شئ بالشقة لم يخلع عنه السوليفان، قطفتي الأولى، ولكن يشوب كل ذلك إحساس ظل منغصا لسعادتي ومهددا لها، أنها ليست لي، بل ستؤول لآخرين بعدي.

مرت اللمسة الأولى بعد الخيانة الأولى، وكان لها طعم مختلف، كانت قبلته لي ذات تلامس غريب، كأنه يحاول أن يتذوق طعما ولكن لا يجده، يلمس أجزاء جسدي مفتشا عن أنوثة اختبرها قبلا، فلا يجد إلا أنوثتي الناقصة، غبت في تفسير معنى لمساته، ورحت في جولة مع سياحته لأنحاء جسدي، لأترجم ما يسعى إليه، لتتوه مني المتعة وتهت أنا منه، خرج من جسدي وفراشي متأففا، لقد ضل متعته.

يبدو أن الفرحة كانت كسحابة بيضاء تتصور قدرتك على الإمساك بها، ولكن بمجرد أن تمد يدك لتقتحمها تتلاشى في الفراغ.

الصفحة الثامنة

مظهر

تختلط عليه الوجوه، تتأجج بداخله الرغبة في الالتحام بامرأة ما، تشعره بالأمان والوطن، يستجدي الانتماء، هو الفلسطيني الذي يدافع عن قضية أرضه المسلوبة المنتهكة، وأبدًا لم يعش على أرضها ولم يتذوق زيتونها، ولا يعي كيف تكون أرضها ولا سماؤها إلا من قصص كانت تصب في رأسه قبل النوم، ولهجة تم تلقينها له حتى لا تندثر، ولكنه أدرك أنه على أرض مصر ضيفًا، شجرة زرعت على سطح أرضها بلا جذور، أما البيت فقد يتسع ويشع نورًا في عصر، وقد ينطفئ وهجه في عصر آخر. تمنى أن يقيم بيتًا دائمًا على هذه الأرض، التي وعى على شمسها وبردها، وأن يغرس ساقيه فيها ليكون كما النخيل فلا يقلعه رافض.

لم ينس "ريحانة" التي كانت عشقه الحقيقي، حتى ملت عالمه وعادات لم تنصهر في بوتقتها؛ لتتخلى عنه وتطلب الانفصال، هكذا بلا أي مراعاة لألمه وتشبثه بأن يمكثان على تلك الأرض، ليدرك أنه عقد حياته وزاد روحه غربة وتمزقًا.

ظل يلهو بعدها بالنساء، يستأجر أجسادهن كما استأجر بيته بمصر، وأقنع نفسه أنه سيظل لاجئًا بين أحضانهن، إلى أنا التقى ب"هيلانة" التي تمددت في حواشيه كما جنين لن يكتب له الميلاد، وسيظل يكبر وتتمدد ذراعاه وساقاه في أنحاء جسده..

يبدو أنه خشي أن تتوغل فيه أكثر، فتحتله كما احتل ابن العم أرضه، فكان يمارس سياحته بالنساء حتى يقضي على ضعفه تجاهها، وأحيانا كان يبحث عن الامتداد.

ما يعانيه "مظهر" حين يُغضب "هيلانة"، هو شعور من خان وطنه بالوشاية أو بيع أراضيه لمحتل، واتخذ من اعتذاره تكفيرًا عن خياناته المتكررة والمتتالية.

الصفحة التاسعة

"أن تمسك بنقطة ضعف الآخر، أو أن تكشف نقصه، يمنحك ذلك القوة وفرصة المساومة، هذا من ناحيتك، أما من ناحية الآخر، فإنه يكون سببا لكراهيته إياك، ورغبته في أن تنمحي من الوجود، ومعك سره وخطيئته".

- كلماتك صارت غامضة، "هيلانة".يبدو أنك نضجت جدا..وكأنك أكبرنا، لا أعرف هل هي روعة الحب أم أن المسئولية هي التي منحتك الحكمة؟

- الحب؟! ماهو الحب؟ بل ماهي السعادة؟

- ألست سعيدة، "هيلانة"؟

لقد تزوجت الرجل الذي كنت تحلمين به، بل وتحلم به أية فتاة؟ إنك لمحظوظة..

- نعم محظوظة، ولكن أي نوع من الحظ ذاك؟ هل هو حسنه أم سيئه؟

- ماذا بك "هيلانة"؟ هل هناك ما يسئ في حياتك مع مظهر؟ احكي لي فأنا أختك الكبيرة وكاتمة أسرارك، ما الأمر؟

- لاشئ "آمنة"، فقط أشعر بالاغتراب بعيدا عنكم، أفتقد لمتنا، أفتقد استقلاليتي.

- إنها سنة الحياة، "هيلانة"!

- سأدخل لأنام بسريري، أوحشني أوقظيني حين يأتي "مظهر" وأبي.

- كما تحبين.

- أين "ميريت"؟ أريد أن أأتنس بحضنها.

- هي مع أمي في المطبخ، فهي لاتفارقها.

سأذهب لإحضارها، أريد أن أنام بحضنها، أشعر فيه بالأمان

***

الصفحة العاشرة

حاولت أن أستفيد من الوقت، وأستغل الساعات الطويلة التي أقضيها وحدي، فلقد عاد "مظهر" لعمله وأسفاره غير المؤقتة بجدول ثابت، أخرج للتسوق بالخيامية والمغربلين والأزهر.

كان الباعة والوافدون على المكان ينظرون إلي نظرات استغراب وألمح في عيونهم سؤالا: لِم حاجباك موصولان، ولم الشارب؟ تلك الملامح الخاصة جدا منحتهم تفسيرات، منها أنني لست مصرية، هناك من اعتقد أنني قد أكون إيطالية لبياض وجهي وسواد شعري، وهناك من اعتقد كوني تركية، فخاطبني الباعة بالإنجليزية التي كنت أجيدها، واستحسنت تلك المعاملة واشتريت ما أردته كأجنبية، وجدت في أعجميتي حماية من المعاملة غير اللطيفة التي قد ألقاها، وكانت تصل إلى أسماعي كلمات نابية مع ابتسامة كاذبة أحيانا، وكانت الضحكة تقهقه بداخلي، وبسمة أرسمها على وجهي، مدعية جهلي بتلك الكلمات المتنمرة.

اشتريت أقمشة ذات نقوش عربية، وبعض الحلي من درب البرابرة، وغيرت من ديكورات شقتي، ووضعت بأحد الأركان مفروشات بمزركشات عربية خالصة، وفانوسا بأحد الأركان، واشتريت عبوات لدهانات

البلاستيك، وقمت بتغير ألوان بعض الحوائط، ربما يشعرني ذلك "بالبيت"، بالدفء، قد يزول شعوري بالغربة، وتعمدت أن أنسخ بعض الأركان في بيت أمي، حتى لا يؤلمني الحنين.

وفي غرفتي رسمت صورة كبيرة لي أمسك بنجمة وخلفي البحر، لم يشعر "مظهر" بما أقوم به من تعديلات وتغيرات بالشقة، فلقد كان كثير الأسفار، إلى أن أنتبه في يوم إجازة ليبدي انبهاره وإعجابه بما صنعت، وقام بتصوير كل ركنة بالكاميرا، فلم يكن الموبايل قد وجد بعد، ليفاجئني بطبع تلك الصور وتكبيرها ونشرها باسمي بأحد المجلات التي يديرها أحد أصدقائه، ليلمع اسمي في مجال الديكور، وتعرض علي شركته للعمل معهم بشكل حر.

كانت لمستي الخاصة جدًا هي إحدى صوري التي أمزجها مع الطبيعة، كما تركت لوحتي "عشتار" ذات الحاجبين المتقابلين بمطعم أبي؛ تركت لوحاتي بكل تصميماتي بكل شقة زينتها.

لأتنقل في حارات القاهرة وأزقتها، وأعايش تلك الطبقات التي لا تعرف عنها الحكومات شيئا، وأجسد حياتهم في لوحات تتحدث بما يعانون، فلقد عشقت فن "الباروك"، وأدركت أن ريشتي يجب أن تحمل رسالة.

لم أعد أهتم بجماليات الطبيعة فقط، بل أطرت معاناة أفرادها في لوحاتي.

كنت أواصل دراستي بالجامعة مع عملي الخاص في تصميم الديكور والأثاث المنزلي بإحدى شركات صديق "مظهر" المهندس "نبيل"، الذي كان يتقبل غيابي لأجل الدراسة، وكنت أفني ساعات طويلة أثناء الإجازة لاستكمال ما يتم تكليفي به.

شغلت أغلب وقتي ما بين الدراسة والعمل، ولم يبخل "مظهر" بمساعدتي وتشجيعي، ربما فعلا حبا لي، أو ربما تكفيرا عن خياناته التي لم أعد أحصيها أوأهتم بها..

***

صار لي اسم في عالم الديكور، وعملت في التصميمات من منزلي، فلم يؤثر ذلك على دراستي بل ساعدني أن أطبق دراستي وأحولها إلى واقع، أمتن ل"نبيل" على مساندته، فكنا نتبادل الخدمات، يمنحني بعض المشروعات، وأعمل له بعض التصميمات بأسعار مخفضة وأحيانا بلا مقابل، ليعرض عليَّ أن أدخل معه شريكا، لأنه يرجو أن تتسع مشروعاته ليصبح اسم شركته " ترندا" عالميا.

استأذنته أن يمنحني بعض الوقت للتفكير وعرض الفكرة على مظهر.

في أثناء وجبة العشاء فاتحت "مظهر" في عرض "نبيل" فلم أجد منه اعتراضا، ولم يتردد في القبول،

بل تحمس للفكرة، وطلب أن يدخل شريكا بالمال، وأنا بمجهودي.

طلب مني التفرغ للدراسة، وأنه سيتحرك هو و"نبيل" في استكمال الإجراءات، وأعمل أنا من البيت حتى أنهي دراستي، وأجمعنا على أن تحمل الشركة أسما مصريا قديما لتكون "دشر- كيما" أي الأرض السوداء والحمراء.

أنهيت دراستي، وتفرغت للشركة والتصميمات التي شغلتني عن وحدتي، فمظهر غرق في أسفاره ومؤتمراته وخطاباته، وكذلك مشاريعه الهندسية في بلاد عدة، وكرست وقتي لفني وانتظاره.

يعود ذات ليلة ليخبرني برغبته في أن يصحبني معه إلى بلد يضرب بجذوره في أعماق التاريخ، ولاشك أن طبيعة هذا البلد ستلهمني بالكثير من التصميمات غير مسبوقة، وكذلك فرص لانتشار اسم الشركة.

- تقصد أي بلد؟ القدس؟

- ياليت .. حبيبتي .. إنها اليمن.

- سمعت عنه كثيرا ولكن السياحة إليه نادرة.

- إنه بلد ذو طبيعة خلابة، ولكنه مجهول على الخارطة عن عمد، إنه كنز يا عزيزتي.

الصفحة العاشرة

اليمن: عنود

قدمت إليها هربا من جحيم شب في (حماة) شباط "فبراير" ١٩٨٢ بعد حصار ٢٧ يومًا ليخلف ما بين ٣٠.٠٠٠..و ٤٠.٠٠٠ قتيل، أغلبهم مدنيون لا ناقة لهم ولاجمل فيما نشب من صراع بين النظام وجماعة الإخوان المسلمين.

لقد تحولت تلك المدينة بين عشية وضحاها إلى براكين تتدفق لهبا وحريقا، أتت على الأخضر واليابس، بل وعلى كل كائن حي، ومن بقي حيا تم "اعتقال"ه ليعاني حظه السئ، فلقد تخلى عنه الموت، ففي أحايين كثيرة يكون الموت عافية، عافية من قسوة الإنسان وجبروته، فحين يختفي الضمير، أو يصاب بالعطب، يتحول المخلوق البشري إلى آلة تعذيب وقتل لاتعرف الرحمة.

هل يحق لأي إنسان مهما كان وضعه أن يحرم إنسانًا مثله من الاعتراض، من أن يمارس حقه الطبيعي في الاعتقاد، في أن يمارس حريته التي وهبها له الخالق؟!

كيف يسمحون لأنفسهم أن يسلبونا هويتنا، حياتنا.؟!

انتهى الخلاف العقائدي والأيدلوجي بأن تمكن الطرف الأشد قوة وبطشا من أن يفرض رأيه بالقوة، بالعنف،

بالذل وإذعان للطرف الأضعف، وانتهت المعركة غير المتكافئة، بإبادة (حماة) وما عليها.

تمكنت بمساعدة بعض الطيبين من مغادرة (حماة) إلى اليمن بعد صراع مع الموت للخروج من سوريا، ومعها أخوها الأصغر "عدنان"، فلقد نفدت روابطها الطيبة جميعها، ولم يصمد في تلك الحياة إلا هي وأخوها، الذي هو كل عائلتها بعد المذبحة، كانت ترتعش كلما تذكرت تلك المجزرة، أصيبت ب"انهيار" عصبي، بعد أن شهدت مقتل أسرتها جميعها، وتم "اعتقال" أخيها الأكبر ، الذي نظر إليها حزينا، فهو لن يتمكن من رعايتها هي وأخيها، وكانت تنظر إليه خجلا من عدم قدرتها على الدفاع عنه وإنقاذه مما هو مقبل عليه.

عملت "عنود" و"عدنان" بأحد المصانع للمناديل الورقية، عاشا في بيت بسيط في بادئ الأمر بإيجار معقول، فلقد أكرمهما صاحب البيت وراعى ظروفهما. يقضيان النهار في العمل بالمصنع، وبقية اليوم في بيع الحصة التي يهبها لهما صاحب المصنع كمساعدة منه بسعر أقل كثيرا من سعر الجملة، و يدخران جزءا من راتبهما لشرائها ثم التجارة بها.

تمكنا من أن يربحا ما يكفيهما، بل واشتريا سيارة صغيرة يتنقلان بها بين محافظات اليمن للبيع، لم تكتف "عنود" بذلك، بل مارست مهنة الحياكة،

وطورت من نفسها، راسلت إحدى المجلات العالمية لتبعث إليها أحدث الأعداد في الموضة، لتقوم بتفصيل أحدث الموديلات، فتعرفت على سيدات المجتمع الراقي، منهن زوجات لمسئولين في الدولة، مما منحها علاقات ونفوذا، وفتح لها المجتمع، وأتاح لها المزيد من المجالات.

ولأنها حاصلة على دبلوم من معهد إعداد المعلمات، فلقد عملت كمعلمة للغة العربية، ومعلمة خاصة لابناء عدد من الوزراء، وكذلك سائقة خاصة لإحدى زوجاتهن، فكانت أول سيدة تقود سيارة هنا.

في أحايين كثيرة كانت ترافق زوجة وزير الداخلية في أسفارها إلى بعض البلدان العربية والغربية، وكانت تستغل الفرصة لشراء بعض الأجهزة والمعدات التي تساعدها في ممارسة التفصيل وتصميم الأزياء، لم تتخل عن عملها ولم تكتف بكونها معلمة أو مربية لابنة المسئول الكبير، فهي لا تجد لذة في الوظيفة ولا ترحب بالقيد.

تركت التجارة لأخيها، وواصلت هي مهنة الحياكة وتصميم الأزياء، وكذلك الدروس الخاصة، ومن وقت لآخر كانت تشارك أخاها في عملية البيع والشراء إذا احتاج إلى مساعدتها، فتوسعت تجارتهما وعلاقاتهما، وانتقلا إلى بيت مستقل في منطقة التحرير حتى تقترب من أماكن الأقمشة ومن عملائهما.

تمكنت من أن تضع قدمها على أول سلم النجاح، فاليوم طويل حين تبتعد عن الأهل والصحاب، حين تحرم من الوطن، من أول قصة حب مع ابن الجيران، مع حبوك على أرض تنفست رائحتها مع عرق أمك، حين يقصيك الآخر، ويلفظك الوطن إلى منفى، حتى لو كان أرضا طيبة، لابد أن تؤهل جسدك وقلبك لإقامة أسرة جديدة وتاريخ جديد، وأن تتلسن بلهجة ثانية، فلقد ضاع منها الأمان، لتعيش بين يوم وليلة إحساس أبناء الشوارع.

وقدرها أن تنفض عن رأسها ضحكاتها مع الجيران، وزميلات المدرسة، وأسرارهن التافهة العظيمة، وقصة عشق كتمتها في قلبها، وحرصت على تخزينها كما العطر في قارورة صدرها، فلقد ضاع منها الحبيب تحت قصف البارود لتشيعه مع عائلتها، هكذا دخل الزمن عالمها دون أن يطرق الباب، دون جرس ينبهها، هكذا هو القدر.

نفضت عن كتفها عروض الزواج ووضعت كل طموحها ومجهودها للنجاح في عملها، أو ربما كانت تغرق روحها في العمل حتى لا تفكر أو تجتر ذكريات مغطاة بالدم وصور أفراد أسرتها ذبيحة ومشروع حبيب لم يكتمل، ونكبة "اعتقال" أخ، التي طالما حاولت أن تهرب من الحلم أو النوم حتى لا تفكر فيما يعانيه داخل المعتقل، ربما أرادت أن تصل إلى مكانة

ومركز مادي ونفوذ يمكنها يوما من المساومة للإفراج عنه.

عادت من رحلتها بالعراق، وطلبت من السيدة "أروى" أن تذهب إلى شقتها للراحة، حاولت تلك الأخيرة أن تثنيها عن الذهاب، وطلبت منها أن تبيت الليلة بالقصر، ولكنها استأذنتها أن تنفرد بنفسها قليلا، فلبت طلبها، وأمرت السائق أن يقوم بتوصيلها إلى باب البيت، وألا ينصرف إلا بعد أن يطمئن عليها.

فتحت باب شقتها، بحثت عن أخيها، ولكنه لم يكن موجودا ربما كان مع أحد العملاء، توجهت صوب النافذة، ونظرت إلى السماء، وتنفست ذلك الهواء الذي تستمد منه قوتها، ففي هواء اليمن رائحة خاصة جدا، والجبال المحيطة بصنعاء جمال يبهر الأبصار، ربما لا يكون اليمن بلدا غنيا بالزيت أوالبترول أو المعادن التي يطمع بها الغرب، ولكنه بلد حباه الله بطبيعة تنافس بلادا سياحية أقل منه روعة، لولا فقره، كانت هذه الطبيعة أرضا خصيبة جديرة بأن يقام عليها عدة حضارات قد ذكر في القرآن، لذا كان تشعر بالقوة حين تتغلل نسمات هواء هذا البلد في رئتيها.

تشعر بالأكسجين يتوغل دورتها الدموية، وكأنه يفتح أوردتها ومسامات جسدها، لكي تختزن بها تلك الحضارت، فيزداد عزمها على النجاح والمقاومة لأن تواصل رحلة الحياة، وأن تتمكن يوما من أن تلتقي

بأخيها، وأن يجتمع شملهم، وتستقوى بلمتهم، آخر منحة سوريا لها.

هل شاهدتم تلك البيوت المنحوتة داخل الجبال؟

هل رأيتم تلك البيوت ذات النوافذ الطويلة، والقمريات الملونة؟ إن أرض هذا البلد المتدرجة.. جميلة وعصية على الانزواء.. كما سوريا..

"عنود" فتاة طويلة، بيضاء، ذات عيون زرقاء كما سماء صيف سوريا، ذات شفاه غليظة بلون الجوري، ذات قوام ممشوق، ترتدي البالطو دائما، وحجابا قصيرا خلق من ملامحها حورية أخطأت الأرض، متدينة بلا تعصب، شخصية عملية، كلامها قليل، لا يستهويها ال"اختلاط"، تتخذ من قلبها بوصلة، بها تنتقي أصحابها، ذات نظرات حزينة، رغم ذلك لا تفارق وجهها البسمة، اتخذتها سنة: "تبسمك في وجه أخيك صدقة"، دائما ما تحادث ذاتها، ذنوبنا عظمت، ونحن في حاجة إلى الصدقات، قد يغفر الله لنا ما ببواطننا من غضب وكره زرعه فينا أنسباء وأسلاف وأخوة، تركت قلبها وحضارتها هناك بسوريا، في بقعة ملطخة بدم أحبتها، والدم لا ينبت. منذ لحظتها وهي رافضة الحب والزواج، إلى أن تعود إلى أرضها.

***

الصفحة الحادية عشرة

همت

أذكر يوم قابلتها، كنت في زيارة لبيت عائلة الأحمر، والذي كان لهم الفضل في ترسيخ وجودي باليمن، ونجاحي كتاجرة ومصممة أزياء لها اسمها في أغلب بيوت شرفاء اليمن، كانت جميلة، صغيرة، لا يتعدى عمرها الثانية والعشرين، في عينيها ذكاء مطعم بمسحة حزن ودموع تصرخ رغبة في أن تحررها، كانت معلمة لابنة الأحمر الصغرى.

عرفتني عليها الأم، ودخلنا بعدها إلى الديوان لكي تقيس الفستان الذي صممته لها لليلة زفاف إحدى قريباتها، فساتين السهرة لسيدات اليمن أقرب في الملامح من الزي الهندي، والكثير من العادات قريبة جدا من العادات والتقاليد الهندية، ولقد تفهمت ذلك وأدركته، لذا نجحت في أن أخرج لهن الفساتين كما يرغبن.

أعود للفتاة التي التقيتها، عرفت بعدها أنها مصرية تعمل كمعلمة خاصة للغة الألمانيه، متزوجة حديثا، وجاءت بصحبة زوجها الذي يعمل كمعلم في المعاهد العلمية، تعددت اللقاءات بيننا في نفس البيت، كان هناك خاطر ما بعقلي وقلبي يدفعني أن أقترب منها،

تلك الأحاسيس غالبا ما أفشل في إيجاد تفسير لها فأنا أتعامل مع الأرقام، وامرأة تبيع وتشتري، والجمل المرتبة ذات المدلولات الأدبية لا تسعفني، وجدتني أنجذب إليها، أشعر أنني أعرفها منذ كنا أطفالا، على الرغم من أنها تصغرني بأكثر من عشر سنوات، مما جعلني أشعر بأنني مسؤولة عنها كمسؤوليتي تجاه "عدنان" أخي، لتتحول علاقتنا إلى صداقة استمرت حتى الآن.

كانت تزورني من وقت إلى آخر، تأتي بصحبة زوجها، الذي يتركها في بيتي، ثم يعود ليصحبها إلى البيت.

عرفت بعدها أنه يغار عليها إلى حد المرض، ولا يتركها تتحرك بمفردها، ولاتخرج بصحبة أحد، لكنها تمكنت من إقناعه بصداقتي، ولأنني بلا زوج، ومتدينة اطمئن إليَّ، فبدأ يتركها لتصحبني في بعض الخروجات، بعد أن يعلم المكان وموعد عودتها، هكذا تحررت منه قليلا.

كنت كما الأخت الكبرى أو الأم لها، وهي كانت العوض لي عن أسرتي التي راحت مني في غفلة من العدل.

لم تفرقنا لا الجنسية، ولا اللهجة، كانت سوريتي ومصريتها قد ذابتا، وحل محلها كوننا عربيتين من

أرض مختلفة، لكن تجمعنا اللغة، والعادات، والحاجة إلى شئ ما نفتقده ،سنلتمس آثاره مع توطيد علاقتنا.

- أعشق طريقة خروج الكلمات من فمك "عنود"، لم أسمع اللهجة الشامية إلا نادرا من الأفلام الأبيض والأسود، وحين تم عرض فيلم لدريد لحام في إحدى السهرات، اللهجة الشامية لها موسيقى جميلة، وهي أيضا واضحة، لا أجد صعوبة في فهمها، لا كاللهجة اليمنية، أول قدومي لليمن تصورت بسذاجتي أن العالم العربي كله يجب أن يتحدث المصرية، لأفاجأ بلغة وقفت أمام ناطقيها كبلهاء.

- أضحكتني "همت" .. سمعت عن خفة الدم المصرية وهأنذا أعيش معها.

- عن جد، حين التقيت بزوجة صاحب شقتنا كانت تحدثني باليمنية، معتقدة أنني أفهمها حتى قلت لها: "ستوب، سلوموشن" لتسألني " إيش"؟

أجبتها: أقصد ببطء، تحدثي ببطء لأسمع، حرف الشين يبتلع حرف كاف المخاطبة في كل الحوارت الموجهة للنساء، قلتلش، سمعتش، أحبش..إلخ

سألت "شريف" ليشرح لي لهجتها، وحتى الآن أجد من الصعوبة أن أفهم العامية اليمنية، وما ساعدني أن أغلب الفتيات اللاتي أدرس لهن يتقن العامية المصرية.

قالت ولم تغادرها الضحكة: كنت مثلك، الآن أتقن اليمنية كما السورية.

لم أعد في رغبة في أن أكمل عملي كمعلمة، لذا تركت أغلب الفتيات لـ "همت"، وتفرغت أنا للعمل في تصميم الأزياء وأحيانا التجارة مع "عدنان".

تمكنت من أن أوفر لها الكثير من الدروس الخصوصية في أرقى البيوت،أغلبها بيوت سادة اليمن، فالألمانية هنا غير مطروح فكرة تعلمها، على الرغم من حاجتهم إليها، فأغلب الأسفار للعلاج او للسياحة تكون إلى ألمانيا، لرخص أسعارها، وتقدم الطب والعمليات الجراحية هناك، وكانت هي الوحيدة التي قدمت نفسها كمعلمة لتلك اللغة المهمة.

قالت لي:

- مازال التفاخر بالأنساب هنا قويا، تنزل الأديان لمحاربة نقيصة ما، ثم لا تلبث أن تعود تلك النقيصة أقوى، مغلفة بغطاء ديني، ومبررات تم مسخها عن أصلها، المفروض أن قيم الإسلام الأولى والأعلى هي محاربة العنصرية والمساواة، وأنه لا فضل لعربي على أعجمي ولا أعجمي على عربي إلا بالتقوى، والدين المعاملة، ولا تفاخر بالأنساب، وأن البشر يتميزون بصالح الأعمال، وليس بفصيلة دمهم أوالنسب، ليرتد أنصاره إلى الموروث، وتنزوي قيم المساواة والعدل، الطفل اليمني يحفظ اسم أسرته حتى

يصل إلى بيت الرسول، إن كان من الشرفاء، متشرفا ومتباهيا بنسبه، ولا يقبل زواج الشريفة من الرجل اليمني العادي.

أكملت حديثها:

- لكنهم مازالوا على فطرتهم الطيبة، لم يلوثها مدنية ولا عولمة، حين سمعت أن مذهب أهل اليمن هو "الزيدي" تصورت أنني سأري طقوسًا غريبة ومتطرفة من التشيع، لأكتشف أنهم معتدلون جدا، ولا يوجد فارق كبير بين السنة والشيعة الزيدية إلا في أمور لا تمس صلب العقيدة، مجرد اختلاف في خطوات الوضوء، والوقوف في أثناء الصلاة، كلها اختلافات قشرية،لكن لفت نظري التقسيم الذي يمس الأصول أو الحسب والنسب كما نقول في مصر.

- أعتقد يا "همت" أنت وأنا نختلف عن بلاد الخليج، لا علم لنا إلا باسم الجد الثالث أو الرابع، وإن كانت الذاكرة قوية فقد نذكر اسم الجد الخامس، فكلانا ينتسب إلى أصول إما تركية أو ألبانية أو شركسية، هكذا أغلب البلدان العربية، قد ذابت الهوية واختلطت الدماء، لتذوب أصولنا العربية الخالصة، لنكتشف أنه لا وجود لعربي نقي.

- اللهم إلا في بيوت قليلة باليمن التي تمتد أصولهم إلى البيت النبوي ويحفظون نسبهم حتى الجد الخامس عشر.

(قالتها وهي تضحك كما الأطفال)

كلنا يعاني من العنصرية بشكل جديد، العنصرية في مجتمعاتنا العربية تبرز بشكل متوحش حين تعادي أيدلوجيتي، وتناصر الفكر المعارض، عندئذ أنت عدو الوطن وإرهابي.

- المصطلحات الضخمة هذه لا أستوعبها يا "همت" ولكن طبعا أفهم ما تعنين، على الرغم من أنني لم أكمل تعليمي الجامعي، إلا انني حصلت على دبلوم المعلمات فوق المتوسط، وقارئة جيدة في الكتب الدينية والسياسية.

- أنت امرأة جميلة وكريمة ولك كاريزما رهيبة، "عنود"

- جزاك الله خيرا "همت"

- أعجبتني تلك الدعوة، فيها الشكر وفيها الدعاء بالخير معا، سأجعلها تحية على لساني منذ هذه اللحظة.

هكذا تبادلنا العطاء، أمنحها أمومتي، وتمنحني هي بنوتها وصداقتها وضحكاتها التي لا يمنعها حتى حزنه أوقلقها المستمر، كان أجمل ما في "همت" ضحكاتها، لا تحزن طويلا، رغم أن عيونها تمتلئ بكاء.

كنا نتحرك معا عند التسوق أو شراء الذهب، لانبتعد إلا إذا كان لديها ارتباطات في التدريس، أو في أثناء انشغالي في عقد صفقات تخص شركتنا.

****

الصفحة الثانية

آمنة

أنهت دراستها في كلية الطب، وقد اكتسبت مهارات عدة، منها أن المرض أحيانا يكون مصدرًا للرزق، ففي أكثر من امتحان رفض بعض المرضى إطلاعها على الأعراض التي يعانونها، أو حتى الإفصاح عن أوجاعهم حتى تدفع لهم مقابل الكشف الطبي عليهم، كانت تخشى على نفسها من فتنة هذا الامتحان، وأن تخرج وقد تشوهت داخلها قيم الرحمة والإنسانية.

كان بقصر العيني مرضى مر على وجودهم بالمستشفى أعوام، وكأنهم قد اتخذوا منه "موتيل"، ومن مرضهم مصدر رزق لهم.

تجارب دخلت فيها كانت صادمة وموجعة، كيف لا يتم معالجة هؤلاء المرضى؟ وكيف يبقون لسنوات هنا بلا دراسة لأحوالهم الاجتماعية والنفسية، المرض لم يلين قلوبهم، بل صارت أشد قسوة، وفجر بداخلهم النقمة على المجتمع .

ترى كيف سأتعامل مع هذا العالم حين استلم التكليف؟!

تبدأ فترة الطبيب المقيم، أو فترة الإلزام في قصر العيني، قابلته هناك في القسم الخاص، كان يعاني من التهاب المرارة ووجب استئصالها، حضرت الجراحة

وكان بقلبها غصة ووجع، كانت قلقة عليه، ودعت الله أن ينهض من مرضه، ويفيق من جراحته معافى، ليستجيب الله لدعائها.

كانت تطمئن عليه من وقت إلى آخر حتى تم شفاؤه، لتفاجأ به يدخل حجرة الأطباء ليسلم عليها قبل مغادرته المستشفى، ودعته، وتمنيت له تمام الشفاء، ونصحته بالراحة وعدم الإجهاد، طلب منها رقم تليفونها، كتبته له على ظهر الروشتة، وحيته وانصرف.

جلست، وقد غمرها إحساس لم تعشه من قبل، ولكن كانت هناك رغبة في أن تسمع أختها "هيلانة" وهي تغني : "كل ده كان ليه لما شفت عينيه؟" لا تدري لماذا؟

في تسلسل تقليدي لأحداث عاطفية اقتربا، ونبتت بداخلهما زنبقة ذات عبق اشتمه كل من حولها، وتمت خطبتها، وتأجيل الزواج حتى الإنتهاء من دراستها، كان معتز ابنا لأستاذ "آمنة" بالكلية، والذي ترك ابنه تحت إشرافها الطبي، متابعا حالته عند الضرورة، وقد خرجت من متابعة حالته بتقدير لتفوقها في مادته، والفوز بمعتز كحبيب وزوج المستقبل.

****

الصفحة الثالثة عشرة

همت

كانت أولى رحلاتها مع الغربة و الفطام من حضن أسرتها ومن عبق الطيبة مصر، كانت تبكي كمن تزف إلى قبرها، لم يكن حزنها سببه الغربة، بل لاقترانها بشريف، فهناك، بعد أن تحلق الطائرة ثم تلامس عجلاتها أرض المطار، سوف تطأ قدماها أرضا غريبة، سوف تطرق باب الغيب، تربى المصريون على الخوف دائما من الغيب ومن أي تجربة جديدة، لايميل أغلب المصريين للمغامرة أو المجازفة.

قال عمر الشريف الممثل العالمي: إن المصريين يتحركون في حياتهم بتأنٍ وبطء، فلقد اعتادوا على الرحرحة، كانت محملة بأمثال شعبية، وحكم أشبعتها رعبا من السفر: "اللي تعرفه أحسن من اللي متعرفهوش"، "من فات داره اتقل مقداره"، "اجري يا ابن آدم جري الوحوش غير رزقك لن تحوش" فالطموح والأحلام غير المحدودة طمع، وآفة شيطانية تذهب الرزق الحالي، والبركة من بين يديك، الرضا بالقليل، والحياة كما عاشها الأهل هو عين الرضا والحكمة، أما التطلع للأفضل أو للغنى فهي صفات غير محمودة، فهي اعتراض على ما قسمه الله، وتمرد

مذموم، والالتصاق بأرض الوطن وبيت الأهل هما عين الفضيلة ،وذروة سنامها.

حلقت الطائرة، لتشاهد أرض مصر تغيب وتتحول إلى خريطة في كتاب للجغرافيا، وتتحول الأهرام إلى بقع صغيرة كما النمل، لتتذكر قول مصطفى محمود حين وصف سفره وتحليق الطائرة، ورأى حقيقة البشر كمجموعات نمل، حينها أدرك مدى الضعف البشري وصغره حين يقارن بالكون حوله، يغيب مع الصعود صوت الضجيج الذي يميز مصر، وتختفي الناس، تتلاشى، وتذوب الأرض ووجع شب في قلبها، وتتساءل قدماها عن هوية التراب الذي ستدوسه قريبا.

لم تنم كما أغلب المسافرين، بل حاولت الاستمتاع بالرحلة، أخرجت كتابا، وبدأت في قراءته، وبدأ "شريف" يحدثها، في محاولة منه أن يزيل الخوف عنها من الطائرة، فلقد سافر مرارا، واعتقد أنها ستعاني من رهاب الجو، طبعا لم يحدث، فطوال عمرها يستهويها الخطر، وتستمتع بالتحدي، وتنتشي حين تجتاز العوائق، وتعيش فوزها وانتصارها، حتى الطعام لا تجد متعة في تذوقه إن خلا من الفلفل الحار أو الشطة، هكذا هي همت، لكن، ولأنها تلمس قوتها القابعة في باطنها، تحاول أن تتقرب إلى الله، فهي

تخشى تجبرها وقسوتها، لا شئ يحجم تمردها إلا تربيتها المتحفظة وخوفها من الله.

تخرجت في كلية الآداب، وكانت علاقتها بالجامعة المحاضرات، ثم السير على الأقدام للوصول الى بيتها في بركة الفيل بالسيدة زينب، لتوفير ثمن المواصلات مع رفيقة الفقر "رندا"، حتى تصل إلى بيتها بالدرب الأحمر، لتواصل هي السير حتى بيتها.

رفضت الاختلاط، أو أن تشعب علاقاتها بالجامعة، فلن تتحمل أية مصروفات سوى طعامها؛ الذي لا يتعدى سندوتشات الجبن من كافيتريا "الاباس" التي تقدم الشطائر مدعمة لطلاب الجامعة، لو توسعت علاقاتها معناه أنها سوف يتم دعوتها، ولابد أن ترد الدعوة، فآثرت الانطواء، بل وحاولت أن تقلص مرات حضورها إلى الكلية إلى يوم أو يومين فقط، فلا ميزانية للملابس، فالطالبات هنا أنيقات جدًا، ويرتدين أزياء ويحملن حقائب لن تتمكن من أن تجاريهن في الموضة أو تصفيف الشعر، لذا وضعت الطرحة على رأسها، لم يكن غطاء الرأس منتشرا في ذلك العصر، أغلقت كل الأبواب التي تحتاج إلى مصروفات إضافية، فالأب لا يتحمل مزيدا من الأعباء، فيكفيه إطعامهم وتعليمهم، أربعة إخوة، كلهم يدرسون بجامعات مختلفة، وهمت كانت أصغرهم وآخر من التحق بالجامعة.

الأخ الأكبر بكلية التجارة، والأخ الثاني في كلية العلوم، والأخت الثالثة بالمعهد العالي للتمريض، وأخيرا "همت" التي التحقت بكلية الآداب قسم اللغة الألمانية.

الأب يعمل ساعيا بإحدى المؤسسات الحكومية، وبعد الظهر يعمل فرانا ليتمكن من إعالة أبنائه، فلقد أمسى هو الأب والأم بعد وفاة زوجته بمرض السرطانأ والذي لم يمهلها طويلا لتغادر باكرًا، تاركة البيت فاقدا الروح والحضن.

حين لامست قدمها مطار اليمن- الذي كان بسيطا جدا وهناك براح على مدى البصر والسماء تتحرك في حرية، فلا مساكن مرتفعه تعوقها، ولا سقف يحد من تسكعها- تخللت صدرها رائحة مختلفة، ولكن نقية، وشمت هواء شعرت معه بشئ من السلام، وتفتحت ابتسامتها.

قام أحد أصدقاء زوجها بإيصالهما إلى بيتهما بصنعاء بشارع القاع، أو"الجاع "كما يلفظه أهل اليمن، كان شارعا ضيقا، كما أزقة القاهرة القديمة، وطوال الطريق كانت فاغرة الفم من الدهشة، فالمباني مختلفة ذات طابع مميز، البيوت ليست مرتفعة، والشوارع لها عبق مختلف، وكأنك سقطت داخل كتاب التاريخ وتتجول بورقاته تعيش حضارة بلقيس، لم تلمح

أتوبيسات النقل العام، بل سيارات خاصة، لم تر الكثير من البشر كما في القاهرة.

"ماهذا الهدوء؟!" حدثت نفسها.

ثوان ورأت أحد الرجال يهبط من سيارته، يرتدي بذلة أنيقة، وما إن ابتعد عن السيارة حتى رأته يلف نصفه الأسفل بشئ كما البشكير الذي يكشف ساقه إن امتدت قليلا، عرفت فيما بعد أنه الإزار، ويسمونه في بعض المناطق " الفوطة"، ومناطق أخرى المعوز، لم تتمالك نفسها فضحكت، لينهرها شريف، فلقد فهم لم ضحكت

- ماهذا؟

- ماذا؟

- الرجال هنا ترتدي الجيبة؟! فماذا ترتدي النساء إذن؟!

صدرت عنها ضحكة، كانت كما العدوى ليتبعها "شريف" بابتسامة يملؤها الحب.

- أين النساء؟ فأنا لم أر أية امرأة حتى الآن.

- إنهن يفرطن.

- يفرطن؟

- نعم، أي يقمن بالتجمع عند إحدى الصديقات ليثرثرن ويرفهن عن أنفسهن، فبعد العصر تكون تلك إحدى عادتهن.

- وماهذا الورم الذي يعانيه أغلب الرجال هنا، هل أسنان كل الرجال ملتهبة؟

- لا، إنه الجات، أو القات.

- ماهو القات؟

- عشب أخضر يخزنه اليمني في فمه، ويشرب عليه الماء، شئ أقرب للماريجوانا الأمريكية.

- أليس حراما؟

- هو حرام، هناك صحوة إلى حد ما بعد انتشار التعليم، يقل تعاطي القات كلما ارتفع الوعي والتعليم، لكنهم يعتقدون أنه مجرد مهدئ، فلاحرمة فيه، لكنه بالفعل دمر اقتصاد اليمن، وأغلب المزارع تحولت من البن إلى زراعة القات.

- خسارة ! لم تحول حالنا إلى السقوط هكذا؟

وصلنا إلى البيت الذي كان فوق أرض مرتفعة كما الهضبة، شكر "شريف" صديقه، وحاول أن يدعوه إلى تناول القهوة أوالغداء، إلا أنه اعتذر شاكرا، كان مهذبا، لم ترتفع عيناه إليها، وكان حواره مع "شريف" فقط.

قال لهما:

- حمدا لله على السلامة.

وأنزل الحقائب مع "شريف" وأدخلها إلى الشقة وغادر.

دخلت بيتي اليمني ذي البوابة الحديدية لتستقبلني حديقة صغيرة تفوح منها رائحة الريحان، ثم باب الشقة الذي يفتح على صالة طويلة مستطيلة تخلو من الموبيليا.

على اليمين غرفة مستطيلة أيضا، تم فرشها بتكيات عربية كما الصالون ولكن خداديات مستطيلة من الأسفنج ومساند مكعبة وسجادة طويلة بسيطة.

وعلى اليسار غرفة النوم، وهي عبارة عن سرير، وخزانة قابلة للطي بقوائم معدنية- كتلك التي يتم اصطحابها في المعسكرات- مغلفة من البلاستيك تغلق بسست، ومنضدة عليها تلفاز.

لفت نظري الشباك الطويل الذي يعلوه زجاج ملون في شكل نصف دائرة يسمونها قمرية، كانت في النهار تعكس ضوء الشمس بألوان مختلفة، فتعطي منظرا جميلا.

كان الشباك يطل على حديقة أيضا، لكنها مشتركه بيننا وبين صاحب البيت، اعتاد المعارون أو المتعاقدون على عدم الإسراف في شراء الموبيليا

وكانوا غالبا ما يشترون الأجهزة المستعملة، فكان في الصالة ثلاجة صغيرة مستعملة، لكنها كانت تكفيني، فنحن اثنان، وهناك بالحمام غسالة أطفال بلاستيكية سهلة التفكيك والتركيب.

راق لي بساطة الحياة، وعدم القلق من رأي الناس أو فضول الضيوف، فنحن نستهلك طاقتنا ونقودنا لنتباهى بالأثاث أمام الغير، لا لكي نستمتع بما نمتلك، نهتم بكلام الناس اكثر من أن نفتش عن سعادتنا، هنا الوضع مختلف.

كان التفاؤل يغمرني بالبلد الجديد، وهذه الأرض الهادئة.

تمكن زوجي من توفير فرصة عمل لي، ولكنه لم يعان في البحث، فلقد كان مؤهلي وتقديري يسهلان لي فرصة العمل كمعلمة خاصة لمادة التاريخ، وأحيانا اللغة الإنجليزية، وطبعا الألمانية لغة التخصص، والتي أتقنها، كنت أعمل كمعلمة بالأجر للغة الإنجليزية لسد عجز المعلمات في أحد المعاهد العلمية، وكان المعهد الذي أعمل به قريبًا من البيت.

زوجي يعمل كمعلم أيضا، طيب، كريم، ملتزم أخلاقيا، ولكن هناك عيبًا ما في علاقتنا، والذي يفضي دائما إلى لون من عدم الراحة مني ومنه، لم أكن أعرف السبب، ولم أكن أفهم ما يعانيه، فلقد خرجت من بيت بلا أم، فلم أتمكن من أن أدرك أبعاد العلاقة، وأن أحكم

عليه، وحيائي منعني من أن أشكو لأحد، حتى تعرفت على "عنود" التي صارت أختا لي وصديقة.

صاحبتني إلى طبية النساء د. سهام،والتي اكتشفت بعدها أن أسرتها على علاقة صداقة وطيدة مع زوجي، والتي بدورها سألتني عدة أسئلة، وصلت نتيجتها إلى أنه يعاني من عجز جنسي، ويحتاج إلى العلاج، وطبعا لم أجرؤ على أن أفاتحه في ذلك، لاعتقادي أنها ستكون إهانة له، وأن المرأة المحترمة لا يجب أن يشغلها الجنس، ونسيت في غمار خجلي واعتقادي أنه عيب على المرأة أن تنشغل به، فهو نقيصة تقلل من احترام المرأة وكذلك عفتها، لأعرف أنه غريزة، ومتعة ليس من السهل الاستغناء عنها، كما أنها الوسيلة الوحيدة لأن أكون أما، وأن تكتمل الأسرة، هكذا أرادها الله.

كثيرًا ما كنت أقوم بعد ممارسة العلاقة معه، وأنا في حالة ضيق وحزن وقرف منه ومن نفسي، وأبتعد عن الصلاة اعتقادا مني أني أرتكبت خطيئة، وأخجل من ملاقاة الله بعدها، فكان يطلب مني القيام بأمور منفرة في محاولات لإثارته، كنت أرفض ذلك، فلقد كنت أجد ما يطلبه شذوذا وحرامًا، بل وعيبًا وإهانة لعفتي، هكذا نشأت، ففي بيت يخلو من الأم، وكل من فيه يلهث لأجل الحياة، تغيب عنا تنشئة الفتاة وتثقيفها بمعلومات مهمة عن الزواج، وما هي مقدمة عليه من

واجبات، فكنت كما حي بن يقظان، أتحسس ما حولي، وأتعلم قراءة أبجدية الحياة مع الزوج، فلقد خجلت أن أسال أختي عن العلاقة بين الزوجين، أعتقد أنها مثلي لا تفقه في مثل هذه الأمور.

هكذا عانيت، وعانى "شريف" من جهلي، والذي غذاه رفضي له كزوج، كانت زميلاتي في المدرسة الثانوية يقتنين مجلة "طبيبك الخاص"، يتلقين منها المعلومات التي تنقصهن عن الجنس والزواج، أحيانا يجتاحني الفضول أن أعرف بعض المعلومات، لأجد مصطلحات تشعرني بأني أمية لا تفقه القراءة، وخجلا من أن أظهر حمقاء وغبية، كنت أدعي أني أفهم ما هو مكتوب وأني لا أحتاج إلى تلك المجلات التافهة.

الصفحة الثالثة عشرة

لن أنسى ليلة الزفاف وما تركته فيَّ من ذكرى تصيبني بالغثيان، حين نهضت من نومي صباحا، على صوت جرس الباب لأخرج من فراشي مسرعة لأخوتي، بعد أن أدخلتهم غرفة الأنتريه، أحسست بماء ساخن يخرج مني مبللا ملابسي والفوتي، انغرست في مكاني ولم أتحرك، وملت على أختي أطلب منها إحضار الشربات لأنني متعبة ولا أستطيع الحركة.

(تكتفت) لأكثر من ساعتين في مكاني حتى انصرف الجميع، ولم أتبعهم حتى الباب، بل اكتفيت بالتحية من مكاني، هرعت إلى الحمام لأجد أنني كنت مبللة بسائل زوجي، لقد تركت نفسي له دون مقاومة ودون رغبة أو لذة، كنت في حالة ذهول، وربما رفض، أو كنت أعيش حالة " الطز"، وهي ألا تعبأ بأي أحد أو أية قيم، لا أنت رافض ولا أنت خاضع لها، لم أكن قادرة على تفسير استسلامي له، ربما كنت غارقة في شخصية إحدى البطلات، أو كنت ألعب دور عاهرة لا تحمل هم الشرف، ولا يمثل بؤرة اهتمام لها، كنت باردة جدا، وصفا وجسدا.

في اليوم التالي حضرت أسرة شريف، رحبت بالجميع وأحضرت المشروبات المثلجة والكعك، وقدمت الشيكولاته لهم، واهتممت بسناء، صديقة العمر.

لاحظت الفتور في ردودها وعينيها التي كانت تتعمد أن تنظر في الفراغ حتى تتجنب عيني، لا أدري لماذا تتعمد "سناء" معاملتي بجفاء وكبر وغلظة، لطالما عانيت من التنافس بيننا، لم أكن أنا التي تخلق هذا التنافس أو الصراع، رغم مابيننا من حب وصداقة إلا أنه لم يمنع ذلك من تخبطات بيننا وصراع.

تعمدت "سناء" أن تبتعد عني، وتنتقل إلى مدرسة ثانوية بعيدة عن مدرستي تجنبا لأن نلتقي في مكان واحد ويخلق وجودنا المقارنة التي يعقدها الناس بيننا والتي تنتهي دوما في صالحي، تصورت بزواجي من "شريف" أننا سنقترب ونصير عائلة، لتتحول علاقتي بـ "شريف" إلى مصدر نكد لـ "سناء" وغيرتها، بعد أن مرت السنون أدركت أنها تحولات طبيعية أفرزتها سنوات المراهقة، لذا تلمست لها الأعذار، وتناسيت تلك الخلافات، فهي مازالت صديقة العمر، ورفيقة أيام الشقاء، والتي ناصفتني الكثير من الأحلام والآمال، ورحلات إلى المكتبات "بحثا عن الذات" عن طريق اقتناص العلم والثقافة وصقل عقولنا.

حاولت أن أشغل نفسي بالتدريس وبعض الدروس الخاصة – لحسن قدري- لأبناء شخصيات مرموقة بصنعاء، وساعدتني في ذلك "عنود"، والتي تنحت عن التدريس الخاص لتتيح لي فرصة العمل، وتفرغت هي لتجارتها، وعملها في مجال تصميم الأزياء، لأتلقى

درسًا جديدًا من "عنود"، اسمه الإيثار والتضحية والحب الحقيقي.

عملت أحيانا في الترجمة، إلى أن جاءت الفرصة للعمل كسكرتيرة لزوجة أحد الوزراء، فلقد أتقنت الإنجليزية باجتهاد شخصي بالإضافة إلى الألمانية، هنا أنقلبت حياتي، أو للصدق اعتدلت.

فأماكن الترفيه كانت شبه نادرة، لذا كان العمل هو المنفذ الوحيد لشغل الوقت واستهلاك أوقات الفراغ.

كنت أتنقل بسيارة تخص الوزير من بيتي وإليه، وبالطبع تم عمل استقصاء عني وعن زوجي، والذي انتهى بتوصية خاصة لي ودخولي للمركز الثقافي بنجاح.

كنت أشعر بأن هناك يدًا ما تساندني، وتدفع بي إلى الأمام، ولم أعرف من صاحبة هذه اليد أو صاحبها، تصورت في البداية أنه "شريف"، لكن كشفت لي الأيام أن غيرته علي أو مني كشطت اسمه كسند أو ظهر.

كان عملي كمترجمة شيقًا ولكنه شاق، منحني الكثير من الحرية والابتعاد أغلب الوقت عن شريف، بدأت أتنفس هواء يخلو من أنفاسه، وعلى الرغم من شعوري بالارتياح في بعدي عنه، إلا أنني كنت أشعر بتأنيب الضمير، لأنني أسبب له الكثير من الحزن، بل

كثيرا ما كان يصيبني إحساس بأنني ابتلاءه أو مصيبة زلزلت حياته، فلقد كان قبل الزواج مني ضاحكا باشا، أما الآن فلقد صار متجهما وعصبيا أغلب الوقت.

لا شك أنني أتحمل أغلب الذنب، وأحمل فوق كاهلي عوامل فشل علاقتنا، وكان هو شديد الغيرة، وغيرته في أغلب الوقت غير مبررة، يلقي باللوم علي في جل المواقف.

حدث يوما أن دعا عدد من زملائه (العزاب) على العشاء، وقد نسقت المائدة وتركتهم يتناولون العشاء ثم دخلت إلى غرفتي، وأغلقت باباها، ثم أمسكت كتابا، وأدرت الراديو على إذاعة أم كلثوم، وجلست أقرأ.

لاحظت حركة في الحديقة الخلفية، فإذا بوجه رجل يراقبني من خلف النافذة، هرعت من غرفتي وناديت على "شريف" وقد تملكني الرعب، خرج مسرعا، سألني :

- ما الأمر؟

أخبرته بما رأيت، ليخرج مسرعا، يبحث عمن يراقبني بالحديقة، فلا يجد أحدا، ولكنه خمن أنه ابن صاحب البيت، علم أن مصرية تقطن ببيتهم، فدفعه الفضول أن يرى تلك المصرية، بدلا من أن يتعصب "شريف" على ذلك المخترق حرمة غرفة نومي، صب جام غضبه علي، فكيف يراني الرجل بقميص نومي؟!

أجبت:

- أنا في غرفة نومي، فماذا كان يجب علي أن أرتدي؟ هل كان من المفروض أن أضع النقاب في غرفة نومي؟

ونظرا لأنه علم أن هجومه غير مبرر، فقد ثار وهاج لعصياني نصائحه التي لم أتلقاها يوما، ليتحرك زملاؤه من الغرفة ويحاولوا أن يهدئوه ويقنعوه أنه بالفعل الذنب ليس ذنبي، إنه ذنب الإعلام الذي قدم المرأة المصرية في صورة امرأة لعوب ترقص أغلب الوقت فلا شاغل لها إلا إغواء الرجال، ففي هذه الفترة كانت أفلام "نادية الجندي" و"نبيلة عبيد" وبداية تألق "ليلى علوي"، ولأن اليمنيين كان انفتاحهم على العالم من حولهم مازال قريبا، فقد كان اليمني حينما يرى امرأة مصرية، حتى لو كانت ترتدي النقاب، يعتقد أنه إن كشف وجهها فسيرى "ليلى علوي"، وإن أحب مصرية فسيرى معها الجنة، سترقص له كما "نادية الجندي" وتثير بداخله ذكورة كل الرجال.

وأما "شريف" فصار يتصيد لي الأخطاء لينفس عن غضبه مني ومن ضعفه، وأنا غارقة في خلق الأحلام واقتناص الفرص لتحقيقها، وكلما هاجمني الإحساس بفقدان الثقة في الذات لما كان يقوم به "شريف" من توبيخي أغلب الوقت، وإلقاء اللوم علي عند أي مشكلة أو موقف، أستحضر حياتي السابقة في بيتي، فيتضخم

الإصرار بداخلي، والاستماتة في النجاح واستغلال الفرص التي ينعم بها علي القدر.

انصرفت عن مشاكلي مع "شريف" بالاستغراق في عملي ونجاحي، كنت أقضي معظم وقتي في عملي، وحين عودتي إلى البيت كنت أقضي ساعات طويلة في القراءة والمذاكرة حتى أتمكن من تحسين مستواي في الترجمة باللغتين، ولأبتعد عن التفكير في علاقتي به، كما أنني لابد أن أرتقي ثقافيا حتى أحافظ على مكانتي وتتوسع مداركي.

اشتريت الكثير من الكتب والفيديوهات التي تتناول البلاد التي تتحدث الالمانية، صرت أعمل طوال اليوم، وعلى قوة العمل أغلب الوقت، وأما يوم الإجازة فأقضيه في النوم، أو التنزه مع صديقتي "عنود".

تململ "شريف"، ولكنه كان يكتم غيظه، ربما لأنه أدرك أنني صرت أناصفه في مسؤوليات البيت.

"الصفحة الرابعة عشرة"

كانت إحدى رحلات "مظهر" الى اليمن، اصطحبني معه في محاولة لإثبات تطهره من الخطيئة غير المتعمدة، كان متوجها في بعثة تابعة لمنظمة التحرير إلى اليمن، حيث توطدت العلاقات بين اليمن والمنظمة، وبزغ الأمل في الأفق بعد اتفاقية التعاون العربي بين الدول الثلاث: مصر والعراق واليمن والمملكة الهاشمية.

التقيتها هناك، "همت" المصرية، والتي لم ألتق بها بمصر بل باليمن، راقت لي شخصيتها ومجهودها وثقافتها، فلقد تمت دعوة زوجي على العشاء بالسفارة اليمنية، وكانت هي حاضرة للترجمة، كنت أشعر بالغربة رغم الترحيب الكريم من أهل البلد، ولقد نجحت "همت" في تقديمي للحضور بشكل أثار اعجابي وامتناني.

لقد قدمت نبذة عني كفنانة تشكيلية وعازفة بيانو ومطربة ومصممة ديكور، لا أدري كيف نجحت في الحصول على كل تلك المعلومات، لكنها بهرت الحاضرين، لأنها كانت تهتم بملف المرأة العربية، وأرادت أن تلقي الضوء على إحدى النساء العربيات الموهوبات، وكنت هذه المرأة، كانت أولى درجات

سلم النجاح معرفتي بهمت التي قامت بعمل دعاية لي ولشركتنا بلا مقابل.

من هنا توطدت علاقتنا، والتي اتسعت لتشمل "عنود" التي تربطني بها سوريتي، وميلنا نحن الثلاث إلى الفن.

***

الصفحة الخامسة عشرة

مظهر

منحتني البيت والجمال والرقي، ومنحتها هويتي الافتراضية، فلسطيني بلا أرض، يحلق دوما بين البلدان، يرتفع في سمائها، وتلمس أقدامه كل المطارات إلا وطنه.

كنت أسافر إلى فلسطين كسائح مراقب، يتجول أحيانا في حاراتها وشوارعها، يتنفس هواءها الغريب على رئتيه، يفتش عن مكان يتخيل أنه كان البقعة التي شهدت بيت أجداده، يحاول أن يخلق لنفسه ذكريات، ليكتشف أنه يعيش صورا وأماكن أبدا لم تكن له ،ولم يطأ يوما ترابها.

سافرت معي "هيلانة" إلى بلد عربي آخر، شعَرت على أرضه بالحب والحميمية مع صديقات جدد، وقد شعرتُ بفرحتها وسعادتها، فأينما تولي "هيلانة" وجهها ثمة وطني، وقد أكون بإضفاء السعادة على حياتها قد كفرت عن خياناتي التي بلا معنى إلا أن هويتي ورقية افتراضية كما عالم السينما، لا وجود له على أرض الواقع.

لن أنسى ذلك اليوم، حين اتجهت بعد أن أنهيت عملي في المنظمة إلى مطعم سمعت أنه يقدم أطباقا سورية

ومغربية شهية لألتقي هناك بـ"هيلانة"، أستمتع بصوتها الذي كان محفزًا لإثارة شهيتي للطعام، وكلمات أغنيتها فجرت الحنين بداخلي للمرأة، جذبني صوت "هيلانة" وبساطة ملامحها وبساطتها، كانت "هيلانة" ذات دم معتق بالعربية، تحمل جينات متعددة الجذور وكأنها خليط من نساء العرب.

ربما تكون بساطة جمالها شجعتني على أن أختارها شريكة حياتي، فلن تتمرد علي يوما كما فعلت "ريحانة"، التي ورثت عن أمها الجمال الإفرنجي وجرأتها وغرورها، أما "هيلانة" بساقها المعيبة وجمالها الهادئ فلا تمتلك مقومات التمرد، هذا ما رأيته في البداية إلى أن اكتشفت جمالا من نوع آخر داخل "هيلانة"، تمكن من أن يأسرني ويحولني إلى طفل ملتصق بأمه.

لا تفسير واحد لخيانة "مظهر" لـ"هيلانة"، ولكن قد يكون الغوص في العمق للتفتيش عن الأرض والوطن جعلت من "مظهر" جوالا، فلقد كتب عليه أن يحمل هوية منحوتة بجواز سفرهـ ولكن حياته وأجداده نشأوا فوق هذه الأرض، هنا بمصر، يتحدث "مظهر" عن فلسطين، ويتألم معها، ولكنه لم يختبر الحياة فوق أرضها، وأول مرة لمست قدمه أرضها كان في مهمة تابعة للمنظمة لاستكمال البنية الأساسية بالضفة الشرقية.

حينما وطئت قدميه أرضها تنفس هواء مغايرا، وعاش أياما بين شعب أتقن لغتين إحداهما لغة عدو.

كان حنينا حضاريا، ثقافيا أكثر منه حنينا لوطن، ولكنه اكتفى بأن يحتفظ بما أحسه، وألا يتحدث عنه مع أحد.

انتهت المهمة، وعاد إلى وطنه مصر، هناك حيث تربى وتعلم، سأل نفسه عن دفينة الإنسان، كيف تحارب محتلا ومستعمرا لأرضك، ثم تكتسب ثقافته، وتتحدث بلغته، حدث ذلك بالجزائر أرض المليون شهيد، وبعد أن رحل المحتل صارت الفرنسية لغة رسمية، وتزوجت جميلة بو حيرد من محام فرنسي أحد أبناء المحتل، وكذلك الأمر في تونس، ويتكرر الحال بأرض مقدسية، يبدو أنه بالفعل لا عداوة تدوم ولا حب، والعلاقات بين البشر ذات ألف وجه، فالسياسة لعبة المصالح.

عرفت أنه ليس من السهل أن أرحل عن "هيلانة"، لقد تمكنت من قلبي وروحي، هي حبي الأوحد، نعم عشت قصصًا كثيرة، ودخلت في علاقات كاملة مع سيدات وفتيات من جنسيات مختلفة، ولكن بعد كل علاقة أهرول لأغتسل لعلني أتطهر من ذلك الرجس، وأعود لألقي بنفسي بين ذراعي "هيلانة"، أتعمد في نهر حضنها لأعود طاهرا.

كلما اجتررت ماضيَّ يصيبني الغثيان والقئ المستمر وأصاب بالقرف من رائحة عطر البغايا.

كنت ذات يوم في لبنان في رحلة عمل، في المساء خرجنا للسهر مع بعض الأصدقاء، فلي بكل أرض عربية أصحاب، تجرعنا الخمر، ومعها حبوب مخدرة لينتهي بي الأمر في غرفتي بالفندق ومعي امرأتان، مارسنا الجنس الجماعي، لأنهض وأفرغ ما في جوفي، نمت ليلتها في البانيو هربا من مواجهة إحداهما، لقد عايشت معنى القرف، وقررت بعدها الزواج، وأن أنتقي عذراء لا خبرة لها بالجنس أو الحب، أن تكون بكرا كما أرض لم يكتشفها الرحالة بعد، لألتقي بتلك القديسة، التي أقبل عتبتها بعد كل خطيئة.

جلست ليلة اكتشافها لخيانتي الأولى بعد زواجي منها تحت قدميها وكأنني في حضرة الرب، اعترفت لها بماضي كله، لم أغفل خطيئة أو نظرة ارتكبتها إلا واعترفت بها إليها، شعرت بعدها وكأني اغتسلت في نهر الأردن، وعدت بطهارة يوحنا المعمدان لأستيقظ صباحا بين ذراعيها، استنشقت رائحتها بعمق بحثا عن الخلاص وبداية سوية.

تمكنت "هيلانة" من أن تشعرني بالأمان، والوطن الذي لطالما أردت أن أنتمي إليه، وتفاءلت بأنني سأغرس جذوري في أرضها، هي ذات الأعراق العربية المتعدد ة.

تغاضيت عن نقصها الجسدي، فلقد كانت كاملة كأم وكزوجة وحبيبة، تتمتع بحس فني وذائقة متطرفة الجمال، وانتظرت أن تهبني الامتداد، لنرسب معا في ذلك.

تماديت في خياناتي، وفشلت هي في منحي ابنا يحمل اسمي وجيناتي التي كادت أن تفنى، تروح إلى العدم، أن تهبني الوطن الذي لطالما رجوت القدر أن يمنحني إياه.

أردت أن أقيمها على ارض مصر بأبناء من صلبي ورحم "هيلانة"، إلا أن القدر أبى إلا أن أظل مشردا، أقيم في مخيمات النساء، أتسول البيت، اعتقلتني "هيلانة"، فلا قدرة لي على طلاقها، ولا أستطاعة أن أتنازل عن حلم الأسرة، الامتداد، الخلود.

كيف أطعنها و أغادرها إلى الأبد وأبحث عن رحم آخر يحمل أبنائي؟!

.

"الصفحة السادسة عشرة"

ملامح وجهي كانت توحي إلى "شريف" بقسوتي، إلا أنه كان هناك عراكًا ينشب بين رغبتي وضميري، ليزداد الألم والحزن..

كثيرا ما تجبر الظروف الإنسان على أن يتحول إلى حيوان قاسٍ، فهي غريزة حب البقاء، كنت أقسو على نفسي إلى أن نضجت وتراكمت خبراتي وقراءاتي، حينها تلطفت بنفسي ورأفت بها.

كنت أعود من عملي بالسفارة وقد استهلكت كل طاقتي، وصرت أرى زوجي عند النوم، فلا وقت متوفر للبيت، ولم يكن هناك شيئ يشدني لأعود إليه، ويبدو أنه وعى ذلك فزادت حدة عصبيته وغيرته، والتي صارت حديث أغلب أصحابنا ويئس الجميع من التدخل، فلا شكوى محددة له مني، وكنت أستقبل جلسات الصلح بالصمت بلا تعليق، فلا حيائي ولا كبريائي يسمحان لي بأن أرد على اتهامات باطلة، ولكن لم أنف تقصيري في حق البيت، فطبيعة عملي الجديد تطلب مني ذلك، عملي الذي منحني الامتيازات لنعيش في مكان أرقى، ونشتري سيارة، وأمنحه الكثير من العلاقات التي استفاد منها في الترقي حتى وصل إلى أن شغل منصب مدير مدرسة في الوقت الذي كان اليمن يمنع أن يشغل بعض المناصب إلا المواطن

اليمني، لذا لم يجرؤ أن يطلب مني الاستقالة أو أن يشتكي من عملي، ولم يكن هناك ما يشدني لاتخاذ قرار الانفصال، فلا عيوب في "شريف" تؤرق حياتي أو تصرفات تدفعني لطلب الطلاق، كما أنني لم أفتقد إحساس الحب حتى هذه اللحظة، رضيت بحياتي كما هي، إلى أن حدث مالم أتوقعه.

أثار موضوع الإنجاب، وضرورة أن ننجب طفلا، أحسست حينها أنني في ورطة إن لم أتخذ قرارا حاسما سينتهي بي الأمر إلى زوجة دائمة لشريف وأم لأبنائه.

- ألم يحن الوقت لننجب طفلا يكسر هذا البرود؟!

نحن نتشاجر كثيرا، ولن يحد هذا الشجار إلا طفل يشغلنا، ويغير هذا الجو القاتم بيننا.

- أنا منشغلة، وأنت أيضا، في بناء مستقبلنا، وعملي يحتاج كل وقتي فلا أستطيع أن أفكر في الإنجاب الآن وإلا سأخسر مركزي، ألست معي؟

- أصر على حقي في أن أكون أبا، فأنا الآن في الثلاثين، متى سأنجب إن لم يكن الآن؟ هل سأنتظر لأنجب طفلا يناديني بجدي؟

أطلقت ضحكة لم تسعده بقدر ما زادت استياءه منها، فهي لا تدرك مدى حزنه ورعبه ألا تنجب الطفل الذي سيكبلها به إلى الأبد.

كانت ضحكاتها تملؤه سعادة، إلا أن طموحها وأنانيتها أضفت تفسيرًا لضحكاتها يستفزه، وهو أنها صارت امرأة مغرورة، ذات استقلالية تدفعها للتمرد والتكبر.

- شريف، ألم تقل لي يوما إنك لا تكترث لأمر الأطفال هذا؟

- كانت لحظة حمق، الأطفال هم الذين نشيد بهم البيت، نعمل ونشقى لأجلهم، فلامعنى لكسب المال مادمنا لن نجد من يرثه عنا.

بالفعل لم يكن الإنجاب يشغل تفكير "شريف"، ولكنه الخوف من أن تضيع "همت" من بين يديه، فلاحب يجمعها به، وليس أمامه إلا أن يربطها به بالأطفال.

- لا تغضب، لنتوجه إلى الطبيب معا غدا.

- ولماذا نتوجه للطبيب معا؟!

لتذهبي إلى دكتورة "سهام" فهي طبيبة وصديقة وزوجة دكتور صديق لي ومعروفة بصنعاء، سيدة متدينة وراقية اذهبي إليها وسوف أقوم بالحجز لك عندها.

- أعتقد عندما تكون المشكلة خاصة بالحمل فيجب أن نذهب معا.

- لتذهبي أنت، المرأة هي التي تحمل وليس الرجل، أنا سليم، وعموما بعد أن تطمئني سيأتي دوري.

- تمام كما تحب.

انتهى الحوار، وكان بداخل "همت" شعور بالراحة لاعتقادها أنه لن يكون هناك حمل، تصورت أن ضعفه الجنسي معناه عدم قدرته على الإنجاب، وهذا شئ تمتن للقدر بسببه، فهي قد اكتشفت أنها لا تريد طفلا يربطها به، لاتدري لماذا، ولكن هناك هاتفًا بداخلها ينبئها بأن علاقتها به مؤقتة، وأنها تنتظر قرارًا من القدر بالانفصال.

***

الصفحة السابعة عشرة

شريف

نشأ في أسرة بسيطة، الأب يحصل على معاش من عمله السابق كطباخ في أحد المطاعم، كما أنه يعمل (حاتي) مع صديق له على عربة بوسط البلد، حالتهم المادية مستورة، حيث يكفي الدخل الشهري ،ولايحتاج الأب إلى الاقتراض أو الاستدانة، فلا زحمة أبناء ليستدين، ولا طموح يفوق قدراته ليشتكي الحاجة، فلم يكن له إلا "شريف" وأخته "سناء".

الأم ربة منزل أتى بها الأب من الريف، كانت يتيمة لا وحيدة إخوة لها، لا تقرأ ولا تكتب، اعتادت الذهاب إلى المسجد كل جمعة للصلاة وحضور درس التفسير وحفظ القرآن شفهيا.

أما أخته الصغرى "سناء"، فهي طالبة في كلية التجارة، كانت رفيقة "همت" حتى الإعدادية، لتفرقهما الثانوية العامة بعد ذلك، حيث فضلت "سناء" أن تلتحق بمدرسة بعيدة عن مدرسة همت، لتلتحق بعدها بكلية التجارة بالزمالك، بينما التحقت "همت" بكلية الآداب جامعة القاهرة.

تعرض "شريف" لتقلبات سن المراهقة، فبعد حصوله على الثانوية العامة، طرأ على شخصيته الكثير من

التغيرات، كان لفترة متأثرا بفكر الهيبز ، حيث شرب السجائر والسهر واحتساء الخمر ومرافقة النساء، صفف شعره مطلقا السوالف كما الموضة في ذلك الوقت فكان أسود طويلا، لينتقل فجأة إلى التشدد الديني، وقد أثر ذلك على علاقته بأسرته وخاصة أخته وأمه، اللتين اتهمهما بالعصيان، وحاول فرض الحجاب على أخته ومنعها من الاختلاط بصديقاتها، أو الخروج دون صحبته، فسبب الكثير من المشاكل، وارتبط وجوده داخل البيت بالنكد، فلا مشاهدة للتلفاز ولا استماع للأغاني مادام هو موجودًا.

فجأة يعلن حصوله على عقد عمل كمعلم باليمن، وأنه سيسعى للالتحاق بالجامعة في صنعاء، فله معارف مصريون هناك سيسهلون له ذلك.

تستقبل الام الخبر في هدوء وتردد دعاء: "ربنا يوسع رزقك ويهديك يابني" بشكل آلي لم يحسه شريف.

لم يشعر يوما بحبها ولا أمومتها، ولم يجرب حضنها، حتى وهومريض، كانت تتعامل معه بقسوة، حتى أنه كان يراوده هاجس أنه ليس ابنها، لولا أنه أكثر شبها بها من أخته "سناء"، كانت تتحرك في خدمتهم كما الآلة، تِؤدي كل واجباتها على أكمل وجه، ولكن بلا مشاعر، حتى حين علمت بنيته في السفر، وأنه سيغادر قريبا بعيدا إلى أرض غريبة بمفرده، لم يلحظ على وجهها أية علامات تنم عن القلق أو الخوف عليه

كما تفعل أغلب الأمهات، تلقت الخبر ببرود وبتعبيرات الوجه الذي لايحمل فرحة ولا حزنا، مما زاد من جحود "شريف" في تعامله معها.

أما الأب فكان بسيطا، لا يتحدث كثيرا ، يعود من عمله في المطعم، لتحضر له أمه الحمام، تلحق به لتحممه كما الأطفال، ثم تعد له العشاء، مع كوب عصير ليمون، وحبة ريفو للصداع، ثم كوب شاي، بعدها تتبعه إلى غرفة النوم، تاركة "شريف" وأخته "سناء" أمام التلفاز.

لم يكن سهلا أن يشاهدا مسرحية كوميدية ويضحكا وإلا وجدا تعنيفا من الأب وتهديدًا لهما بغلق التلفاز متحدثا إليهم في تهكم:

- بتضحكوا على إيه؟ هو في إيه يضحك؟ أيامكم سودة، وطوا صوتكم، أنا تعبان طول اليوم رزع حلل ومواعين وأوامر.

تزداد عصبيته وحرصه المادي بعد أن أغلق المطعم أبوابه، وغادر صاحب المطعم إلى بلده السودان، حيث قام بعرض المطعم للبيع، ومنح العاملين معه تعويضا بسيطا، ولولا أن صاحب المطعم كان قد أمن عليه هو وعدد قليل من العاملين، لما كان عم حسان علم من أين يطعم أبناءه.

"لم يكن "شريف" طفلا مطيعا أو لينا، فلم يكن يمر أمر من أبيه أو أمه إلا وطلب تبريره أو عارضه، تميز بشخصيته المستقله المتمردة.

- يا بابا إنها مسرحية المفروض أنها كوميدية، يعني تضحك، مش معقول نعيط، لما يتعرض فيلم لأمينه رزق نعيط كلنا.

- أنت يا بني واد بارد وما عندكش دم.

لينتهي الشجار الدائم إلى قرار وهو الصمت في حضور الوالد، لذا اعتادا السكوت طوال وجود أبيهما في البيت، و مشاهدة التلفاز بلا صوت، لذا فضلا مشاهدة الأفلام الأجنبية لما يتبعها من ترجمة مكتوبة.

كان معنى وجود الأب يوم الجمعة، أن يجلسوا في الظلام، فلابد من إضاءة لمبة كهربائية واحدة توفيرا للكهرباء، لا صوت عاليا من التلفاز، لا لعب ولا جري..

يقول "شريف": "سناء" أشك أن أبي غير طبيعي.

- عيب ياشريف، بابا طيب زيادة والشغل مرهق لمن هو في مثل سنه.

- إنه لم يبتسم طوال عمره، ولا يعرف معنى النكتة، ولا يسمع أغنية، أنا لا أعرف هل هو يحب أمي أم لا،هل يحبنا نحن أبناءه أم لا، علاقته بأمي غريبة وعلاقته بنا أغرب، ناس مريضة أقسم بالله!

تحاول "سناء" أن تمسك بضحكتها، حتى لا تفلت منها، وتسمع إهانة من أبيها، فتضع كفها على فمها كاتمة لها.

- حتى أمي تتلقى خبر الموت وكأنني أسألها عن الغداء، وكذلك الفرح، لا تفرح ولا تحزن، تفتكري أنهما من الفضاء؟

تلكزه "سناء" بإصبعها: اسكت يا "شريف"، سأضحك وتكون النتيجة الإهانة والتوبيخ من أبيك.

- لم تسألنا يوما عن درجات امتحاناتنا، ولم تعنف أيا منا على الغياب عن المدرسة، ولم تهتم يوما إن كنا قد ذاكرنا أم لم نذاكر.

يمر "شريف" بتخبطات سن المراهقة، وينتقل إلى النقيض، التعصب الديني، وتحريم كل ماهو جديد، فهو بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

كانت هناك مشاعر متضاربه داخل كل فرد من أسرة شريف، ما بين الشعور بالراحة وتنفس الحرية بلا نكد أو وصاية داخل أخته الصغرى، والإحساس نفسه داخل الأم مخلوطا بالقلق والألم أن أوصلها ابنها أن تفرح لفراقه، شعرت بتأنيب الضمير من إحساسها هذا، وما قد يورثه من عدم توفيق بسبب عدم رضاها عنه، حيث كان هناك تصادم دائم بينه وبينها، يسخر من جفائها، وحتى من طريقة صلاتها، وتوسلها إلى

الله بكلمات تنم عن جهل، لتنهي صلاتها في حالة غضب منه بالدعاء عليه، لأنه لا يعرف معنى الأدب، ولا كيف يتعامل مع أمه التي ربته، وكذلك كانت تفعل مع أي إنسان يسئ معاملتها أويظلمها، فلا حيلة لها إلا التوسل إلى الله والدعاء على من ظلمها، وجملة لا تفارق لسانها: "حسبي الله ونعم الوكيل"، وكانت جملة تصيب دائما لم تخيب معها أبدا، حتى مع شريف.

- هل تعبتِ أنت في تربيتنا؟ لقد صرتما أما وابا بالصدفة؟ الحيوانات تحبل وتلد وترضع، الفرق بين الإنسان والحيوان، أن الإنسان يحضن أولاده، يقبلهم، أنت يا أمي عمرك مافكرتِ تقبليني ولا حتى سناء.

تطبخين، تغسلين، لكن أبدا لم أشعر بحضنك، ولا أختي، حتى عندما تشترين لنا الملابس، دائما ما تثيرين ضحك أصحابنا والجيران على ذوقك الفلاحي، ألوان عجيبة وأقمشة أعجب، الحمد لله أني ماشي وسأبعد عنكم، ربنا يلطف بالمسكينة "سناء".

- كفاية ياشريف، لايجب أن تتكلم مع أمك بهذا الشكل، كيف تدعي التدين وأنت تعامل أمك كمن تربى على الرصيف، كيف تسمح لنفسك بأن تتجاوز في الحديث إليها هكذا؟!

تدفعه إلى حجرته، وتغلق الباب خلفه، وهناك بالصالة صوت الأم وهي تلعن وتدعو عليه بالموت، وعدم الراحة وترفق لعناتها بقلبي وربي غاضبين عليك.

"حسبي الله ونعم الوكيل فيك ياشريف يا بن بطني"

- ماهذا "شريف"؟! ها هي تدعو عليك، ألا تخشى غضبها، يجب أن تخرج لتعتذر لها حتى تدعو لك، أنا أخشى عليك من غضبها وأن تخسر رضاها.

جلس "شريف" على طرف السرير ممسكا بشباكه، تلهث أنفاسه، ويعض على أنامله، ثم يلتفت ليواجه "سناء" وقد مد ساقيه في اعتدال.

- سناء.. هل تعلمين أن أبي كان مريضا؟

- ماذا؟! كان مريضا؟

- نعم، كان مريضا.

- هو يمرض كثيرا بالحمى لخروجه باكرا وعودته متأخرا في برد الشتاء.

- لا ، إنه مرض آخر، أبوك كان مريضا نفسيا.

- أبي.. أو ليس أباك؟

- أبي مريض نفسيا.

- ألانه قليل الكلام ومنعزل عن الناس تتهمه بالمرض النفسي؟!

- لا.. لقد سمعت من إحدى زوجات أعمامك أنه قد دخل أحد المصحات وهو شاب، ثم أخرجوه لأن حالتهم المادية لم تسمح لهم بتحمل تكاليف علاجه،

واعتقدوا أن الزواج سيرد إليه عقله، فزوجوه أمي لأنها يتيمة لا أهل لها، كنت أستعيد حلقات الذكر التي كانت تقام أسفل بيتنا والزار.. هل تذكرين؟

- أذكر بسيط.

- لأنك كنت طفلة صغيرة بعد، نعم كانوا يقيمون حلقات الذكر والزار لصرف الجن عنه، تذكرت كل ذلك، وسألت عمي فلم يجبني، لتجيب زوجته بأن أبي كان يعاني من الفصام، لقد قرأت عن هذا المرض.

- لكن أبي لا يتصرف بغرابة يا "شريف"، هو إنسان عادي جدا، لا يتحدث إلى نفسه، ولا يتخيل أشياء، هو فقط قليل الكلام، حتى أنني أراه مثاليا، يقوم بالواجبات الاجتماعية، لا يتخلف عن جنازة ولا زيارة مريض، يخرج الزكاة والصدقات بانتظام، لديه بعض الوساوس العادية، النظافة الشديدة والحرص المادي وهذه طباع موجودة لدى الكثير من الناس ولم نتهمهم بالمرض النفسي..

يلقي "شريف" برأسه فوق السرير ويخفي وجهه ويبكي:

- أنا تعبت سناء، عصبيتي تزداد ولا أتحكم في لساني، كلما أردت أن أقول كلاما طيبا لأمي ينطق لساني بالسوء، أعرف أنها غير راضية عني، لكن عيشتهم لاتروق لي، عدم رغبتهم في الارتقاء

وتمسكهم بعاداتهم الريفية التي لم تعد تليق بما يعيشه أهل المدينة يعصبني، تمسحها بالأضرحة وجهلها يغضبني.

لماذا تتمسك أمك بلباس الفلاحات الطرحة والجلابية السوداء؟

لماذا لا ترتدي الملابس العصرية والحجاب العصري؟

حتى أبي متمسك بالجلابية الفلاحي والطاقية.

- لا تنقم عليهم شريف، إنهم بسطاء ، طيبون لا يلتفتون إلى المظاهر، وكم من أثرياء ما زالوا يتمسكون بعادات بلادهم، ولم ينتقدهم أحد، هل رأيت فريد شوقي وهو يرتدي الجلابية والطاقية في بيته؟!

وهويعيش في فيلا، وزوجته وبناته لم ينتقدنه ولم يرفضن زيه.

- سأسافر وأترك كل هذا وأبتعد، مادمت لا أستطيع تغييرهم.. سأبتعد حتى يرتاح الجميع مني، حتى أنت أعلم أنني سأحاسب عليك، لأنك عاصية وترفضين أرتداء الحجاب، رغم أنه أمر إلهي.

- لا تغضب، سأرتدي الحجاب حتى أرضيك.

- لا، بل لترضي الله، إنها أوامره وليست أوامري.

- اخرج اعتذر لأمك وأطلب رضاها يا "شريف".

- بعدين، سأنام قليلا وأصحو أصالحها.

يحصل "شريف" على عقد عمل كمشرف لمعمل بأحد المعاهد العلمية بمساعدة أحد معارفه، ويستعد للسفر إلى اليمن، ويكمل تعليمه هناك، يلتحق بكلية الآداب، ثم يرتقي في عمله من مجرد مشرف معمل إلى معلم لمادة التاريخ .

يعود في إجازته الصيفية ليجد ترحابا من والديه، وحضنا لم يختبره من أمه من قبل، ولقاء حميميا من أبيه الذي لم يكف عن البكاء، وذرف الدموع، كان بكاؤه كما الأطفال، يتلفت حوله في خوف، يتحسس ذراعه ورقبته، ثم يتوجه بالسؤال إلى "شريف":

- هو أنا خسيت أوي يا بني؟! يظهر أني باموت.

- لا تقل ذلك ياحاج، أنت صحتك أفضل من صحة شاب في العشرين، حتى من يراك يظن أنك أخي الأكبر، حتى أنا أفكر في تزويجك من عروس جديدة فأمي صارت عجوزا.

يضحك "شريف" محاولا إخفاء حزنه لما وصل إليه أبوه، وعجزه عن مداواته، ليقرر أن يصحبه إلى العيادة النفسية، لعله يصل إلى علاج له أو فهم لحالته.

يرافق "شريف" عم "حسان" إلى عيادة نفسية لطبيب مشهور، ليتأكد أن أباه فعلا مريض، ولكن حالته ليست خطرة، فهو في حاجة لمعاملة خاصة، بطمئنته وعدم إثارة قلقه، والابتعاد عن الحديث عن الأسعار أو

الفقر، لابد من احتوائه والحفاظ على الحبوب التي كتبها له الطبيب، والمتابعة مع الطبيب مرة كل شهر..

تأتي "همت" لتصحب "سناء" إلى حفل عيد ميلاد إحدى صديقاتهما أيام الإعدادية، يصر "شريف" على أن يصحبهما حتى يطمئن ألا يضايقهما أي شاب من الشارع.

طوال الطريق كان يتأمل "همت" من أن لآخر، وهناك طفل يتراقص داخل قلب،ه ويكتمل الحلم داخله أنها ستكون زوجته، ولن تكون لغيره، ولكن كيف يفتح معها الموضوع؟ وكيف يضمن موافقتها؟

قرر أن يتلطف في الحوار مع "سناء"، ويستدرجها كي تحدثه عن "همت" وظروفها الأسرية، وطلب منها أن تكون رسولاً بينهما.

قصت عليه حكاية "همت"، وظروفها القاسية، وتفوقها أيضا، ليبزغ بداخله بصيص أمل أنها قد توافق لظروفها المادية القاسية، فعلى الرغم من أن "همت" كانت صديقة "سناء" منذ الطفولة، إلا أن "شريف" لم يكن يلتفت إليها حتى سافر وعاد ليكتشف أنها صارت أنثى جميلة.

طلب منها أن تسألها إن وافقت أن ترتدي الحجاب بعد الزواج، ليجد قبولا وترحيبا منها.

تتم الخطبة، ويعود "شريف" إلى اليمن حيث عمله واستكمال دراسته الجامعية بجامعة صنعاء، ووعد بأن يعود بعد عامين لاستكمال مراسم الزواج، بعد أن تنتهي "همت" من دراستها.

***

الصفحة الثامنة عشرة

شريف

ربما شرب الخمر، ورافق بعض النساء، ولكنها كانت علاقات لا تتعدى السهر والرفقة إلى دور السينيما، ربما تصل حد تبادل القبلات ليس أكثر.

كان هناك دائما رفض حاضر بقوة، يصفعه بقسوة على صدره، فيشعر بألم في صدره، يعقبه ألم في أمعائه، يرفض كل ما ابتلعه فمه ليطرده خارجا في نوبات قئ تثير التقزز، فتتسلل الفتيات هربا منه، قد تكون حماية القدر له بألا يتجاوز وألا يتعدى أسوار العفة، لذا لا تجارب له مع النساء، أول امرأة لمسها كانت "همت" حبيبته وقاتلته.

فشل في أول ليلة للزواج أن يجتاز ستار العفة، وأن يثبت ذكورته، نام إلى جوارها، وأدار لها ظهره، وقد غطاه العرق والخجل، وهي لم تبد أي تعبير، ولم تبد مقاومة، حتى أنه تشكك في جرأتها، لأنها أسلمت جسدها له بسهولة دون مقاومة أو حتى رغبة فيه، كانت كآلة، لم تبد أية أحاسيس.

سمع من بعض الأصحاب أن الفتيات دائما ما يتمنعن ويقاومن في هذه الليلة، ولكن "همت" استسلمت بلا

أي تمنع، ولكنها كانت كما لوح ثلج، أسلمت جسدها، وكانت غائبة في عالم آخر.

تضايق، وبدأ سجل يفتح له بذاكرته، فتتوالى المنغصات والمواقف، التي تؤكد له أن زواجها منه لم يكن إلا محاولة للهروب من بيئتها الفقيرة، ومن الفاقة التي كانت تحرمها من تحقيق أحلامها.

كانت دائما متطلبة، طلباتها كانت لكل ما حرمت منه ولم تتذوقه في بيتها.

كانت نظرته إليها، حينما تتذوق طعاما لأول مرة، كما أب، يشعر بالسعادة لسعادتها، ويشعر بالعطف عليها والشفقة المطعمة بالحب.

لم يتوان في تلبية طلباتها، كان كما عفريت خرج لها من الفانوس، تدعكه، بل تلمسه فقط، فيلبي.

ولكنها أبدا ما طلبت قبلة منه أو لمسة أو أسرعت إلى الفراش لكي تلقي بنفسها في أحضانه، بل كانت دائمة الهروب من العلاقة، تبعد بشفتيها حتى لا تلامس شفتيه، لم ترفض إقباله عليها، ولم تتلهف لذلك اللقاء، كما وأنها في مهمة تلبيها بلا اقتناع وبلا مشاعر.

أصابته في كبريائه، فضاق بنفسه، شعر بالألم، وبنقيصة تفاقمت بداخله، وظهرت بشكل جلي أمامها.

وفي محاولات عديدة كانت تنتهي بالفشل، حاول أن يلقي باللوم عليها، ويلقي بتلك النقيصة والعنة على

أنوثتها الباردة، وعدم خبرتها في تعاملها مع الرجل، فاتهمها في أنوثتها، وتحول إلى كائن عصبي، في غضب مستمر، يتصيد لها الأخطاء، فهذا (الأومليت) كان حارا، وهو يكره الفلفل الحار، وتلك الرائحة الي تضعها تنم عن ذوق ردئ، فاشلة في الطبخ والضيافة والسرير.

توالت الإتهامات، وصار يكيل لها بالتوبيخ، وآثرت هي أن تتجنبه أغلب الوقت، وأحيانا كانت تنظر إليه نظرات متحفزة ومتوعدة بنفاد الصبر وبقدرتها على تحطيمه، ولكنها اختارت الصمت والصبر والتجاهل والاستغراق في العمل، وقد استعاضت عنه بصحيباتها.
شئ فظيع أن تشعر بأنك غير مرغوب فيك، وأنك مجرد عبد تشتري وتلبي بلا سؤال عما تريد أو تشتهي.

تمنى أن تأتي إليه، وتسأله عن سبب غضبه، أو خصامه لها، استفزها كثيرا حتى تسأل أو تشتكي منه إليه، لكنها كانت تجد في خصامه راحة، لتنفرد بنفسها في حجرة الضيوف، تغلق الحجرة وتستمع الى الراديو وتقرأ كتابا.

كره كل ما يبعدها عنه، كل ما يلقى اهتمامها غيره، عاشق هو لها ولا يريد امرأة غيرها.

هي التي تفتحت رغباته على يديها، واشتعلت ذكورته في حضورها.

إلى أن كان في جلسة مع أحد أصدقائه والذي نصحه بالإنجاب، فالأطفال هم الذين يوطدون العلاقة بين الزوجين، وهم الذين يلقون بودق الود والسعادة على الأبوين.

تذكر نقاشه الأول معها، ووعدها له أنها ستعرض نفسها على الطبيبة، ولكنها تكاسلت، وكانت تتهرب منه حتى لايفتح معها هذا الأمر.

استغل إجازتها، وفي لحظات سلام بينهما تعمد أن يتحدث معها في هدوء ودون تعصب، لعله يقنعها بالأمر، فلابد من أن يسايسها حتى يحقق مبتغاه فلا نتيجة للعناد والشجار.

سألها أثناء فترة الخطوبة عن رغبتها في أن تكون أما، لتتلقي بإجابة كما الحجر في وجهه ، فكيف لامرأة أية امرأة أن ترفض الإنجاب، فلم خلقت النساء إذن إن لم يلدن إن لم يكن جل دورهم هو الإنجاب والأمومة؟!

- لماذا أنجب؟

- تسألين لماذا يا "همت"؟

- نعم، أجبني لماذا؟

- أية امرأة تتمنى أن تكون أما.

- غبية.

- غبية؟

- نعم غبية، الزواج ليس معناه الفناء في الآخر، الطفل معناه أن تنسى أحلامك وتبدأ في تحقيق أحلام غيرك، الذي هو ابنك أو ابنتك، كما أننا لم نستمتع بحياتنا بعد، لم نتعود على طباع بعضنا معا، في السنوات الأولى من أية علاقة لابد من التريث، يحتاج الطرفان وقتا كافيا لكي يتأقلما، ويختبرا قابليتهما للاستمرار معا وأن يتحملا الحياة سويا.

- هل تعتبرين الزواج فترة اختبار؟

- لم أقصد ذلك، لكن مثلا في الدول الغربية يختبر الاثنان الحياة معا وحينما يأتنسان ويشعران بأنهما مناسبان يعلنان الرغبة في الزواج ويتزوجان، ونظرا لأن العرف عندنا مختلف، يحدث الكثير من الفشل بعد الزواج، ويروح الأطفال ضحايا لعلاقة فشلت.

وأنا ارى ضرورة التريث والصبر، وحين يحدث التفاهم وتوفير البيئة المناسبة لوجود طفل، هنا يكون القرار باتفاق الطرفين على الإنجاب.

كانت أفكار "همت" صادمة لشريف، وكذلك كان عصيانها على الخضوع، لكن كل ذلك زاد من انجذابه إليها، ولكن لم يكن يتصور أنها جادة فيما كانت تردده، واعتقد أنها تتباهى كأغلب الفتيات في سنها ليظهرن

للشاب أنهن عصيات على الترويض، ليكتشف أنها لاتلين، ولكنه آثر الصبر، متعللا بأنها سوف تغير قرارها حين تعاشره، وتكتشف أنه رجل يصعب أن تفارقه امرأة، وأنها محظوظة حين اختارها زوجة له.

يدور النقاش معها للمرة الثانية، ويجد منها إصرارا على ما قالته أثناء الخطوبة:

- نحن بالكاد بدأنا نحقق بعض أحلامنا، لقد انتهيت من الجامعه، وبدأتُ أعمل، ولم نِؤسس بيتنا بعد، لم نشتر الأجهزة الكهربائية ولا الشقة ولا السيارة.

أطفال يعني لابد من توفير دخل مناسب لإلحاقهم بمدرسة مناسبة، بمجرد الولادة يبدأ العد، أربع سنوات ولابد أن تختار مدرسة وتستعد لطلباتهم.

- كيف تفكرين بهذه الطريقة؟ الطفل يأتي برزقه.

- لاتكن فوضويا، قبل أن تخطو خطوة لابد أن تعقلها، ديننا يقول ذلك: "اعقلها وتوكل"، أما ماتردده فما هو إلا عادات ما جنينا منها إلا الفقر والحاجة وكسر الظهر.

لا أنسى أبي الذي أنجب أربعة وهو مجرد ساع، ولولا رحيل أمي، ربما كنا صرنا ستة أو ثمانية، ليقولوا "الرزق يصحب العيل "، لقد صحت في أبي يوما حين عانى التعب من عدد ساعات العمل، لمته ونهرته.

- لماذا أنجبت أربعة وأنت غير قادر على إعالتنا؟! أنتم تنجبون الأطفال لتعذبوهم بفقركم.

أنا لن ارتكب تلك الجريمة في حق أبنائي، سأنجب حين أوفر لهم البيئة المناسبة، ورغم ما أؤمن به يا "شريف" فأنا لا أتناول ما يمنع الإنجاب، لقد ذكرتني، احمد الله أن التأجيل منحة من القدر.

موروثاتنا شعبية حمقاء، بها الكثير من التواكل والفوضى.

- أو قد يكون عقابًا منه، يا همت.

نظرت في عينيه وقد اتسعت حدقتاهما، وضغطت على أضراسها، وكأنها تمنع فمها من أن يلفظ كلمات قاسية تهينه، ابتلعت إهانته ثم ردت:

- نسيت أن أخبرك أنني ذهبت لاستشارة د. "سهام" ، ولقد نصحتني بأن تعرض نفسك على طبيب.

قالت جملتها، واستدارت تاركة إياه، وقد صبت فوق رأسه ماعونا من الثلج، قدمت إليه أوراق وتقارير تثبت خلوها من أي عيب:

- ليتك تقرأ هذه الأوراق التي أخفيتها عنك، لنكف عن الحديث عن هذا الأمر، ولندع ذلك لمشيئة الله.

شعر شريف بأن "همت" صارت كما الديكتاتور، متجبرة في عباراتها ونظراتها بل وقراراتها، وحين

ألقت بجملتها عن الفحص الطبي، ومعها تلك التقارير، كانت تقولها وفي عينيها تلميحات أصابته في كرامته كرجل وكان لابد من رد مناسب.

- أعتقد يا "همت" أن ما بي هو رد فعل طبيعي لبرودك وعدم خبرتك في التعامل مع زوجك، فأنا سليم، أنت التي تحتاجين إلى دروس كيف تكوني أنثى؟

- "شريف"، أنت لست أميا، التقارير معك تثبت أني امرأة مكتملة، ورغم ذلك فالأمر لا يشغلني ولا أتلهف على أن أكون أما، أريد أن نعيش في سلام.

- سأذهب إلى الطبيب يا "همت"، وبعدها لن أسمح لك بحرماني من حقي في أن اكون أبا، ربما يكون رحمك سليمًا، ولكن أنت تعانين من البرود، وأنا الذي أقرر إن كنت أنثى أم ذكر في جسد امرأة.

وقفت فجأة وقد أحنت رأسها ناظرة إلى بلاطات الصالة، وقد تحولت إلى بحر يبتلع ساقيها، تستدير في محاولة لأن تواجهه وترفع ساقيها عن هذا البحر الذي يبتلعها، لكنه كان قد انصرف تاركا إياها وهي في حالة من الصدمة والإهانة، التي أضرمت النيران في جسدها، فضخت لهيبها ليحمر خدودها لتزداد أنوثة وجمالا.

إلى متى ستتقبل إهاناته لها؟ إلى متى ستتحمل غضبه الدائم الذي انبثق من إحساسه بالنقص؟ شعوره برجولة منقوصة، متى ستتجاوز شعورها المستمر بتأنيب الضمير وضرورة أن تكمل الصفقة بلاعودة؟!

يعود مسرعا ليربت على كتفها ويهدهد طفولتها، حاول أخذها في حضنه لترد يده، وتبعده عن حضنها وتتجه إلى حجرتها، وتغلق الباب وكأنها تتصيد له أي خطا لتهرب منه.

ارتدى ملابسه، وخرج صافعا الباب، ولم تعرف إلى أين يذهب، ولم تهتم فغيابه يشعرها بالراحة، ولن يكلفها عناء قبول النوم إلى جواره، وتشمم رائحته التي تصيبها بالغثيان والبكاء أحيانا، لم تفهم لم كل هذا الرفض له؟ ولماذا لا تشعر كما النساء بالرغبة في الجنس؟!

أدركت أن الوضع بينه وبينها صار أزمة تحتاج إلى متخصص أو مرشد، فلقد أمسى التفاهم بينهما صعبا ومستعصيا وكانهما يتحدثان لغتين أعجميتين.

***

الصفحة التاسعة عشرة

همت

تفتحت عيناي على خشونة الغطاء وقلة الطعام والشعور بالبرد طوال الشتاء، أربعة أطفال لأب يعمل ساعيًا براتب ضعيف لا يكفي، لا أذكر أنني أحسست مرة بالشبع، كنا ننهض من أمام الطبلية ومازلنا جوعى، لم أر البيض في بيتنا، كنا نتذوق اللحم مرة كل شهر، كان حجة أبي أن الرئيس قد قرر السماح بالذبح مرتين في الأسبوع، ورغم ذلك كان يستبدل باللحم الماسورة إحدى سيقان البقرة أو الجاموسة، كانت أختى الكبرى تطهوها وتطبخ بها الملوخية والخضار، ونتعامل مع الماسورة كما الكوارع ونشفط ما بداخلها من نخاع، ونتعارك على ما حولها من أطلال لحم.

تغادرنا أمي موتا، لتتركنا نعاني الصقيع الذي أتى ليحل محل أنفاسها، تركتنا ولم نشبع من حضنها بعد، كنت أصغر إخوتي، وأقلهن حظا في الاستمتاع بها.

وظلت أحوالنا في فقر بالاضافة إلى غياب الأم، صار البيت كئيبا ومهامه تتوزع بيننا، المطبخ مسؤولية أختى الكبرى "هبة"، المشتروات تتوزع مسؤوليتها

بين أخي الأكبر "صبري" و"عبد الله"، والتنظيف مسؤوليتي.

حين كنت أنزل إلى الشارع للعب مع أولاد الجيران لعبة عروسة وعريس ونرسم صورة للمستقبل، كل منا يتحدث عن أحلامه، ويتقمص الشخصية التي يتمنى أن يكونها، فأنا زوجة لرجل غني له فيلا وسيارة فارهة، لنصمم السيارة من كازوز الكوكا كولا ولوح خشبي أو كارتونة، وأجلس وفي كرسي القيادة السائق، لم أحلم بأقل من سيارة بسائقها، وفيلا، بل كنت أتمادى في أحلامي بأنه سيكون قصرا كقصر عابدين.

تمنيت أن أصحو على خبر سعيد كما أشاهد في الأفلام، أنني سأرث عما لي بالخارج لأصير مليونيرة وأنتقل إلى فيلا بمصر الجديدة وسيارة وخدم، أو أنني قد أكون متبناة، كنت ابنة أحد الاثرياء ووجدني أبي بجوار أحد الجوامع، أو ربما سرقني أحدهم انتقاما من عائلتي الثرية، وأنهم سيعثرون علي في يوم ما، فالأفلام العربية شوهت شخصياتنا وحولتنا إلى حالمين أغلب الأوقات، نحاكي أبطالها، صرنا نتصنع المشاعر، نتقمص الحب، نرفض واقعًا جافًا يخلو من أدنى حقوق الإنسانية، حتى الجمل التي نركبها للتعبير عن غضب أو حب أو حتى بين الاصحاب صارت

أغلب كلماتها مستقاه من تلك الحوارات التي حفظناها عن ظهر قلب من أبطال تلك الأفلام.

كانت سهرات الخميس أمام السينما العربية، والسبت أمام نادي السينما والأفلام الغربية، هي سلواي للتحليق، وخلق أحلام، واجتياز تلك الشاشات لأخلع البطلة، وأسقط داخل ملابسها الأنيقة، وأقود سيارتها الفارهة، أو امتطي حصانها بأحد اندية الفروسية، المهم أن أكون غنية في فيلم أبطاله أثرياء ينقذونني من هذا الفقر، ما جعلني أقتنع أنني لا أنتمي إلى تلك الأسرة ملامحي التي كانت مختلفة عن إخوتي، فهناك ملامح مشتركه بينهم هم الثلاثة، أما أنا فلا شبه لي بهم، كانت عيونهم خضراء وشعرهم بنيا، طوال القامة، كانت أختي نحيفة وإخوتي ذوي بنية قوية، أما أنا فكنت متوسطة الطول، ممتلئة القوام قليلا، بضة كما يقولون، خمرية اللون، ذات عيون سوداء، وشعر أسود طويل مسترسل كما مواطني شرق أسيا، ميزني أنني ذات سيقان منحوتة في استدارة، مكتنزة الأرداف وخصر نحيل، وكنت أراقب جسدي حتى أعرف مدى امتلاكي مفاتن بطلة الرواية، حينها أدركت أنني أحمل ملامح جميلة عربية، وشككت أنني لست من تلك الجينات التي يحملها إخوتي، إلا أن أبي برر هذا الأختلاف بأنني خرجت بملامح أمي واخواتي حملوا ملامحه.

لم أكن أدرك أنني ذات جسد أنثوي جميل إلا بعدما تعلقت بقراءة الروايات، فتعرفت من خلال كل رواية على مقاييس متنوعة لجمال الأنثى، والتي اختلفت باختلاف الكاتب، وكذلك من خلال الأفلام، حيث كنت أتأمل "مارلين مونرو"، و"صوفيا لورين"، "وجين مانسفيلد"، "أفا جاردنر" وغيرهن وأقلدهن في مشيتهن وصوتهن، فصرت فتاة لا ملامح تخصها، لم أعد متفردة، بل صرت مزيجًا مخلقًا منهن جميعا، فتهت، ضعت مني، وشعرت بأنني أدعي أغلب الوقت، ولم أعش إحساسا حقيقيا.

كل ما كنت أريده ألا يكتب عليَّ أن أكون جزء من هذه الحياة ، لاأريد أن أظل في معاناتي كما إخوتي، غرقت في أحلام اليقظة، وحلم أن هناك ما يخبئه لي القدر من تعويض عن قحط وحاجة، لنحلم إن كان الواقع محبطًا، ففي يوم ما سيتتحقق الحلم، لنحلم، ففي الحلم حياة وحرية بلاحدود.

هذه الحياة أنبتت بداخلي الكثير من التناقضات، الجفاء والقسوة، واللين والطيبة، كثيرا ما كان يبكيني قط يتألم أو موت عصفور سقط خطأ من عشه، وأحيانا لا أشعر بأية مشاعر حين موت إنسان، وتصيبني موجة ضحك في العزاء، لاأعرف سببا لها، بالإضافة إلى الانطواء، وحب الحياة المشوب بالخوف منها، وقلة الثقة بالنفس، كنت أنظر للآخر بعداوة وتحفز،

وبداخلي الكثير من الغضب، والاستعداد للعراك والشجار، فكل كلمة أترجمها على أنها أهانة وسبة، ولم أكن أتقبل الهزل أو النكات، كثيرا ما كنت أشك في أنني أعاني من ضوضاء نفسية وعدة أمراض لن يعالجني منها إلا متخصص، كل ذلك لأنني كنت أنا من رباني وأثقل فكري ووجه أحلامي في زاوية ما.، استعضت بنفسي عن أمي، وكانت الوسائل التي أستمد منها قيمي ومبادئي هي المدرسة والتلفاز والكتب، فكنت ممزقة.

كان صعبا أن أعيد خلق نفسي، أعيد تشكيلها، أصوغها بما يتواءم مع تنوع البشر والمواقف، أدركت خلال دراستي لعلم النفس والفلسفة بأنني أمر بمرحلة المراهقة، وكل ما أمر به أمر طبيعي غريزي، فهدأت ثورتي وغضبي من نفسي قليلا.

في مرحلة الثانوية صار تفوقي جدارا يحميني من الإحساس بالدونية والعجز، فصار اسمي يتردد بالمدرسة، وصرت من الطالبات اللاتي يشتركن في كل المسابقات العلمية والفنية.

كنت أنظم الرحلات، وألقي الشعر، وأشترك في الانتخابات الخاصة بأمناء الطلبة.

هكذا بدأت الحياة تبتسم لي، وتغمدني الأمل في أنني على مقربة من اجتياز خط الفقر بمجرد ملامسة قدمي عتبة الجامعة، وأتقنت اللغة الإنجليزية بمجهودي

الشخصي، كنت أذهب إلى المكتبات أو بمعنى أكثر دقة إلى أكشاك للكتب القديمة بمنطقة السيدة زينب التي كانت كما سور الأزبكية، والتي كانت كعبتي، أذهب إليها أنا وسناء نشتري بمصروفنا الضئيل رواية أو قصة، وبعض القصص الإنجليزية التي كنت أقوم بترجمتها بواسطة القاموس الذي استلمناه من المدرسة، واشتريت عدة قواميس قديمة من تلك الأكشاك، تعبت في البداية من صعوبة الترجمة، ثم تحسن مستواي بالتدريج، وأصبحت ألجأ إلى القاموس فيما ندر..

ٍرأف بحالنا صاحب المكتبة، وعرض علينا عرضا يوفر علينا شراء الكتب، عرض علينا أن نشتري كتابا بثمنه الحقيقي، ثم نرده إليه ليكون كما رأس المال المدخر لديه، ليفتح أمامنا باب الإستعارة بمبلغ رمزي وهو خمسة عشر قرشا فقط نعطيها له مع كل كتاب نستعيره.

هكذا استعرت كتبا وروايات باللغة الإنجليزية وروايات لـ "عبد الحميد جودة السحار" و"محمد عبد الحليم "عبد الله"" و"نجيب محفوظ" و"إحسان عبد القدوس"، و"أو. هنري" و"تشيخوف" وآخرين.

تخرج أخي صبري بتقدير ممتاز، مما يؤهله للتعين كمعيد بكليته، ولكن تمكن أحد أصحاب الحظوة من أن

ينتشل منه تلك الفرصة، ويدخل أخي في حالة اكتئاب لم يستمر طويلا، فهو يدرك حاجة البيت إلى عائل آخر، بجانب أبي الذي أحنت المسؤوليه ظهره، وأصابته بالشيخوخة المبكرة، تصورنا أن تخرجه بتقدير سيتيح له فرصة العمل بواحدة من الشركات الكبرى، وأنها ستتلقاه بالترحيب والتعيين الفوري، لنكتشف أن ظهرنا مازال عاريا من السند، فلا مال ولا واسطة، ليعانى أخي في الحصول على وظيفة، فلقد بدأت الحكومة في رسم فلسفتها الحديثة تجاه التحرر من الاشتراكية واتكال الشعب بأكمله عليها، من توفير فرص العمل، والتموين الشهري، ورغيف الخبزالمدعوم، وزجاجة الزيت المزرنخة المدعومة، وعلا صوت الانفتاح، وظهور رجال الأعمال ذوي الياقات الحمراء، وبدأت الحكومة تسحب يدها بالتدريج، كمن تخلى عن ابنه وهو مازال يتعلم الحبو بعد.

كانت ملابس أخي المتواضعة وخلو يده من جواب توصية سببا في فشله في الحصول على وظيفة مناسبة، فاضطر للعمل كمحاسب في أحد مصانع الأكياس البلاستيكية بمبلغ بسيط، وعندما تلقى أول راتب دخل علينا بدجاجة، وكانت فرحتنا لا تقدر بثمن فلقد كان الدجاج شحيحًا، يصعب الحصول عليه، ولابد أن تهان بالوقوف في طابور الجمعية لتحصل على دجاجة مجمدة، أو أن تقع في يد الدلالة التي

تستحوذ على أغلب التموين المتوفر بالجمعيات، وتبيعه للناس بسعر أعلى، بدأنا نتذوق البيض مرة في الشهر ودخل بيتنا الحليب.

حينما تقدم لي "شريف"، رأيت فيه المنقذ الذي أرسلته لي العناية الإلهية لتنتشلني من مصير إخوتي، معاناة البحث عن عمل، و(بهدلة الأتوبيسات) والتحرش، كما أنه سيتولى الإنفاق عليَّ طوال فترة دراستي، وأنا في حاجة لمصروف كبير حتى أنتظم في الكلية، وأرتدي ملابس أنيقة كما صحيباتي.

لم أنظر إليه كزوج أو حبيب، لم أنظر للأمر ككل الفتيات اللاتي يحلمن بفتى الأحلام والفارس، الفارس بالنسبة لي من يستطيع أن ينتشلني من حاضر مهين ومستقبل مظلم، بل إنه رفض أن يتحمل أبي أية تكاليف في الزواج، ووعده بأنه سيتحمل كل التكاليف، فهكذا يقول الشرع، وسوف يأخذني بحقيبة فارغة سيقوم هو بتجهيزي بالكامل.

كانت صفقة مربحة لأبي ولأخوتي ولي أيضا!

أعرف أنني كنت قاسية وأنانية، ولكن هل كان أمامي اختيار آخر؟!

كل الاختيارات أمام من هم في مثل ظروفي مُرة، فإما أن أتحمل الفقر، وأتنازل عن الكثير من احتياجاتي، والتي هي ليست رفاهية، أن أشتري الرخيص من

الملابس، والتي لن تتناسب مع كليتي، التي تتأنق فيها الفتيات بأرقى الماركات، أو الغياب أغلب المحاضرات، وقاعات الدرس مما سيؤثر على تقديري العام، أو أن أضطر للعمل كبائعة في أحد المحلات أكنس المحل، وأتحمل سخافة صاحبه و تحرشه بي، فلا حل أمامي سوى الاتجاه الشرعي، والحل الاجتماعي الأنسب، ألا وهو عقد بيع أنيق يتقبله المجتمع، والحياة فرص ولابد أن أنتهز الفرصة لكي أحيا.

لم تتح أمامي فرص متعددة للاختيار فيما بينها، في ظل الفقر لا تشغل رأسك كثيرًا بالمشروع وغير المشروع، لا تتحدث عن القيم الكبرى والمثل، الأولوية هنا لإشباع البطن، والحفاظ على حقك في أن تحيا، وتستر جسدك من البرد.

أريد أن أجرب الشبع، أتذوق أنواع الطعام المختلفة، أتذوق (البرجر) الذي ظهر حديثا في المطاعم، وأسمع عنه من زميلاتي، يذهبون إلى (بروستد) لتذوق هذا النوع من اللحم، أسمع عن (استيك) اللحم ولا أعرفه، أريد أن أتذوق تلك الفاكهة التي يتلذذ بها الأغنياء، أرى الفراولة وأعرفها شكلا، ولكنها لم تلمس لساني، عظامي ضعيفة، فلم أشرب يوما كوب الحليب كما أشاهد في الأفلام، قبل أن ينام الطفل تجري الأم خلفه ليشرب كوبا كبيرا من الحليب، وهو يتقزز من شكله

وطعمه، وأنا ألحس بلساني شفتي المبللة بسلافي لا الحليب، متمنية أن أكون مكانه، وأشرب كل هذا الكوب.

ما طعم (البسطرمة) بالبيض؟ وما طعم الملوخية بالأرانب؟ وأنا لم أتذوق الملوخية باللحم أصلا؟

كان قوامي ممتلئا من تناول النشويات، خاصة المكرونة والخبز.

تمت خطبتي، وسافر "شريف" وتركني لأكمل كليتي في قسم اللغة الألمانية، ذهبت وفي إصبعي خاتم الخطوبة، وأنا أرتدي فستانًا جديدًا وحذاء بكعب عالٍ، وفي يدي وحقيبة جديدة.

كانت سعادتي بمظهري الأنيق كما سعادة طفلة ترتدي فستان العيد، إحساس لم أجربه صغيرة، وها أنذا أجربه الآن.

كانت ثقتي في نفسي في ذلك اليوم كأني فنانة تتلقى نظرات الإعجاب وشعرت وكأن أصحابي هم المعجبون، وسيأتون الآن ليطلبوا مني التوقيع على الاتوجراف، تعمدت ان أدخل المدرج متأخرة، فأنا في وضع ومظهر يستحقان أن يكونا موضع دهشة ومشاهدة، أريد أن أرى نظرات الإعجاب من الجميع وأنا أدخل المدرج.

كنت قد تقمصت دور فاتن حمامة في أحد أفلامها حيث كانت فقيرة، فكنت أرتدي (تايير) أسود وألقي بالـ (إيشارب) على رأسي هربا من تكلفة تصفيف الشعر التي لا يتحملها مصروفي الفقير جدا.

الآن وداعا للفقر والحرص، ومرحبا بالحياة!

كان يوما عشته كاملا، واستمتعت بكل لحظة فيه، دعوت صديقتي "شاهنده" على الغداء، فمعي مبلغ تركه لي "شريف" كمصروف، ولابد أن أبين لها محفظتي، وأخرج منها الجنيهات، وأريها أنني صرت مثلها أحمل محفظة وبها جنيهات.

انتقلت للسنة الثالثة بتفوق، فتوفر المال معي منحني الثقة بالنفس، وساعدني على الانتظام في الجامعة، والحضور بكل المحاضرات، ولمع اسمي بكليتي، وتوسعت علاقتي بزملائي، وبدأت الحياة تبتسم لي، نعم كانت ابتسامتها في تردد وبطء ولكنها تبتسم.

كان "شريف" ينزل إلى مصر في إجازة نهاية العام ليقضي شهرين ويسافر، كنت أشعر أن الشهرين كما وأنهما سنتان، كلما حاول الاقتراب مني نفر جسدي كقطبي مغناطيس سلبيين، لم أشعر بتلك النشوة التي تعيشها الفتاة حين يقترب منها خطيبها أو حبيبها.. كنت أسمع من إحداهن أنها تشعر بكهرباء تسري في الأعصاب لتخدرها، ولم أختبر تلك اللذة حين حاول تقبيل شفتي، كنت أتحمل فترة وجوده فقط لأحصل

على مصروف يكفي حاجتي وهداياه من ملابس وعطور.

ربما كان قبول الزواج منه كما بغي تمنح الجسد مقابل المال، فالفقر مرتع كل الموبقات.

لا أدري .. هل لاحظ "شريف" ذلك؟ ربما فسره على أنه أدب جم، هذا ما أراح ضميري، فما يطلبه مني لا يجوز مادمنا لم نتزوج بعد، هكذا وجدت منفذا لضميري وراحة.

***

الصفحة العشرون

انتقلت للعيش بميدان الشعوب بصنعاء في أحد البيوت الراقية، واشترينا سيارة، وهكذا قصرت المسافات بيني وبين "عنود" وصديقتنا الجديدة "هيلانة"..

أنهى "شريف" دراسته الجامعية، وترقى في عمله كمعلم لمادة التاريخ.

كنا ثلاثتنا نهرب من بيوتنا الخاوية من السعادة إلى التسوق بشارع التحرير نسير على أقدامنا للتفرج على (الفاترينات) ومحلات الذهب التي كانت تبهرنا بمعروضاتها من الذهب بجنسياته المختلفة، فهناك الذهب اليمني والهندي والصيني والسنغافوري، وكانت "عنود" أكثرنا نهما لشراء الذهب، لفت نظري ذات ليلة خاتم ذهبي مرصع بفصوص تلمع كما فصوص الألماس، ولكن "عنود" نصحتني بألا أنبهر بفصوص الزجاج، وحين أشتري لابد أن أركز على الذهب الخالص، لتشتري الأساور من الذهب الخالص بلا فصوص، فالفصوص تزن عند الشراء، وتخصم عند البيع، فتقل من قيمة القطعة الذهبية والمكسب.

اشترت عدة أساور بلا أي فصوص من الذهب السنغافوري، واشتريت أنا أيضا خمس أساور، وظلت "هيلانة" تقف تتأملنا، ولم تهتز، ولا يبدو على ملامحها أي انبهار.

كانت رحلتنا كل فترة إلى التحرير ومحلات الذهب لاقتناء قطع الحلي كادخار لأموالنا ووديعة للمستقبل والسئ من الأيام.

- ماذا تفعلان؟

- نشتري أساور، ألم يعجبك شيئا؟

- بلى، ولكن لا رغبة لي في الذهب.

- غريبة أنت "هيلانة".. هل هناك امرأة لاتحب الذهب؟!

- نعم، أنا، أسرعا، وهيا نجلس في أحد (الكافيهات) لنشرب شيئا.

- تجلسين في أحد (الكافيهات)؟

- الأمر صعب هنا، فأنت في اليمن، لست في القاهرة ولا في دولة أوروبية، لكن لن أحرمك من المشروب، وسنذهب لأحد البيوت اليمنية، ونحتسي هناك القهوة العربية مع التمر، فقط ننتهي من التسوق.

- تمام، فقط أسرعا.

انتهينا من الشراء، وأشرنا لسيارة أجرة، وتوجهنا إلى إحدى صديقات "عنود"، رحبت بنا، وجلسنا نتسامر، ونسينا الوقت ونسيت أنا "شريف"، أفقت فجأة على دقة ساعة الحائط المعلقة خلفي بالديوان، لأنتفض واقفة وأعتذر لهبتي المفاجأة، وضرورة انصرافي الآن.

أستأذنا جميعًا، وطلبنا من "فاطمة " صاحبة البيت أن يقوم سائقها بتوصيلنا، نخرج من البيت لنفاجئ بـ "عدنان" ينتظر أخته في قلق.

كان شابا وسيما، طويلا، أبيض ذا عينين خضراوين، وسامته كانت أول ما لفت نظري، ولكن بعد عدة دقائق كان هناك شيئ آخر جذبني، وحين مد يده مسلما عليَّ ومرحبا، كان هناك صيف اجتاح جسدي، وعرق تقاطر من جبيني ويدي.

ركبت "عنود" مع "عدنان"، وصحبتني "هيلانة" إلى سيارة "فاطمة".

استغرقت في التفكير في "عدنان" لدقائق صرفتني عن التفكير فيما سيحدث من عراك مع شريف، وكان هناك قرار قد تبلور في داخلي.

عدت وأنا بداخلي خوف من مقابلة "شريف" ووقع تأخري عليه.

دخلت بيتي وأنا أتوقع كارثة، بالفعل كانت كارثة**!!**

***

الصفحة الحادية والعشرون

عنود

كانت هناك روح ما تعلن عن وجودها بالكثير من البلدان العربية، مجلس التعاون الخليجي، ويليه مجلس التعاون بين مصر واليمن والعراق والمملكة الهاشمية، وبرضا من منظمة التحرير الفلسطينية، فتحت طاقة نور داخلي، فهناك بارقة أمل لوحدة عربية قادمة، ولكن مازالت سوريا بعيدة عن أي فرصة للتعاون مع أي بلد عربي، ليتها تقترب من مصر، لكن مبارك ذو رأس مختلف، يقيس الأمور بلغة المصالح، لايعير القومية العربية أو أي قيم كبرى أي اهتمام، يتحرك لتحقيق مصالح ما فقط.

واليمن الجنوبي قد عاد إلى حضن اليمن الشمالي والوحدة بين البلدين تحققت، فمن غير المنطقي أن يتمزق بلد واحد إلى نصفين ويكتب لهما التوفيق، فهناك نقص عند كليهما يحتاج إلى أن يكتمل بنصفه الآخر.

كنت أحدث نفسي حين دخل أخي منهكًا ورمى بجسده المتعب على أقرب كرسي، وبعد قليل وجدته يسألني عن صديقتيَّ، من منهما المصرية ومن السورية؟

أجبته ليركز في سؤاله عن همت.

ابتسمت، وكان لابد أن أبعدها عن حلمه:

- هي زوجة مدرس وتعمل مترجمة بالسفارة.

- آه .. ماذا أعددتِ لنا على الغداء؟

- كل ما طلبت، غير ملابسك وهيا لنأكل.

***

الصفحة الثانية والعشرون

همت - شريف

يقف خلف الباب، يستشيط غضبا، رفعت رأسي، ووجهت نظراتي إليه لأعتذر عن التأخير، إلا أنه فاجأني بصفعة على وجهي، وسحبني من يدي ليلقي بي بعنف لأصطدم بالأرض، وأمسح بيدي لأجد قطرات من الدماء تخرج من شفتي، حاولت أن أنهض وأصد هجماته، كانت عيناه تطلق شررا، لم أر "شريف" بهذا الغضب من قبل، ارتعدت فرائصي، وانتابتني المخاوف أن نهايتي ستكون الليلة.

- أين كنت يا فاجرة؟!

- فاجرة؟ هل جننت؟

- الزوجة التي تعود إلى البيت في مثل هذا الوقت لا يقال عنها إلا فاجرة، لقد نسيت نفسك، واسم زوجك، وصرت كما العاهرات، لا رابط ولا مانع لك.

- أنت مجنون، غير طبيعي، أنا تحملتك بما يكفي.

- تحملتِني؟ هل صدقت نفسك بأنك أنثى؟ هل صدقت أنك امرأة؟

- وهل أنت رجل؟ أنا أكرهك، لم أحبك يوما، لقد تحملت بما يكفي، نعم أنا لا أطيق رائحتك، ولا أطيق

أنفاسك، ولا أن أسمع صوتك، وأتمنى أن أظل في عملي، وأن أنام بالشارع، ولا يجمعني بك فراش.

- أنا؟ فعلا كما يقولون اتق شر من أحسنت إليه، لقد لململتك من بيئة فقر، أكرمتك، ورفعتك، ونهاية إحساني إليك أن أتلقى منك كل هذه الاهانات؟

أقسم أنني سأعيدك إلى ماكنت عليه من فقر، وسأهدم ما بنيته، وما كنت أنا سببا فيه، سأحبسك هنا ولن تري الشارع ثانية؟

أغلق الباب خلفه، وتركني بمفردي، بعد أن سحب مني مفتاح الشقة، لقد تحول "شريف" إلى شخص مخيف، عصبي أغلب الأوقات، يتصيد لي الأخطاء، تثير ضحكتي شهيته للعنف، ويستفزه هدوئي، تجمعت كل الأسباب التي نمت بداخله للانتقام مني.

أحساسه برفضي إياه، ضعفه الجنسي، وكانت الطامة الكبرى تلك التقارير التي ألقيتها بين يديه، لم أدرك حجم الصفعات التي كلتها له، لأحوله إلى رجل يزأر أغلب الوقت.

مر يومان على حبسي بالبيت، وإهانة اصابت كرامتي أمام نفسي، وخوف من أن يشيع خبر حبسي وضربي بين زملائي في العمل وأصدقائي، إهانة لن أتحملها، ربما تؤدي تلك الخلافات إلى فصلي من عملي، كيف

سيكون شكلي حين يصل إليهم أن زوجي حبسني وضربني؟ يالها من فضيحة!

ما كان مني إلا أن أنتظرت عودته ليغير ملابسه التي مكث بداخلها يومين، بالفعل عاد، وعلى وجهه نظرات الشماتة، دخل غرفة النوم استبدل ملابسه بعد أن أخذ حمامه، وخرج متوجها إلى المطبخ لعمل كوب من الشاي، مدندنا بأغنية محرم فؤاد: "يا اللي زرعت الحزن بقلبي، قلبي بيدعي عليك"

وقفت على باب المطبخ أتأمله:

- وماذا بعد؟ أنت تعرف أن السفارة ستنقلب بحثا عني، وسوف يعلمون بما حدث، ولا أقل من أنهم سيلقون باللوم عليك لاستهتارك بمركزي ومسؤولياتي، وأعتقد أنه سينتهي الأمر بإلغاء عقدك وعقدي، أنت تدمر مستقبلنا.

انتبه لما وضع به نفسه، ولكن كبرياءه طغى على حكمته وقال:

- أشرب كوب الشاي وأنصرف، وأنتظر ماذا ستفعل علاقاتك معي، فلم يعد يهم.

خرج وأغلق الباب..وتركني..

***

الصفحة الثالثة والعشرون

همت

أدركت أنني نضجت حين نجحت في التمييز بين مشاعري الحقيقية وبين تلك التي أظهرها على وجهي تقمصا.. وهي كاذبة، حين أدركت الفرق، وعيت جدا أنني خرجت من سن الصبا والمراهقة، وأنني قد صببت نفسي في قالب متفرد، يخصني وحدي"

لطمني "شريف" على وجهي ردا على صفعتي له في رجولته، لم أمتن لما فعله لأجلي، لم أحترم العقد الذي ارتضيت ووقعته معه، أن ينتشلني من الفقر، وأن أمنحه الحب، اكتفيت بأن استغللته في تحقيق أحلامي، وتنصلت من حقه في جسدي، فالقلب لا يتقيد بما نريد، فهو حر.

شعرت بتأنيب الضمير، ولمت نفسي لما سببته له من حزن ووحدة، وتمنيت أن يعود لأعتذر له، أطلب منه الصفح، لكن الأمور خرجت من يدي.

لقد انقلبت السفارة بحثا عني خاصة، بعد أن فصل خط التليفون عني، ولم يعد هناك وسيلة للاتصال، لأجد طرقات على بابي.

لم أكن أتوقع أنها زيارة من وفد يبحث عني، رددت بسؤال: من؟

- نحن وفد من السفارة نبحث عن الأستاذة همت، هل هي هنا؟

- تدفق الدم ليتراكم أسفل خديَّ، وترتفع حرارتي والأدرينالين، خجلا وغضبًا.

ماذا سأقول لهم؟

إن لم أبرر غيابي عن عملي بحبس زوجي لي.. ربما فسيتهمونني بالإهمال والتهرب من عملي، وربما أفقد وظيفتي، لقد فضحني وفضح نفسه، لابد من مواجهة الموقف وعدم الهروب.

أجبت :

- الباب مغلق، وليس معي مفتاح ولا أعلم أين زوجي.

طلبت منهم بأن يتصلوا بصاحب البيت ربما يكون معه نسخة أخرى من المفتاح، بعثت لهم برقم التليفون، فلقد مزق "شريف" سلك التليفون، لكن ترددت خوفا من الفضيحة، وطلبت منهم كسر (الكالون) أفضل.

بالفعل استخدم أحدهم حجرا من حديقة بيتي، وكسر (الكالون) وفتح الباب.

قال الآخر: سننتظرك أستاذة بالخارج حتى تستبدلي ملابسك، وتصحبينا إلى السفارة.

- أشكركم، لحظات وسأكون جاهزة.

ذهبت إلى السفارة، وبعد انتهاء فترة العمل طلب مني المدير أن ألتقي به في مكتبه، دخلت، ودار الحوار حول سبب تغيبي فاضطررت أن أحكي له ماحدث في جمل مختصرة:

- خلاف بيني وبين زوجي وعدم تفاهم تفاقم الخلاف بيننا فحبسني اعتراضا، سألني:

- هل تسمحين لنا بالتدخل لحل هذا الخلاف؟

أجبت : نعم.

كنت في حالة من الخوف، ولا أستطيع أن أتوقع رد فعل "شريف"، فتعبيرات وجهه حين مد يده لضربي كانت مخيفة، كنت في حاجة إلى من يمنعه عني ويوقف أي هجوم قد ينتويه لي.

استدعى اثنين من رجال الأمن، وطلب منهما إحضار زوجي.

بالفعل أحضراه، وجلس معه، وطلب منه عدم التعرض لي، وبضرورة انتقاله إلى بيت آخر بعيدا عني مادام قد صار غير أمين عليَّ، أما عن أمر الطلاق، فهذا يعود إلى اسرتينا، يحسمه نزولنا إلى مصر في الإجازة الصيفية، لكن طوال فترة العقد والعمل لايحق له التعرض لي، وإلا سيعرض نفسه لإلغاء تعاقده، وإعادته إلى مصر لسوء السلوك.

هكذا انتقل "شريف" إلى بيت آخر، وترك لي بيتي وتجمد أمر الطلاق حتى نزولي مصر.

كنت ألمس آثارًا لشخص ما يدعمني من بعيد ويساندني، وكلما التقيت بأحدهم أحاول أن أفترض أنه هو ذلك الإنسان.

***

الصفحة الرابعة والعشرون

مكالمة دولية من أبي يطمئن على أحوالي، كانت نبرة صوته وأسئلته غير المرتبة، جعلتني أشعر بأن هناك أزمة ما يمر بها سألته:

- بابا هل أنتم بخير؟ أحوالكم المادية طيبة؟

- نعم. لكن..

تردد أن يفصح عن معاناته

- أخبرني يا أبي المكالمة ستنتهي ولم تفصح عما بك.

علمت أن إيجار الشقة تراكم عليه، وبعد سفرأخي إلى العراق كان يرسل مبلغا شهريا، ولكن انقطعت رسائله، وما كان يرسله وراتب أخي "عبد الله" لايكفي مع راتبه، خاصة أنهما يجهزان أختي هبة، وعدته بأنني سأرسل لهم مبلغا لشراء شقة في منطقه أكثر رقيا لينتقلوا إليها، ومبلغا مساهمة مني في جهاز هبة، انشرحت أساريره وسمعت كم أدعية كنت في حاجة إليه.

طرقات على الباب، ورنات على الجرس تتوالى في عنف، أنهض سريعا لأفتح وأجده أمامي، هو.. شريف..

- ما الأمر؟ ما الذي جاء بك إلى هنا؟

- هل نسيتِ أنه بيتي؟ وأنك مازلت زوجتي؟

أحتاج إلى كتبي وبعض الملابس.

أحضرت له حقيبتين ممتلئتين إحداهما بالملابس والأخرى بالكتب.

- لقد حزمتِ كل حاجاتي، هل نسيتِ أنني زوجك ولي الحق في المبيت هنا؟!

- لقد انتهينا من هذا الأمر، وأطلب منك الطلاق، وأنا حتى الآن لا أريد أن استغل منصبي لأضغط عليك في هذا الأمر، وتركت لك وقتا حتى تفكر وتصل إلى اقتناع أننا لن ننجح معًا.

بدأ صوتي في الارتفاع، وشعرت بالضعف، فكيف أطلب حريتي من إنسان؟ وأين كان عقلي حين بعت عمري وحريتي له؟ كيف تمكن من أن يشعرني بأنني كما القاصر، لايحق لي الاختيار، ولا أن آخذ قرارًا يتعلق بمستقبلي؟!

هذه الاسئلة أثارت غضبي ونقمتي عليه، مما جعلني أتحدث بكلمات غير منتظمة، أتلعثم، وكأن هناك تشابكًا في شريط عقلي.

- لا تنسي أنني أنا من له الفضل فيما وصلت إليه.

- أنا لم أنس، ولن أنسى.

وأعتقد أنني أيضا ساعدتك في أن تصل إلى مركز ومكانة، بل وعلاقات فتحت لك أبوابا كثيرة.

- أنا لن أطلق.

- اسمع يا شريف، أنا قرأت في كتب الفقه والتشريع ما يكفي لأن أعرف أن من حقي أن أخلع نفسي منك بعد أن أرد لك مهرك.

وأنت تعرف جيدا أنك لم تعطني مهرا، وحتى الشبكة قد تنازلت عنها، ولم أنل منها إلا ذلك الخاتم، خذه وحررني منك، فأنا لا أعيب عليك خلقا ولا دينًا، ولكن لا أشعر بأن علاقتنا ستثمر أسرة يوما ، يكفني ما سببته لي من فضائح ومشاكل، لولا أنني مازلت ممتنة لك، ما تركتك تفعل ما تفعله.

تعلم أني قادرة على إلغاء عقدك، وإنزالك إلى مصر، لكن ما يمنعني ما أكنه لك ولأسرتك من ود وقبله الرحمة.

- هل تهددينني؟

- لا، بالعكس، بل أحاول أن أتواصل معك بالعقل، وأنت تضيق علي الطرق، تحبسني في خانة البطر وأنا بريئة منه، أنا أحاول أن أتيح لك الفرصة لتعيش حياة تناسب طيبتك وتناسب قيمتك، أنت تستحق من هي أفضل مني، تستحق أن تعيش مع امرأة تمنحك الولد والبنت، وأنا يبدو أني عاجزة عن أن أمنحك ذلك

ومن قبله أن تمنحك السكينة، أدين لك بالاعتذار، وبما أنا فيه من حياة تمنيتها، أنت من منحها لي، وأنا لم أمنحك إلا الألم، أعتذر، أعتذر.

- وأنا لا أقبل اعتذارك، وسأتركك هكذا بلا طلاق أو زواج، بل وسأتزوج بأخرى حتى أكسر أنفك.

بلا رد، اكتفت أن زمت شفتيها ونحت نظرها عنه، يبدو أن كبرياء الرجل -الذي اعتاد أن يمنح ويمنع - عقدت القرار وصار مستحيلا أن تخرج من العلاقة بسهولة.

رنات على الجرس، تتوجه لفتح الباب، لتجد رجلين من أمن السفارة يسألانها:

- أستاذة! جئنا بتعليمات من السفارة ألا نتركك وحدك دون حراسة، وأن نبعد هذا الرجل عنك إن سبب لك أية مشاكل.

- لا، أبدا، لم يسبب لي أية مشاكل، لقد جاء فقط ليطمئن عليَّ ويأخذ بعض حاجاته، وهو سينصرف حالا، شكرا لك "شريف" على السؤال، وليتك تفكر فيما قلته لك.

يخرج "شريف" من شقتي، وقد جحظت عيناه، واشتد احمرارهما غضبا، شعرت من نظراته أنه لولا هذان الرجلان فربما كان قد قتلني.

الصفحة الخامسة والعشرون

لماذا نرفض أن نعمل معا؟ نحلم معا؟ لماذا نـُربى على الأنانية ورفض الآخر، ونشير دوما بأصبع واحدة نوجهه إلى ذواتنا؟! فنتساقط فرادى، ننهار فرادى، فلا بناء يقف شامخا، عاليا، متينا إلا بالجماعة، لن نرتفع إلا جماعة، لن نقوى إلا جماعة.

كان الحلم عظيما "الجامعة الإسلامية "، وكان المشاركون عظماء، ليأتي من يرفض أن يكمل حلما لم يكن يوما من صياغته، فيخلق حلمه، لتكون "الجامعه العربية"، أو "القومية العربية"، فيقص من حلمنا الكثير، ويضيق الحلم، وتضيق معه أحلام الكثيرين، يليه رافض جديد، وحالم بحلمه الخاص، وراكل لحلم سبق إليه غيره، فيضيق الحلم، وتتقزم معه الأمة إلى دويلات، تفتش وتنقب في الماضي عن حضارة تخصها دون الآخرى، دون حضارتها الحصرية فنسمع مفاهيم تصيب القلب والحلم: الفرعونية والآشورية والفنيقية والأمازيجية وننكمش.. نتقزم.. تقصر القامات، ويقصر معها الرداء والحلم والقوة، إلى أن ذبح الأمل، وصارت الوطنية لا تتعدى باب البيت، لنصعق بهاتف ينذر بعاصفة فانية، تقول: إن القادم حلم يقول حدود وطنيتك لن يخرج عن لباسك.

روايتي هذه هي من تقودني إلى أبطالها وأحداثها والعقدة التي لم أسع إلى خلقها، لها من الحرية والشخصية أن كتبتني ولم أكتبها، وصاغت الحكايات وأنصتت إلى "همت" و"عنود" لتجعل من هما ساردتين لأحداث روايتي."

***

الصفحة السادسة والعشرون

كنت أتنزه في (الشانزليزيه)، كانت صورتي معلقة بأحد الجدران الواسعة بجوار لوحات "رفائيلو" "سانزيو"، "مونيه" كلود اوسك"، "بيكاسو"، رامبرانت فان رين، سلفادور دالي، وفان جوخ، وآخرين، اندهشت، فأنا في بلد صغير، لايهتم كثيرا بذلك النوع من الفنون، وأنا مازلت هاوية، لم يعرف الإعلام عني شيئا.

كنت أحدث نفسي غير مصدقة ما أرى، ياله من حلم!!

عاودتني الرؤى بأخبار طيبة، جعلت من صباحاتي ضحكات وآمالاً لا تكف عن التوالد.

اليوم موعد "الأتيليه" الذي نظمته لي "همت" وشاركتنا في التنظيم "عنود"، وقد تم إقامته بأحد بيوت الثقافة الملحقة بالمركز الثقافي المصري باليمن.

كان يوما مختلفا وبراقا، وأجمل ما كان فيه: "همت" و"عنود" اللتان كانتا كما "البودي جاردز" أو السكرتيرات والمتحدثات باسمي، خرجت من الأتيليه وقد غمرتني السعادة والإحساس بالأمان والكثرة، فأنا لم أعد وحيدة ولا ناقصة الجسد ولا الإبداع، بل اكتملت بهما ومعهما، تمكنت "همت" من نزعي من الضيق، وخلعتني من تعلقي ب "مظهر"، فلم يعد

مركز تفكيري، ولا بؤرة سعادتي، لقد انشغلت بنفسي وإثبات ذاتي، ونجحت، وتمكنت من أن أكون أنا.

بعد انصراف الضيوف، جلسنا مع الموظفين والعمال، وغنيت لهم ورقصنا، هكذا رافقتني السعادة، وغادرني النقص، ولكن مازال بداخلي وجع اسمه "مظهر".

كانت "عنود" تتحسس أجواء سوريا والتفاف أسرتها التي رحلت دون مبرر إلا مبرر " سنة الحياة" أو دفع الناس بعضهم بعضا "وكأننا جئنا إلى هذه الدنيا لنعاني الموت.

طلبت مني أن أغني أغنية فيروزية تذكرها بالوطن، لتستدعي في قلبي رائحة سوريا الأرض التي جمعت جذورنا، ربما لم أعش بها، ولكنها نقلتني إليها، قصت علي خلال جلستنا المجازر التي نالت من أرضها، لأقتسم معها تلك الآلام، وأغني، لأرى دموع "عنود" تلمع كما ماسات طاهرة، أبكتني، بل بكينا ثلاثتنا .

غنيت "دار يادار" لوديع الصافي، وعندما وصلت لمقطع: "راحوا فين حبايب الدار" سمعت أنين "عنود" وبكاءها المكتوم.

كانت أوجاعنا تجمعنا وتقربنا، فبداخل كل منا وجع اسمه الوطن العظيم، والذي سقط ضعفا، فانهالت عليه السكاكين تعمل فيه تمزيقا.

كانت "عنود" قليلة الكلام، إلا حين تستدعي ذكريات أحبتها في سوريا، كانت تتحدث بلا انقطاع، تحاول أن تجتر تلك الأحداث، لعلها تستحضر أجواءها لتعوضها عن الحنين.

أما "همت" فاكتفت بالإنصات ومشاركتنا بالبكاء مرة وبالضحكات مرات.

كادت "همت" أن تتشابه مع "عنود" وتكتفي بذاتها، لقد علمت بعد أن توطدت علاقتنا أنها تعاني من مشاكل مع زوجها، وفي طريقها إلى الطلاق، وصدمتها في الزواج جعلتها تزهد في الرجال، وتتمسك بحريتها التي تقاتل لاستردادها - هكذا أعتقدت في أول علاقتنا - لذا آثرت وحدتها ونجاحها، وأقصت من حساباتها الرجل، فلم يشغل فكرها إلا النجاح والوصول إلى القمة، هكذا كان تصوري، لأكتشف فيما بعد أن "همت" و"عنود" كلتيهما كانتا تنتظران الحب وإن أختلف شكله.

***

الصفحة السابعة والعشرون

همت

الإحساس بأن عجلة التحكم في حياتك بيد شخص آخر، تثير بداخلي غضب وثورة، وأتحول في لحظتها إلى كائن مخيف، لايطاق، تتجسد على ملامح وجهه كل علامات الشر، خفت من نفسي أن أتحول في لحظة إلى قاتلة أو متسببة في جنون أحد أو انتحاره، فلقد سئمت العجز، كرهت "مصمصة" الشفاة شفقة بي، أو أن يصفني أحدهم بالمسكينة.

استجمعت شجاعتي، وأصررت على أن أواجه "شريف"، وأن أضع حلا نهائيا لعلاقتنا، إما أن تستمر كشريكين في غربة وشقة، أو لننفصل، ليبحث كل منا عما يكمله.

حاولت أن استحضر شخصية "همت" الممثلة التي تتقن أي دور، وحاولت أن أجتر السينما المصرية والهندية لعلي أقنعه بالانفصال، أو أن استفز فيه النخوة ويرمي اليمين، ولكن فشلت، أحسست أن "همت" اليوم ليست في حاجة لأن تحاكي شخصيات وهمية، "همت" الآن متفردة، متميزة، كونت شخصيتها، وبنتها، لتكون هرما في يوم ما.

" لا.. لن أمثل.. لن أكذب.. سأواجهه كهمت."

ظللت أطوف بالبيت والصالة بالطابق الأرضي، أحتسي فنجان قهوتي، وقد تعدت الساعة الثامنة مساء، إلى أن أحسست بخطوات تقترب من الباب، وتردد صاحبها في الضغط على الجرس، في محاولة لفتح الباب بالمفتاح، والتي باءت بالفشل، ليرن الجرس توجهت إلى الباب، فتحته ودعوته إلى الدخول بعد أن رحبت به وبيدي الفنجان.

دخل، ولم يلق السلام، أو حتى يرفع رأسه لينظر لي، باغته بالمساء

- مساء الخير

- اسمها السلام عليكم

- تمام .. السلام عليكم

- يبدو أنك قمت بتغيير الكالون.

- نعم، لقد كسره رجال المركز الثقافي، فكان لابد من تغييره.

- ألم تغيريه لمنعي عن البيت؟

- أكيد لا، على الرغم من أنك أخفتني، ولم أعد أشعر بالأمان بعد إهانتك لي .

- لماذا طلبت مني الحضور؟ ألست خائفة مني؟!

- لا، لم أعد خائفة، فقط قلقت عليك وأردت أن اطمئن عليك، فنحن لسنا أعداء، فأنت قبل أن تكون زوجي

كنت كما أخي، ولن انسى أن بين عائلتينا علاقات طويلة وودًا ورحمة. هل أحضر لك العشاء؟

- لا، تناولته، جزاك الله خيرا.

- تفضل لنجلس بالديوان ونتحدث، سأحضر لك كوب شاي.

كانت ملامح "شريف" ونبرة صوته تكشف عن لوعته وحنينه إلى بيته معها، وإلى صوتها ورائحتها، أخذ نفسا عميقا متجولا بعينيه في أجواء البيت، وكأنه يخزنه ليوم الفراق، جلس وفي داخله أمل أن تفصح "همت" عن ندمها وشوقها إليه وحنينها له.

عادت ممسكة بصينيه بها فنجان شاي، وصحن صغير به قطعة (كيك)، وضعتها أمامه، وجلست في الناحية المقابلة، تأملها، وقد شعر باختيارها مكانا بعيدا عنه أن أماله كانت خائبة، وأنها تضمُر بداخلها قرارا غادرا.

- شريف، نحن كبيران وناضجان ما يكفي لنحل مشاكلنا دون أن يتدخل غريب أو يعلم أحد بما يحدث تحت سقف بيتنا.

- أي بيت؟ أتقصدين ذلك الفندق الذي يجمعنا؟!

- تمام، الفندق الذي نعيش بين جوانبه، أيا كانت التسمية، فالناس هنا ينظرون إلينا كمصريين، كقدوة، وينظرون إلينا نظرة التلميذ لأستاذه، فلا يجوزأن نقلل من أنفسنا، ونفرج أهل البلد علينا، وما بها من

جنسيات مختلفة، لنجلس ونتفق، وسأنصت لك: ماذا تريد؟ وأنتظر أن تستمع إلي أيضا، لنصل إلى نقطة التقاء، مركز ننطلق منه لحياة جديدة..

- تمام، كلي آذان مصغية، سأنصت إليك تمام الإصغاء، تفضلي.

- شريف، أنا احلامي تتعدى البيت والأسرة، وأنت كل حلمك البيت والأولاد.

- لا تتحدثي على لساني، تكلمي عن نفسك فقط.

- أنا على استعداد أن أعيش معك أختا وصديقة، ولكن هناك فاصلا رغم عني لا أستطيع أن أتجاوزه، ربما لاني نشأت في بيت لم يشأ الله لي أن أرى تحت ظله زوجين، بل كان أبا فقط، فلم أعرف ما شكل الحياة بين زوجين، وبالتالي أشعر أنها غريبة على ثقافتي، يبدو أني أعاني خللا نفسيا، ما فأنا لا أشعر براحه في تخيلي زوجة وأمًا، لذا نستطيع أن نصل إلى حل يهدىء من حدة الصراع وفي الوقت ذاته يدخل على قلبك السعادة.

مارأيك أن تتزوج بأخرى؟

وأنا لن أعترض أن تحيا معنا هنا، لكما الدور العلوي ولي غرفتي بالدور الأرضي، مارأيك؟

- وهل أمامك عروسة تقترحينها علي؟

- نعم، إحدى الطالبات، كنت أعلمها اللغة الألمانية، اسمها "عائشة"، هي ليست من الأشراف، لذا فلن يكون هناك رفض من أهلها، بل بالعكس البنت تتمنى أن تتزوج من مصري، فالسينما جعلت الأجيال الحالية تتلهف على الرجل المصري والمرأة المصرية.

أنهت الثانوية، هي وحيدة أبيها، أمها متوفاة، من عائلة ميسورة الحال، أخوالها يعملون بالتجارة، وأغلبهم يسكنون المملكة.

- وكيف ستعرضين عليها الأمر؟

تحمست، وشعرت أن الخلاف بيننا صار باهتا، وأن الحياة ستبتسم لي، وينتهي الصراع بيننا، وأتفرغ أنا لعملي.

- دع ذلك لي.

- تمام، حددي موعدًا مع العائلة، وأنا سأذهب معك لرؤية الفتاة، وإذا راقت لي، سأتمم الزواج إن شاء الله، تصبحين على خير.

- "شريف" تستطيع أن تقضي الليلة هنا، فهذا بيتك، فالوقت متأخر.

- أشكرك على كرمك وحسن الضيافة.

كانت عودة "شريف" لبيته، والعيش معي، محاولة مني للتكفير عن ذنبي، وإيلامه في كبريائه، كنت قد

ذهبت لبيت صديقه الذي استضافه بعد أن تعهد أمام موظفي السفارة بعدم التعرض لي، ذهبت واعتذرت له، وطلبت منه الرجوع، وأن نبدأ حياة جديدة يسودها الاحترام، فما بيننا ليس زواجًا فقط، بل علاقة أسرية، وما بيننا من خلاف سينتقل أثره إلى أسرتينا، ولا شك أنه سيحزنهم.

قبل الرجوع، ولكن كانت توقعاته أكبر مما خططت له، ليتفاقم ما بيننا من خلافات، وصرنا كمن يسير على صفيح ساخن .

***

الصفحة الثامنة والعشرون

عائشة

- أستاذة "همت" أنا أحبك، ليس لأنك تختلفين عمن تعاملت معهم من معلمات فقط، ولا لأنك مصرية، بل لأنك تتعاملين معي كأخت لك، لاتتصنعين المشاعر، ولا تتنتظرين أية مصلحة منا، وبالطبع لن أنكر أنني عاشقة لمصر، وكم تمنيت، ومازال حلمي الأعظم أن أزور هذا البلد الطيب أهله، أسير على النيل، ألتقط صورا مع الفنانين والفنانات، أزور الأهرام والجامع الأزهر، وألتقي بنجيب محفوظ، ويحيى حقي، وألتقي بسعاد حسني، أنت محظوظة يا أستاذة لأنك ترينها يوميا.

- أنا لم أرها أصلا يا عائشة، هي في منطقة وأنا في منطقة بعيدة عنها تماما، القاهرة واسعة جدا.

- هل هذا معقول؟ ألم تلتق حتى بنبيلة عبيد؟

- لا، لم ألتق بها، ولا حتى رأيت أحدا من الكومبارس

- من هم الكومبارس أستاذة

أضحكتني تلك الفتاة النقية، التي سقطت من اليوتوبيا.

- الكومبارس هم هؤلاء المجاميع، الناس على هامش المشاهد، أقصد الذين يمشون أمام الممثلين كأنهم في

الشارع، يخلقون نوعا من الحياة الواقعية، كأنك فعلا في شارع أو محل أو كافيه.

- لنعد إلى موضوعنا.

- وما هو موضوعنا؟

- الحب أستاذة.

- آه، نعم كنا نتكلم عن أسباب حبك لي، لتكملي أيتها الثرثارة، وسوف أحتسب ذلك من فترة راحتك.

- رأيت نفسي وأنا أتمشى على شاطئ الإسكندرية وأنزل البحر بالبكيني

- البكيني مرة واحدة؟

- ألا تنزلين البحر بالبكيني، أستاذة؟

- أكيد لا، عيب عندنا وحرام.

- هل هناك عيب أيضا كما عندنا؟ لقد اختنقت من تلك القيود هنا لتلاحقني حتى في أحلامي في مصر؟

- الحرية معناها مختلف عن العري يا "عائشة"، الحرية شئ آخر تماما.

- وما هي الحرية استاذة؟

- الحرية هي منحة خلقت مع خلقنا، مرادفة للإنسانية، أنت إنسان إذن أنت حر..هي مسألة منطقية استنباطية.

- لا أفهم.

- الحرية هي ملزمة للاختيار، معنى أني حر هو أنا أختار، حتى لو كانت اختياراتي خطأ، وبالتالي تستلزم المسؤولية أن أتحمل نتاج اختياراتي.

غابت عائشة بأحلامها، وجسدها حاضر معي، وكأنها صدمت فيما أقول.

- عائشة !

- معك أستاذة، كلامك كبير وعظيم كما أنت، لنعد إلى الحب.

- لنعد إلى الحب، كلي آذان مصغية، تفضلي.

- أحبك في الله

- سمعت تلك الجملة كثيرًا، ولكن مازالت مبهمة بالنسبة لي، مامعنى قولكم "أحب فلانا في الله".

- أحب أخلاقك التي لا تتنافى مع معتقدي، ولا تعادي ديني.

- فهمت الآن، أنت تعلمينني أيضا ياعائشة.

- عفوا.. أستاذتي، ليتني كنت أختك، أو ابنة خالك أو عمك، أو حتى جارة لك، حتى أراك دائما وأبدا..

ابتسمت، وأغمضت عيني أسترجع معاناتي في المواصلات من وإلى الجامعة، والغضب الدائم على وجوه المصريين، حتى أننا نسينا أن نعبر عن حبنا لذوينا وأهالينا وأحبتنا.

تاهت الكلمات الجميلة تحت نير المعاناة اليومية.

- لقد شردت مني أستاذة، هل تحلمين وأنت يقظة مثلي؟

- نعم أحلم مثلك تماما، كلما التقيت بك عدت محملة بالتفاؤل والأمل أن الغد جميل لأن به فتيات مثلكن.

- هل تعرفين أستاذة أنني رفضت رجالا كثرًا في انتظار أن أرتبط بمصري؟

- لكني أعرف أنه صعب جدا زواج اليمنية بأي رجل غير يمني.

- هذا التحريم يخص بعض العائلات، وخاصة الأشراف منهم، ولكن أبي مختلف، فتنقله بين بلاد كثيرة أوربية وعربية جعلته متفتحا ومتحضرا، كما أني مواطنة عادية جدا من العامة، فالحمد لله على نعمة العوام.

وأطلقت ضحكة أبرزت غمازتيها وزادت من بهاء جمالها.

- هل أفشي لك سرًا يا "عائشة"؟

- عن جد ستأتمينني على سر لك؟

- إنه سر يخص المصريات جميعا.

وابتسمت واتسعت بسمتي، فلقد كانت صادقة، وأكملت:

- الرجل المصري لايختلف كثيرا عن أي رجل عربي، كلهم يحملون جينات واحدة تبدأ ب "أنا " وتنتهي ب "أنا".

كنت أحدثها وصورة "شريف" لاتغادر خيالي.

- ومصر بلد جميل جدا، وغني أيضا جدا، ولكن أهلها يعانون الغربة، ويعانون من قسوتها عليهم.

- رجاء أستاذة لا تشوهي الحلم الذي يبقيني حية.

- لن أشوهه، لكن اليمن بلد رائع، وله طبيعة خلابة، وأهله طيبون جدا، ولديكم ثروات، ولكن الجهل أخفاها، ليتهم يجرمون تجارة القات، وينزلون عقوبات قاسية على من يتاجرون به حتى يعود اليمنيون للزراعة والتجارة كما كانوا.

عامة يا "عائشة" الارض كروية، في دوران مستمر، وعسى مانراه مستحيلا أن يتجسد بين أصابعنا واقعا، أنا مثلا لم أكن أتصور أنني سأغار مصر، وأن أتي إلى اليمن أبدا.

- هل تعتقدين استاذة أنه سيتقدم لي؟

- من هو؟

- سأصدقك القول.. إنني بالفعل مرتبطة بمصري وقد وعدني بالزواج.

شعرت فجأة بالمسؤولية تجاه عائشة، وبالقلق عليها، فهي مختلفة ببراءتها وطيبتها ونقائها، فكان لابد أن اعرف من هو ذلك الرجل الذي يغامر بالحديث مع يمنية، ويلتقي بها وهوعلى علم بما قد يتعرض له من مشاكل إن انكشف أمره، وهل هوصادق في مشاعره تجاهها، أم يحاول أن يستغلها ويستغل سذاجتها؟

- هل تثقين فيَّ يا عائشة؟

- بالطبع، بلا أدنى خوف أو توجس.

- إذن احكي لي عن هذا الرجل، ظروفه، وأين، وكيف تعرفتِ عليه.

قصت علي كل شئ، وتركت بداخلي هاجسا أن هذا الرجل غير أمين، فهو متزوج، ولديه أطفال، ويعمل سائقا عند أسرة عائشة، وأحسست أنه يستغل مشاعرها حتى يستمر عقده مع عائلتها، ويحصل منها على راتب آخر إلى جانب راتبه من أبيها.

طلبت منها أن تحدد موعدا لكي ألتقي به ولاتخبره بأنني أنا التي ستلتقي به.

- لنعد الى حديثنا المهم يا "عائشة"، واتركي لي موضوع هذا الرجل، لا يجوز أن نعلق أحلامنا على كف أي إنسان إلا كفك أنت.

- لا أفهم أستاذة.

- أقصد أن الحلم مشروع بلا أي حد، ولكن يجب أن تحققي أنت أحلامك، بمجهودك أنت، وألا تعتمدي على أي إنسان ليحققه لك، كما أن الزواج ليس هو الحلم المثالي،غيري نوع الأحلام، احلمي أن تكوني معلمة ناجحة، أو كاتبة أو طبيبة أومهندسة أو حتى فنانة، فكرة الفارس الذي سيحقق لك أحلامك فكرة عقيمة، عتيقة لا تتناسب مع العصر.. أحلامك حققيها بنفسك.

ماذا لو أخذ الفارس حصانه بأحلامك الى الهاوية؟!

- كلامك صعب لم أعد أستوعبه.

- أقصد أنه من الحكمة أن نكون حريصين في الثقة بالآخرين، وألا نثق إلا في أنفسنا، سأضطر إلى أن أنهي هذه الحصة الآن، ولنا لقاءات، ولكن بعيدا عن حصص الألمانية، لأننا نضيع وقتا طويلا بلا تغطية للمنهج، سأحدد لك موعدا كل اسبوع نلتقي عند الطبيبة سهام.

- أرجو ذلك أستاذة حتى أجد فرصة للخروج من البيت ومن القيد.

- لا تتوقعي الكثير يا "عائشة"، فأنا سوف أستلمك من البيت، واسلمك بنفسي، هل تفهمين؟

- أوووف..

- ماذا؟

- لا شئ.. يكفي أنني سأكون معك.

- اتفقنا.. هيا قومي لتوصيلي إلى باب البيت ونادي على السائق.

تعجبت من نفسي، كيف خرجت هذه النصائح عني وأنا التي أرتكبت كل ما رفضته لعائشة، أفقت لأكتشف أنني اتخذت من "شريف" الفارس والحصان، لينتشلني من بيئتي، ويهرب بي إلى أرض جديدة، أزرع فيها أحلامي، استغللت "شريف"، وجعلت منه وسيلة لأحقق بها أحلامي وطموحاتي.

الفرق بيني وبين "عائشة" أنني اتخذت منه وسيلة أو الأرض التي أحلم عليها لأحقق ذاتي، أما عائشة فالفارس لديها هو القصد والغاية، تريد أن تهرب من عالم كبل حريتها، وألقى على رأسها ووجهها وجسدها بغطاء أسود، تتنفس قماشه، ولايجوز لها أن تتنفس الهواء إلا من خلاله، جعل من صوتها عورة، ومن أحلامها خطايا، قلص أحلامها إلى حلم أوحد، هو زوج.

تصورت أن مصر كما تراها في عالم الأفلام، أرضا للحرية والتحرر من كل القيود وخاصة غطاء وجهها.

يبدو أن لكل منا صحراؤه يخلق فيها "سرابه" أو "أمله"، يجعله يتشبث بالحياة، ويكمل الطريق ليظل حيا.

"عائشة" فتاة بيضاء اللون كما البلور الصافي، بعيون واسعة، ورموش غزيرة، تلتف شعيراتها حول نفسها لتمنح جفنيها كحلا ربانيا، أضفى سحرا على عينيها لا يقاوم.

كلما ابتسمت برزت غمازتيها لتجذب عيون من يراها إلى شفتيها الصغيرتين اللتين كانتا بلون الرمان.

عائشة كانت فتاة عربية كما تصورتها في أشعار المعلقات، تصورت أنها خرجت من تلك الخيمات وما زال قيس يفتش عنها، ولكن هذا الجمال سيظل مختفيا تحت تلك الأغطية السوداء، التي يسمونها (الشرشف).

كانت "عائشة" حين تتحدث تشبك كفيها، وكأنها تبتهل إلى السماء، وتقفز كما الأطفال، وتدور حول نفسها، وكأنها تستنجد بالسماء أن ترفعها على جناحي ملاك ويهبط بها إلى مصر.

كنت أتابع حركاتها في حب وعطف، ولاتفارقني ابتسامتي، أدعي الحكمة والرزانة أنا التي أكبرها بأربع سنوات فقط، لكنها تراني "مصرية"، مفهوم هذه الكلمة حملني الكثير من المسؤوليات لأكون كما تصورت.

لقد رسمت صورة لمصر والمرأة المصرية كبلت حريتي وحقي في الخطأ، وأثارت غيرتي في أن

أكتشف أن هناك خلف الحلم مصريًّا يتلاعب بها، وسوف يسئ إلى اسم مصر والمصريين جميعا.

جلست في السيارة المجهزة بفاصل زجاجي بيني وبين السائق، كنت أراقبه من خلف الزجاج، وأحاول أن ألتقط صورا أخزنها في ذاكرتي حتى أقرأ ما بداخله.

هبطت من السيارة، وحاولت أن ألتفت إليه، وأسترق بعض النظرات لعلني أصل إلى فكرة عنه.

***

الصفحة التاسعة والعشرون

التقيت بفارس أحلام "عائشة"، الذي حطت فوق كتفيه كل أثقال أحلامها، هو المثقل بأعباء أسرته وهموم جعلت منه كهلا، وهو الذي لم يتجاوز الثلاثين بعد.

دار بيننا حوار بدأته أنا:

- لقد قصت علي "عائشة" قصتكما معا، وقالت إنك تريد أن تتزوجها، ولكنك تتحين الفرصة المناسبة،وأنا سوف أذلل لك الصعاب، وساشفع لك عند أبيها، مارأيك ؟

سكت لحظات يتأمل الأرض، ثم ظل يتلفت يمنة ويسرة، وكأنه يستنجد بأحد ما لينقذه من مأزق عظيم.

- أستاذة، لقد سمعت عنك الكثير من "عائشة"، وأعرف كم أنت غالية عندها، وعند عائلتها، فأنت معلمتها الخاصة، وتعملين كمترجمة، وزوجك يعمل في التدريس، ولك علاقات كثيرة، رغم أنك مستجدة هنا.

- مستجدة؟

- أقصد أنه لم تمر سنوات عليك بهذا البلد.

- ماعلاقة ماتقوله بما أعرضه عليك؟

- قصدت أنك تتنعمين، ولن تفهمي ما أشعر به من قلق وخوف أن يستبدل بي والد "عائشة" سائقا هنديا أو بنجاليا أرخص في راتبه، أنا أستميت للحفاظ على لقمة عيشي من أجل اولادي وأمي، الراتب هنا ليس كراتب من يعمل في بلد خليجي، ولكنها الفرصة الوحيدة التي توفرت لي، ولابد أن أحافظ عليها.

- هل تستغل "عائشة"؟

- لا، أبدًا أقسم بالله، لقد أحببتها بالفعل، ولولا ظروفي ما تأخرت لحظة عن الارتباط بها، ولكني لا أحمل إلا شهادة الإعدادية، ودخلي يكفيني وأهلي بالعافية، فأين أنا منها؟!

- لماذا علقتها بك إذن؟

- لم أعدها بشئ، هي التي تصورت أنني نور الشريف في فيلم سواق الأتوبيس، السينما أكلت عقلها، توهمت أنني سأتمكن من خطفها، والسفربها إلى القاهرة، وأنني قادر على مواجهة أبيها، أنا عن نفسي لا أريد العودة إلى مصر، فلا عمل لي هناك، والمسؤوليات أغمتني.

ما أخذته منها من ريالات سوف أرده لها حين يرفع أبوها راتبي،ولكن ماذا أفعل يا أستاذة حتى أبعد تفكيرها عني، ولا أخسر وظيفتي؟

- أنا لن أعدك بشئ إلا بعد أن أصل إلى حل مناسب، ولكن كل ما أطلبه منك أن تحاول ألا تلتقي بها هذه الأيام حتى أرد عليك بحل

- وعد مني إن شاء الله يا أستاذة، أشكرك، وربنا يجزيك خيرا عني.

اتصلت بولي أمر طالبة عندي يعمل في المملكة السعودية، وحدثته عن "بيومي "، ووعدني بتوفير عقد عمل له بأسرع وقت.

اتصل بي "بيومي"، وأبلغني أنه حصل على عقد العمل، شاكرا لي، وأنه سيسافر بعد عدة أيام، وطلبت أنا منه بألا يخبر "عائشة" إلى أن يغادر صنعاء، وليترك لي أنا الأمر

غادر "بيومي" وترك رسالة كتبها إلى "عائشة" بخط وأسلوب كشفا عن بساطة تعليمه، وقدمت الخطاب لي، وهي تبكي:

- لقد تخلى عني ، نذل، ألقت بنفسها في حضني وبكت ثم رفعت رأسها وقالت:

والمصيبة أن خطه سئ، وأسلوبه ضعيف، وأخطاؤه النحوية كثيرة يا أستاذة.

أضحكتني، وضحكت هي أيضا، ثم أردفت قائلة:

- لن أكف عن حلم أن أزورمصر يوما، ويكفيني وجودك في حياتي يا أستاذة.

- أنهي دراستك بتفوق، واطلبي مقابل تفوقك أن يذهب بك أبوك في زيارة إلى مصر، أفضل من أن تغامري بحياتك كلها، والزواج من شخص قد يكون غير مناسب، لمجرد أنك تتمنين زيارة مصر، أليس ذلك أفضل؟

- بلى، سأفعل، أعدك.

هكذا تمكنت أن أسهم في حل مشكلة "عائشة" و"بيومي"، وتفوقت "عائشة"، ووعدها أبوها برحلة هي والعائلة إلى مصر.

وتوطدت العلاقة بين أسرتها وبيني، وزادت ثقتهم في، وأحسست بأنني نجحت في أن أحافظ على سر "عائشة"، وكذلك لم أقلل من شأن "بيومي" أمام من وثقت فيه وأحبته، فقد بررت لها سفره بحبه لها وخوفه عليها، وأنها تستحق رجلا يليق بها، أما هو فمسؤوليته ضخمة، وسوف يظلمها معه، بل وصفت لها حزنه على فراقها، وأنه أحبها حبا شديدا، لأني أدرك كم يكسر الخذلان النفس والروح!

وكان خطابه لا يختلف كثيرا عما قلته لها، وقد صاحب الخطاب ما قد اقترضه منها من ريالات،

حمدت الله أني لم اتعرض كمصرية لخيبة أمل، وخيبة الظن، وأن "بيومي" بالفعل كان ضحية مثلنا جميعا..

لم تنتهِ علاقتي ب"عائشة" حتى بعد توقفي عن الدروس الخاصة، وانتقالي إلى العمل في المركز الثقافي، بل كانوا أهلا لي وسندا ظل يناصرني عند كل ضيق.

***

الصفحة الثلاثون

هيلانة

جزء مني سوري، وجزء مغربي، وهوايا ونشأتي مصرية، كلما التقيت بـ "عنود" أنعشت سوريتي، وآثارت بداخلي الشجن والألم لما حل بسوريا.

أما "مظهر" فقوته واغترابه وما يبعثه من رسائل - متوارية خلف كل حديث مع من يجالس – بأنه فلسطيني، وطنه محتل، وأنه يجاهد، وسيظل يجاهد لأجل الوطن المحتل أثار بداخلي الكثير من التساؤلات عن كنه الوطن.

هل "مظهر" بالفعل موجوع بالقدس؟

هل يتمنى في قرارة نفسه أن يعود إليها؟

ومتى شعر بها كوطن له، وهو المولود في مصر، ونشأته وتاريخه بها؟

هل الوطن فكرة؟ أم هوأرض وأهل وثقافة وذكريات؟

السنة أربعة فصول، ثلاثمائة وستون وخمسة أيام، لكل فصل جو ومناخ مختلف بذكريات مختلفة، لحر الصيف ورائحته ذكريات ورائحة اليود المتصاعد من "اختلاط" ماء البحر والهواء ذكريات ومعانٍ.

للشتاء وصقيعه ومطره ذكريات، بل للخريف وتساقط ورقاته الجافة الصفراء معانٍ وذكريات مع أصحاب وقصة حب وضحكة ودمعات.

هل عاش "مظهر" تلك الذكريات إلا في مصر وعلى أرضها وبين شعبها؟!

فكيف هو شكل حنينه إلى فلسطين؟

وهل لو عاد يشعر بالأمان، هل يشعر أنه هو الوطن الذي طالما ناشد الإله أن يرده إليه؟

أم سيكتشف لحظتها أن هناك من نزع جذوره من مصر، ليحيا على أرض لا تحمل له أية ذكريات ولا أي عطر يفتقده؟

رغم ذلك، فأنا أسانده في سعيه ومعاركه، ليستعيد وطنا كان ملكا للأجداد، وتم اغتصابه وسرقته، واعتقلت فيه الأحلام لعقود طالت.

هل كان "مظهر" يتعامل مع النساء كتعامله مع وطنه الضائع؟

هل يحمل بداخله حنينا لامرأة ما، يفتش عنها في أحضان النساء المتعددة؟

وهل أنا بالنسبة له وطن مؤقت، بديل لوطن غائب؟

فيما يبدو أننا جميعا نحيا حياة افتراضية، نعوض بها غياب حياة تم سلبها منا في حمق وغياب عن الوعي.

لم يكتمل حمل لي لثلاث مرات، عانيت الإجهاض المتكرر، وكان لابد من فترة راحة طويلة حتى أستعيد فيها عافيتي، إعاقة أخرى أضيفت إلى سلسلة إعاقاتي.

كلما فتحت النقاش والشكوى من نواقصي أجد "عنود" و"همت" قد أحصيتا ما وهبه لي القدر من منح، مثل الصوت الجميل وموهبة الرسم والديكور والعزف.

هكذا تمكنتا من إبهاجي، ومن إعادة الامتنان للقدر والكف عن التذمر، إلا أنني تحملت كل النواقص إلا أن أحرم من حقي في ان أكون أما، أن أرى جزءا مني يتحرك حولي، ويحبني كما أنا بنقصي دون أن يعيرني، لا أحد يحبك كما أنت إلا أبواك وأبناؤك.

كان طلاقي من "مظهر" بعد أخر إجهاض، كنت في قمة عصبيتي وغضبي، وفجأة تضخم شعوري بالنقص وإحساسي بالغيرة عليه ومنه، ملأني الغضب والحقد، فكيف يستبيح خيانتي، ويتمتع بالحب والغزل من غيري من النساء، وأعيش أنا بين عجزي وتشوه ساقي، كيف يوزع القدر الحقوق؟

كيف يمنح مثل "مظهر" كل هذه الهبات ويمنع عني أهمها ألا وهي أمومتي؟

كيف يمنحه زوجة عاشقة له، مخلصة، تغفر له كما الآلهة؟ ويركلها هو بقدمه كما حشرة؟

لماذا قذف بقلبي حبه لأصير كما العبيد بين يديه، ويمنع عني "الكره "، لم أكن أصدق أنه سيأتي يوم أشعر فيه أن الحب ابتلاء، لايرفعه إلا من ألقى به في قلوبنا.

ليته ينزعه من قلبي، لأعذبه بقسوتي كما يتفنن هو بتعذيبي بخياناته المتكررة!!!

تم الطلاق، وجريت إلى "همت"، وألقيت بنفسي على كتفها وبكيت، لم أشعر بخجل من بكائي، وإظهار ضعفي في حضنها.

انتقلت للعيش معها لمدة أسبوع، حتى أجد بيتا لي وفرصة عمل باليمن، بعدها أخبر أسرتي بأمر الطلاق.

ترك "شريف" البيت لنا، وانتقل مؤقتا إلى بيت صديق له مصري، في الصباح استأذنت "همت" في الذهاب إلى عملها، بعد أن جهزت لي الإفطار غادرتني:

- "هيلانة" ! تصرفي كأنك في بيتك، لن أتاخر، سأحاول أن أعود مبكرا اليوم، قد أكون هنا بعد الثانية ظهرا.

فإذا بـ "مظهر" يأتي مصاحبا لـ "همت"، معتذرا ومتوسلا.

كنت كمن أصابها الانفصام، متبدلة السلوك، متقلبة الأحكام، تكذب ما تراه بعينيها وتختلق الحكايات.

بت لا أعي هل "مظهر" خانني؟ أم أنا التي أختلق الاتهامات له؟ شككت بنفسي وصرت كما المسحورة به ومنه، كلما مد يده أتبعه بلاوعي أو إرادة، هذا ماحدث، بمجرد أن ظهر أمامي، واعتذر، مددت يدي له، انصرفت معه عائدة، وكأنني سمكة بذاكرة واهنة وخياشيم تفتش عن مائها لكي تحيا.

نظرت لي "همت" وقد علت الابتسامة وجهها وعشرات الأسئلة على لسانها، ولكنها ابتلعتها جميعها، وباركت عودتنا، وطلبت منا الحضور غدا ببيتها للاحتفال بذلك الحدث، خرجت مع "مظهر" دون أن أودعها أو حتى أشكرها فلقد كنتُ مغيبة.

***

الصفحة الحادية والثلاثون

استيقظت من نومي، أتحسس فراشي بحثا عن "مظهر"، وجدت مكانه باردا، والفراش يئن من وحدتي، نهضت من فراشي أتجول في غرفة الفندق، ناديت عليه لعله بالحمام، لكن لا أثر له، هل غادر إلى أخرى؟ أم ربما استدعته السفارة، اتصلت بالاستقبال لإرسال الإفطار مع كوب من القهوة، قبل وصول الإفطار فوجئت بدخول "مظهر" ممسكا بشئ ما خلف ظهره وابتسامة تعلو وجهه..

- أين كنت؟ ولماذا خرجت باكرا هكذا؟

- كنت أستلم هدية أحضرتها لي إحداهن.

أطلق ضحكته، التي كان صداها يملأ الجو رجولة وقوة فارس:

- تفضلي ياعمري

أمسكت بعلبة من القطيفة الزرقاء، فتحتها، كان بها خاتم بفص ماسي:

- أشكرك "مظهر"، لكن أنا لا تعنيني المجوهرات، ربما لو منحتني لوحة أو باقة زهور تفوح منها رائحة النقاء والإخلاص أغلى عندي من المعادن، لكن أشكرك.

جلسا لتناول الافطار على موسيقى (خوليو اجلاسيس)

الصفحة الثانية والثلاثون

همت

انتقالي إلى اليمن ساعدني كثيرا في أن أعيش الحياة، وأندمج في التجربة والناس، وحجب عني التلفاز والسينما، وأقلعت عن الاستغراق في دور المتفرج فبرئت من الانفصام، وعولجت من حياة ليست لي تتنوع بتنوع الأبطال، تقريبا كنت مريضة أو مدمنة للمحاكاة، وأفقت من أحلام اليقظة، ولكن رغم أنني كنت أعيش حياة كاذبة وأحلامًا متتالية، إلا أنها أسهمت بشكل كبير في أن تدفعني إلى الخروج من شرنقة واقع ضيق جدًا، كاد أن يخنقني، وواقع كنت رافضة له، فلاشك أن أحلامنا، سواء منها التي تزورنا ونحن نيام، أو ونحن يقظون، هي كما السراب في وسط الصحراء، ألذي نسعى في استماتة لتذوق مائه، لري عطشنا إلى السعادة، وتحقيق طموحاتنا، ولولاه لاستسلمنا للواقع وما سعينا للأمام.

لحظة أن رأيته دق قلبي كطير نقار الخشب، لكنه ينقر بمنقاره جدران محبسه، في محاولة لأن ينطلق من الحبس.

كنت كلما قابلت "عنود" أجدها وحدها، لم أر أخاها ولا مرة، إلى أن رأيته تلك المرة، ليعصف بالهدوء

الذي أحاطني طويلا، ويصيب قلبي بالصخب، وجنون الشباب، حينها أدركت أنني ظلمت "شريف" وأنني لم أحبه يوما.

ترى هل أحببت "عدنان"؟ أم أنني عدت لأحلام اليقظة ثانية؟فالهاجس بداخلي مازال حاضرا، فلقد كنت وأنا طفلة في المرحلة الابتدائية أخلق حوارات رومانسية بيني وبين أحد زملاء الفصل، وأبكي وبعد مرور عدة أيام أشعر بالحب تجاه زميل آخر، وأصوغ حوارات عدة، تنتهي بأنني أضحي بحبي، لأن أبي رجل الأعمال الثري لن يقبل به، لأنتقل إلى حال أكثر تعقيدا عندما التحقت بالإعدادية والثانوية، فأحببت (مستر) صابر مدرس الرياضيات، ثم (مستر) جميل معلم الإنجليزية، وكنت مع كل أغنية استحضر صورته.

وبعد الانتهاء من المرحلة الثانوية والالتحاق بالجامعة، شفيت تماما من كل تلك التجارب المتخيلة والمختلقة، والتي صغت منها روايات وأشعارا وقصصا، مزقتها بعد الخطبة من شريف، فلقد صرت أنتمي إلى شخص ما، ولابد أن أحذف تلك المرحلة من حياتي، ويبدو من تعدد مرات الحب أني صرت أشك أنني بالفعل أحب.

ولكن، أنا بالفعل أحب "عدنان"، وما قبله كان وهما ومابعده لن يُخلق.

ها أنا ذا أختبر إحساس الحب الحقيقي لأول مرة، هذا ما قالته لي "هيلانة"، حينما حدثتها عن الارتباك

الذي أصابني حين التقيت بـ"عدنان"، وأدركت -أنا - عندئذ أنه لابد من انفصالي عن شريف، كنت في أمان ما دمت لم ألتق بالحب، لم أكن لأخونه حتى بالفكر، إلى أن التقيت "عدنان"، أدركت أنني سأصاب بداء الخيانة، فلقد دق قلبي، وأنا زوجة، فالأكرم لي، والأكثر شرفا، أن أبتعد عنه، لعله يلتقي بحبه، ويتركني لعلي ألتقي بحبي.

رغم أننا اتفقنا على الانفصال حين عودتنا إلى القاهرة، إلا أنني واريت مشاعري، لتكمن في إحدى غرفات قلبي إلى حين، فلا حق لي في أن أحب وأنا مازلت في عصمة زوج، ومنعت نفسي من أية فرصة لرؤية "عدنان"، على الرغم من أنني لم أتيقن أبدا من إحساسه نحوي، ولم تتح لي الفرصة لنقاش ذلك حتى بيني وبين نفسي، فكل القصص لابد أن تِؤجل إلى أجل غير مسمى.

بدأت أنظر إلى نفسي في المرآة، أهتم بزينتي، أنسق شعري، وأنتقي من الملابس ما يشعرني بأنوثتي، وحين ألقي بالوشاح على رأسي، أزحزحه إلى الخلف، حتى تستبين بضع شعرات من رأسي، معلنة عن خصلات سوداء ناعمة، وحين أخط بالكحل عيني، كأنني أضع خطا بل خطين تحت عبارة مهمة تقول: عيناي سوداوان بلون النيل ليلا، واسعه بحجم اتساعه، بعمقه وغموضه.

وحين أضع حزاما حول خصري، فأنا أضع مقياسا لأي عين، تدرك أنني أتمتع بخصر نحيل، وجسد ملفوف، يكتظ بالأنوثة.

هناك صوت خجل خافت بداخلي ينادي: أي "عدنان" ألن تأتي؟!

ليصارعه صوت ذو نبرة حادة واثقة: كفي عن العبث، ولا تخطي خطوة خارج عن سياج حد عقد سماوي بينك وبين شريف.

هكذا أعود لأتقوقع داخل قصري المهجور وحلمي المؤجل.

أنصرفت بكامل عقلي وفكري إلى عملي، وأغرقت أيامي في السفر والقراءة والترجمة، فلم يعد هناك متسع من مسافة أو ثوان للتفكير لا في "شريف" ولا في غيره.

ظل "عدنان" و"شريف" فكرتين تتناوبان عقلي عند النوم فقط، وظل سينما وصوت ماكينة تشغيل الفيلم تقرع في رأسي،وقد تداخلت حوارات الفنانين فأمست كما شجارات بين ديوك في عشة تربية دواجن.

***

الصفحة الثالثة الثلاثون

موعد سفري مع بيت الأحمر إلى ألمانيا الشرقية قد اقترب، أعددت حقيبتي، وذهبت لألتقي بـ "عنود" و"هيلانة" قبل السفر، تجمعنا في بيت إحدى الصديقات، وطبيبة النساء المصرية الوحيدة في شارعنا، والتي كانت منحة أهداها لي "شريف"، ليغرقني بأفضاله، وكانت من أجمل الهدايا.

تلك السيدة التي كانت تشملني بحبها واهتمامها، وكأن القدر أراد أن يعوضني عن أمي التي فارقتني باكرا، فلم أشبع بحضنها، ولم أختزن رائحتها في صدري، كنت ألحظ نظراتها العطوف وكلماتها المهونة والملطفة لمعاناتي، كانت ممتلئة القوام، طويلة، لا تفارقها الابتسامة، لديها من البنات سبع، تعيش في بيت واسع، مرتب، بحديقة جميلة، أقرب إلى الفيلا، وكانت هناك حجرتان وصالة واسعة مستقلتان عن باقي البيت اتخذتها عيادة: غرفة للولادة، وغرفة للكشف، والصالة للانتظار، وأحيانا جزء من الحديقة، تعمل لديها سيدة يمنية تقوم بدور الممرضة والسكرتيرة، بل وأحيانا المربية للفتاة الصغيرة التي أتمت عامها الثاني.."آسيا "

جلسنا في الحديقة ثلاثتنا، ومعنا الطبيبة "سهام"، وأحضرت السيدة اليمنية "أروى" القهوة، ومعها

التمر وقطع من حلوى "بنت الصحن"، وجلسنا نضحك ونتكلم بلا حظر أو قلق عن كل ما نعانيه من الحياة والرجال، لأسأل أنا عن الحب، يسكت الجميع، وكأن كل واحدة تفتش في مخزونها الثقافي وخازنة الذكريات عن معنى تلك الكلمة، أو عن تجربة تحمل هذا العنوان، لنتنهد معا في وقت واحد، تبدأ الطبيبة "سهام" في الحديث:

- أعتقد أن كلمة حب غير دقيقة، بل واسعة وممطوطة، حتى أنها تستوعب الكثير من المشاعر التي تضل هذا التعريف، لكنَّ في أيات القرآن ذكر كلمتين: المودة والرحمة، فكلتاهما أكثر عمرا من تلك الكلمة، التي لم يتمكن أي عالم أو حكيم من وضع تعريف جامع مانع لها، وترجمها الغرب إلى العلاقة الجسدية بين ذكر وأنثى، فصارت مرادفًا للعلاقة السريرية..

فأنا أعيش الود والتراحم مع زوجي وبناتي ومريضاتي، بل والحيوانات التي تعج بها حديقتنا، لذا فلا تململ ولا تأفف ولا تمرد بيننا، هو يعلم أنني لست مكتملة، فلي عيوبي ونواقصي، ويحترمها ويتقبلها، وأنا أعلم عيوبه ونواقصه، وألتمس له العذر فيها، فهو إنسان وأنا إنسان، لذا فهناك سلام بيننا، لا تناحر ولا صراع بل تكامل، يكمل ما ينقصني وأكمل ما ينقصه، لا حرب بل الرحمة والود.

لكن إن كان السؤال عن تعريف الحب، الذي يقدمونه لنا في السينما وفي الروايات، أو في الأساطير المروية، فلن نعيش السعادة أبدا، فالنفس بطبيعتها ملولة، وهلوعة.

أما "عنود" فكانت أكثرنا صمتا، ومراقبة لما يظهر أمامها من تعبيرات على وجوهنا، وتنهيدات تخرج من صدورنا، ولم تشارك في التساؤل أو الحديث إلا بالتلفت هنا وهناك.

كانت أكثرنا لهفة لمعرفة معنى كلمة الحب هي "هيلانة"، التي كانت تعيش تجربتها وكأنها تحت تعويذة سحر ألقاها عليها "مظهر"، كانت دائمة السؤال عن معنى تلك الكلمة، وما ستجره عليها من أوجاع ومن متعة، لتقطع حديث "سهام" وتكمل هي:

- الحب كما السحر، يغيب تحت تأثيره العقل والمنطق، تختفي حين حضوره الحكمة، فالمحب يعيش الجنون، ويختبر الانحراف، الانحراف عن العادة وعن القيم وعما يجب أن يكون، الحب يقلب حياتنا، يحيل الليل نهارًا والنهار ليلا، يبكينا ونحن في قمة النشوة، ويضحكنا حين نكون حزانى، إنه انقلاب للنظام.

حين أسمع صوت "مظهر" أتحرك كما المسحورة، ألبي نداءه كما الأمة، أقسم إنني لن أطيعه، فلا أبر قسمي، فأبدو كاذبة، أشعر كأني أم فطر قلبها على أن

يكون تابعا أمينا لأبنائها، فلا حرية لها في أن تكرههم، ولا أن تشفى من تعلقها بهم، أتحدث عن مشاعر الأم رغم أنني حرمت أن أكون أما.

كم تمنيت أن أبرأ من تعلقي بـ "مظهر"، دعوت الله أن يلقي في قلبي كراهيته، ولكن هيها!!

لطالما تصورت أنني سأتحول يوما إلى "عشتار" القادرة، حرة القرار، التي تروض تموز.

تمنيت أن أكون في جمالها وقدراتها، وأتمكن من ترويض "مظهر"، إلا أنني فشلت حتى في ترويض نفسي، أنا من تحتاج أن تروض وليس "مظهر"، فهو متصالح مع نفسه، يتصرف بتلقائية وحرية، إن أرادني مد يده إلى فألبي، إن أراد أن يسافر فلا أحد يمنعه، إن أراد امرأة جميلة سعى إليها وتملكها، يعيش كما يتمنى، ويسخر كل ماحوله لتحقيق رغباته.

كنت أتامل كلمات "هيلانة"، ودمعات خانتني، لتنزلق على خدي، وقد أصابتني الغيرة منها، فرحت أغبطها على أنها تعيش الحب، وأنها تتذوق حبيبها، تلمسه، تشم أنفاسه، تستوطن حضنه، أما أنا، فلقد كتب علي أن أناصف بيتي مع غريب، أشارك حياتي وفراشي مع رجل لا أطيق ملمس ردائه لملابسي، ولا رائحته، ولا عاداته في الأكل او النوم، كل ما يصدر عنه من قول أو فعل يصيبني بالغثيان.

هي تتلوى ألما من الحب، وأنا أتلوى ألما لحرماني منه.

تذكرت فجأة أنني طالما عشت حياة لا أرغب فيها، فإلى متى سأظل أرضى بما هو مفروض علي؟ إلى متى سأظل راضخة ليد تحركني كما عرائس الماريونيت..

إلى متى سأظل أحلم عند النوم وعند اليقظة؟

هناك كلمة " لا " كما هناك كلمة "نعم "

أحتاج فعلا الشجاعة لتغيير واقعي، ولاشك أنني ساغيره، فقط أحتاج الوقت المناسب.

يقطع استرسال حواراتنا دخول "أروى" وهي تحمل آسيا ابنة "سهام" وفمها ملوث بالطين، تسألها سهام:

- ما الامر؟ ماذا فعلت آسيا ؟

ترد "أروى":

- لقد أمسكت بها تتناول طين الحديقة.

ضحكت "سهام"، ولم يصدر منها أي تصرف ينم عن الخوف أو القلق، ولم تتحرك من مكانها فقط طلبت من "أروى" أن تغسل فمها، وتتركها لتواصل اللعب.

- لكن يا دكتور البنت سوف تصاب بالديدان من التلوث.

- لا لن يصيبها شئ "فالله خير حافظ"، أنا أمنح وقتي كله لخدمة الناس، أمنح المريضات يومي بالكامل، ولم أرد مريضة جاءت بالنهار أو الليل، والله أكثر منا رحمة وكرما.

"أروى"، اغسلي فمها، وأعطها ملعقة من المطهر المعوي فقط.

تتوجه د. "سهام" إلى "عنود" بالسؤال عن رأيها في الحب؟

"عنود" :

- الحب هو الأمان، البيت، ولكن لا أمان ولا بيت، فعلاقتنا كلها بالأشياء والأفراد مِؤقتة، لاتدوم، هناك اسم قانوني له هو "حق الأنتفاع "، لا تملك ولا تمليك،وكأننا نؤجر الأماكن والبشر، ومفهوم حب التملك مفهوم غير واقعي ولايليق بالقدر، لاتأمن للقدر، نحن كما السائح في هذه الدنيا، وأكبر دليل على صدق ما أقول هو نحن كسوريين، كانت لنا أرض وضيعة وبيت وجيران، وفي صبيحة يوم راح كل شئ، وصرنا لاجئين، كنا نثق في الحياة، كنا ننام مطمئنين ـ فنحن في بلدنا بين أهلينا ـ لتتحقق الآيات، فتنقلب الحياة في غمضة عين.

فجأة تنقطع جمل "عنود"، ونرى الدموع تنزلق من عينيها، وقد ضمت كفها، وأسندت به فمها كأنها توقف

الصراخ أن يخرج من حنجرتها، وهي تجز على ضروسها .

بعد دقائق استكملت قائلة :

- أنا لم أنس، ولن أنسى، المذبحة التي راح ضحيتها أهلي وجيراني، لكنهم شهداء راحوا إلى عالم أنقى وأعدل، أعيش في كوابيس عن أخي المعتقل، ويرافق أحلامي صورة الحرب والقنابل واللون الأحمر الذي أراه لون الموت، ليت الشعور بالأمان وحضن أمي يعود لي، ليتني أكتشف أنني أحلم بكابوس، أما الحب بين الرجل والمرأة فهي فكرة ماتت تحت القصف.

أعتذر أن حولت سهرتكم إلى الحديث عن الموت، أريد أن أعود إلى "عدنان"، فهو وحده بالبيت، وأخشى عليه.

كنا نتأمل "عنود"، ونحتضنها بعيوننا، نتألم لألمها وغربتها، ونهضنا جميعا لننصرف معها، وإيصالها إلى بيتها، لقد توقفت الحياة عند "عنود" في ذلك اليوم الذي ذبحت فيه أسرتها، بل وجيرانها وأهل شارعها، وكأنها مجبرة على أن تواصل الحياة، لولا أنها تصدق في أن الانتحار حرام لكانت لحقت بأسرتها منذ سنوات، ولكن لها مع الحياة مواعيد لن تخلفها، ولها مع أخيها "عدنان" رسالة لن تتخلى عنها، وأمل في أن يجتمع الشمل مع أخيها المعتقل في يوم ما.

استأذنا في الانصراف حتى لا نعطلها عن موعد عيادتها، شكرتنا على اللقاء، والحديث الشيق، وحددت معنا موعدا للقاء أخر في نهاية الأسبوع، أخذت بيدي، وانزوت بي جانبا، وسألتني عن حالتي الصحية، أخبرتها أننا نستعد للانفصال، فلم يعد هناك داع لتناول الأدوية التي كتبتها لي.

قالت : سنتحدث معا في وقت لاحق، سوف أتصل بك لنحدد موعد معا، أنا وأنت فقط.

شكرتها، واحتضنتها، ثم أنصرفت مع "عنود" و"هيلانة".

توجهت دكتورة "سهام" إلى "عنود" قائلة :

- عسى أن تكرهوا شيئا، ويجعل الله فيه خيرا كثيرا، لولا الحرب لما التقينا بك، وما صرنا أسرة من بلدان مختلفة، فيعلم الله أنني أشعر أنكن أخواتي، سأحاول أن أجد طريقة نطمئن من خلالها على أخيك المعتقل، اتركي لي هنا الاسم والمعتقل الذي نقلوه إليه.

وناولتها (نوت بوك) كتبت فيه بيانات أخيها، وشكرت د. "سهام" واحتضنتها، ثم انصرفنا.

***

الصفحة الرابعة والثلاثون

- "هيلانة" ،طالت فترة وجودك باليمن، وأنا أنهيت مهامي، ولابد أن أعود إلى مصر، فهناك ينتظرني الكثير من المشاغل بالمنظمة، ولن أشعر براحة إن تركتك هنا بمفردك، فهذا لايجوز، وحتى إن وافقت أسرتك لن تستريح لفكرة عودتي دونك.

- مازالت هناك الكثير من الأنشطة والمعارض ستقام لي هنا نظمتها "همت" و"عنود"، وليس من اللائق أن أتركهما وأعود، لتسافر أنت، وسألحق بك بمجرد انتهائي من تلك المعارض.

- صار سهلا أن تعيشي بعيدا عني يا "هيلانة".. وصارت كلمة "غادر وحدك" تسيل من لسانك كما تبصقين قشر اللب، كنت لا تستطيعين أن تعيشي بعيدا عن ذراعي.

- نظل معلقين بمن نحب كما ارتباط الرضيع بحضن أمه ورائحتها، حتى ننضج بفعل الزمن والخبرات، فنكتشف أنه لا أمان إلا في التخلي.

- التخلي؟!

- نعم، لابد أن نكون قادرين على تقبل فكرة الفراق، وأن نتعايش معها، وأن نتقبل فكرة أن للآخر الحق بأن يعيش حرا فلا نكون عبئا عليه.

- وهل أنت عبء يا "هيلانة"؟

- طبعا عبء، بإعاقتي عبء، بشكلي غير الجميل عبء، بعجزي أن أمنحك الابن عبء.

أحتاج إلى أن أجد نفسي، أن أفتش عن كينونتي حتى لا أضيع إن غبت عني، إن فارقتني بطلاق أو بخيانة، أحتاج أن أجد عكازا أستند عليه ليحميني من السقوط، إن صحوت يوما على وسادتي خالية من رأسك ،ومن خزانتي التي غادرتها ملابسك، ومن صدري الذي خلا من عطرك، أريد أن أعتاد غيابك، أن أتمرس على أن أشم الهواء بلا رائحتك، أريد أن أفطم من عادة مشاركة القهوة معك.

تختنق بالبكاء، تحاول أن تسكت أو تقطع نحيبها، تفشل، يسرع إليها، يحتضنها، ويمسح عن وجهها الدموع، ويربت على كتفها، تبعده عنها، وتجري إلى غرفتها، وهي تسب نفسها، وتضرب وجهها، معنفة ضعفها وعشقها له.

جلست على الارض تبكي، تحدث نفسها موبخة لها:

- لماذا تبكين؟ لماذا لاتكفين عن ضعفك تجاهه؟ متى ستصلبين طولك وتقفين شامخة دونه؟ قد أكدت له أنك لن تعيشي دونه، وله الحق أن يهينك، ويخونك ما دمت تعودين إليه دوما، حتى دون عتاب أو عقاب .

يقف على الباب:

- "هيلانة" ارحمي نفسك حبيبتي وارحميني، رفقا بك وبي، أقسم إني أحبك، وإن حياتي لم تبدأ إلا بعد أن التقيت بك، هناك بركن "عشتار" في مطعم أبيك، أنت حياتي، أنت الوطن، أنت وفلسطين وجعي وحبي.

فتح الباب، وأخذها بين أحضانه، وأطفأ النور، وغابا في ليلة عشق جديدة

رأيت "همت" تسير في الطريق مرتدية فستان زفاف به بقع وبلا أكمام، رأسها عار من طرحة العروس، كانت تفتش عن مكان تختبئ به من عيون الناس، بدا على وجهها الحزن، الخوف، كانت وحيدة.

صحوت من نومي، وقد أصابني الضيق من تلك الرؤى التي حولتني إلى كائن فقد الشغف بالغد، ويخشى أن يراه الآخر، كأنني بومة تتنبأ دوما بالأخبار السيئة.

ماذا بقلب "همت"؟! ما الذي يخيفها؟ ولماذا يرتديها الحزن دوما؟

احتفظت بتلك الرؤية وكتمتها، فضلت أن أراقب "همت" وأمنحها نصيحتي إن تعثرت، أو اختنقت من زوجها، فالرؤية تقول إن "شريف" نقطة ضعفها، وسبب حزنها، وإنه أبدا لن يكون سندا لها أو حاميا. بل قد تتعرض لفضيحة ما على يده.

***

الصفحة الخامسة والثلاثون

كانت صدفة غيرت من حياتنا حين اجتمعنا بفيلا د. "سهام"، وغنت "هيلانة"، وألقيت قصيدة، ثم عزفت "هيلانة" و"عنود"، "هيلانة" عزفت على العود الذي يخص ابنة د. "سهام" و"عنود" ضربت على الطاولة، ثم وعدتنا د. "سهام" أن تأتي لنا بطبلة لتضرب "عنود" عليها.

صرنا نجتمع الخميس الأول من كل شهر، ما دمت لست مرتبطة بمهام بالسفارة، دون تخطيط، حتى صار موعدا ثابتا بيننا، بدأت أنظم الليلة، وأسمينا اللقاء بصالون " الحرائر".

نسقت سير الفقرات، وأخذت شكلا منظما، وبدأت في وضع قائمة الضيوف، وكلهن من النساء، وكن يتهافتن على الحضور، فاضطررت إلى أن أنتقي عددا محددا، حتى لا نسبب إزعاجا لبيت د. "سهام"، وصار لقاء الخميس الأخير من الشهر مضرب بيوت اليمن، وصارت النساء يتلهفن على طريقة للحضور الدائم، فاقترحت عليهن أن يتم عمل الصالون بمكان مختلف كل شهر.

كنا نلتقي في البداية كل شهر، إلى أن راقت لنا الفكرة، وصار اللقاء مرتين في الشهر، فتنقلنا بين بيتي ثم بيت "عنود" ثم فيلا "سهام"، وانضمت إلينا عائلات كبيرة

بصنعاء، فصرنا نتنقل، وكان ضروريا أن يتم التواصل مع الأعضاء والضيوف، فطبعت مجلة بالمشاركة مع عائشة، للإعلان عن الفقرات، ومكان انعقاد الصالون وأسماء المطربات والشواعر اللائي سيحضرن، أو موعد أتيليه الرسوم، ومن سيتم عرض رسومه، وكانت "عائشة" المسؤولة عن تنسيق الأتيليه، واختيار اسم الفنانة ويوم العرض، كانت "هيلانة" عضو مهما ما دامت باليمن، كنت أرى عينيها تتبعاني بنظرات حانية تحمل كل معاني الحب والرحمة، وتتخلل تلك النظرات جمل مبهمة لا تريد أن تفصح عنها..

- ما الأمر "هيلانة"؟ نظراتك تقول إنني سأموت غدا.

- أبعد الله عنك الشر "همت"، العمر الطويل، فقط أشفق عليك من المجهود الذي تبذلينه، طوال النهار تعملين بالمركز، وبعده تنظمين المعارض لي، وتعدين للصالون.

- عندي فائض من الوقت، أنا أجد نفسي بين أحبتي، وأستمتع بالنجاح، واجتياز العوائق.

- والبيت؟!

- البيت؟ موجود، وهو الذي يمدني بالطاقة لاستكمال أحلامي.

كانت تكذب، أوربما كانت صادقة، وكانت تعني أنه لولا الطاقة الطاردة لها من البيت لما نجحت في حياتها العملية.

واصلنا التنظيم، وكنت استرق بعض النظرات التي تطلب الاطمئنان على "همت".

- ليتني أستطيع أن أنتقل للعيش معكن هنا باليمن، لكن للاسف "مظهر" لا يستطيع أن يبتعد طويلا عن مصر، فعمله وأصحابه هناك، وأسرتي أنا أيضا أفتقد أمي وأخواتي وخاصة "ميريت ".

- لاتحزني، ربما نتمكن من أن نفتتح فرعا للصالون في مصر يوما ما، فأنا لن أعيش العمر كله هنا، رغم أنني أعشق صنعاء واليمن، لكن العودة إلى الوطن حتمية.

وضعنا صندوقا نضع به ريالات لكي نصرف منها على المعارض التي نقيمها شهريا، وعلى ما يتم تقديمه من مأكولات ومشروبات، وتحمس "عائشة" ونفوذ أبيها أسهم في تذليل العقبات، وتسهيل الإجراءات الأمنية، وحماية الصالون، ليعظم الحلم فلم يتوقف عن موعد ترفيهي، بل صار هدفا قوميا نسعى إلى تحقيقه، لتصير الفكرة مؤسسة كبيرة في المستقبل، نطبع فيها كتبا لصاحبات المواهب في الشعر أو الأدب، ومن لا تستطيع أن تنفق على تلك

المطبوعات، ونفتح بابا لمؤسسة ستكبر يوما، ويصير لها اسم ثم جائزة باسم "بلقيس".

اتسع الحلم، وتمدد ليشغل تفكيرنا جميعا، نظرت إلى "هيلانة" و"عنود" و"سهام" و"عائشة"، وبسمة لم نخطط لها نبتت فوق شفاهنا، فالآن هناك حلم جديد يجمعنا، ومادام الليل عفيا، والأحلام ضيف مقيم في قلوبنا، فالغد سيظل قائما، عفيا.

كنا في ليلة الخميس نجتمع، حيث ننسى كل مشاكلنا، وننغمس في سماع الغناء، والشعر، بل وكنا نقوم بإخراج فقرات كوميدية، أحيانا تأخذ شكل مشهد "مونولوج"، تؤديه فنانة بمفردها، وأحيانا يكون مشهدا "ديالوج"، تتشارك فيه فتاتان أو أكثر، قد يناقش المشهد مشكلة أسرية: امرأة متسلطة مثلا، أو خيانة زوج، أو سخرية من المشهد العربي سياسيا، كنا نتشارك "هيلانة" وأنا في ترجمة بعض الأعمال العالمية، ونقوم بإخراجها في شكل عمل مسرحي قصير، لنكتشف أن بداخل كل فتاة يمنية موهبة تفوق الظاهر منها، هناك من ترسم وتنسق الديكورات، ومن تصمم الملابس، ومن بداخلها موهبة التمثيل، وكتابة الشعر، وتأليف القصة، كانت الموارد تتدفق، وإمكاناتنا أفقر من أن تحتضن كل تلك المواهب، لنجتمع كل شهر لمناقشة الاقتراحات لكي ننجح في مساندة كل تلك المواهب.

نعمنا في تلك الفترة بقدر عظيم من الحرية، وكان المناخ مهيأ وخصبا لكل أنواع الإبداع.

هذا لايمنع من أن نعترف بأننا واجهنا الكثير من الشكوك والاتهامات، فلقد كان اليمن بلدًا محافظًا، وقيود تلف الفتيات في شرشف أسود، والكثير من المحرمات والممنوعات.

لأجد شكاوى في المركز الثقافي تتهمني بتحريض الفتيات على الغناء والتمثيل.

ويتم استدعائي، وتوبيخ وجه لي من لجنة التحقيقات، وتوصية بأن أتوقف عن إقامة الصالون، أو أن يتم ترحيلي، أخضع لتلك التوصيات، وأخبر د. "سهام" و"عنود" بما حدث، وتعلم "عائشة"، وتتجه إلى أبيها باكية، وهي وحيدته، فيرضخ لطلبها، ويتواصل مع المركز الثقافي، والذي يستدعيني، ويعلمني بإلغاء التوصيات القديمة، ولكن ضرورة أن أراعي العادات والتقاليد اليمنية، حتى لا أجلب لنفسي المشاكل، ليعود الصالون بعد توقف قصير، ونسترد حريتنا في الحلم والإبداع.

- هل نخرج من الكلام في السياسة التي لا نفهم بواطنها ونعد إلى الفن؟

- معك حق، نحن لا نفهم شيئا، لنعد إلى الغناء والشعر، فالسياسة تفرقنا ولا يجمعنا إلا الفن والثقافة التي لا دين ولا وطن لهما.

***

الصفحة السادسة والثلاثون

كانت زياراتي لبيت "عنود" نادرة، كنت أتهرب من أية مصادفة تتعثر فيها عيناي بعينيه، ذلك الإنسان الغامض، الذي أخذ بناصية قلبي، وألقى بها في غياهب الحنين، كان كلما جمعنا مكان ينظر إلي في خجل، ويلقي بالتحية وينصرف، ويترك لنا البيت متحججا بعمل لابد من أن ينجزه، إلى أن ربطنا موعد غير متفقين عليه، كانت "عنود" تعاني من أنفلونزا حادة، جعلتها لا تغادر الفراش لأكثر من أسبوع، وخلا الصالون منها، فتركت فراغا لم تتمكن واحدة منا من شغله، وشعرنا بفقدها، كانت د. "سهام" منشغلة ولا تستطيع أن تتخلى عن عيادتها الجمعة، فهي قد استبدلت بيوم الإجازة الخميس لكي تتفرغ للصالون، و"هيلانة" كانت في حالة نفسية سيئة لاقتراب موعد سفر زوجها، فتركتها تنعم بصحبته، واتصلت بـ "عنود"، وأخبرتها بمجيئي لزيارتها.

فتح الباب لي، وأشار إلى حجرة "عنود"، وصحبني إليها، ثم أتجه إلى المطبخ ليقدم لي واجب الضيافة ومشروبا سوريا قام بإعداده بنفسه اسمه "المتة".

اضطررت إلى مجاملته، وشكرنه على ذلك المشروب المستساغ الطعم، وعرضت عليه أن يتركني أعد له مشروبا خاصا يوما ما، نقوم بتقديمه في سبوع

الطفل، وهو المغات، والذي يقترب من المتة، فقال إنه سمع به، وهناك بعض البيوت في سوريا تقدمه في المناسبة نفسها، ودار حوار لطيف بيننا نحن الثلاثة، تخللته مناقشات بسيطة عما نقدمه بصالون الحرائر، وبعض اقتراحاته لإثراء الصالون، ورغبته في أن يكون مفتوحا للرجال، وما قد يقدمونه من اقتراحات وإبداعات سترفع الصالون ليتحول إلى صالون أدبي عربي كبير.

كانت الساعات تذوب كما الملح في الماء سريعا حتى اقترب الليل، فقد تناولنا الغداء معًا، وكانت ضحكاتنا يتراقص عليها سقف البيت والحوائط، وكنت أتخيل أن القرميد قد تحول إلى راقصات باليه يتراقصن على وقع عزفنا بالكلمات والضحكات.

أستأذنتهما في الانصراف، ولكنه أصر على توصيلي إلى البيت بسيارته الجديدة.

وانفرد قلبي به لنصف الساعة، وفجأة ضاعت مني الكلمات، وغابت عن لساني اللباقة، وطلاقة اللفظ، لأتحول إلى صبية صغيرة، تتحسس العبارات التي تفشل في صياغتها، لتعبر بها عما يجول بقلبها وبجسدها، فيغطي الصمت أغلب الوقت طريقنا، ثم أفيق على صوته يقول: لقد وصلنا.

سبقني إلى الباب ليفتح لي، ومد يده مصافحا، وكانت لمسته كمن احتضن كل جسدي، وكأني أرتكب الخطيئة، بأن أنمت كفي في كفه.

صرت كما المراهقات، أغيب لدقائق متفرقه في أحلام اليقظة، وخلق حوارات بيني وبينه، وحكايات أنسجها بقلبي بينه وبيني، تمنيت أن تتحقق يوما، أن يخبرني ذات مرة أنه يتألم لغيابي عنه، أو يقوم بإهدائي أغنية لـ "وردة" أو "نجاة" أو "أم كلثوم" أو "فيروز"، فأهل الشام يعشقونها كما نهيم نحن بالست، إلى متى سأعيش معه في الأحلام؟

هل عدت إلى الاستغراق في الحلم، والتقمص؟ ولكن من هي التي أمثل دورها الآن؟

لا أحد غيري، إنها أنا، خالصة بلا ندوب ولا توأمة مع إحداهن، أنا أعيش "همت".

على الرغم من أنه لم يتفوه بكلمة، ورغم أنني لست على علم بمشاعره، ورغم أن هناك شكا كبيرا أنني لا أعني له شيئا، إلا أن الإحساس بالحب يُطعم حياتنا بمذاق مُسكِر كما الخمر، ويعطر أيامنا بعبق يتوغل كل مساماتنا، فيحيل بساطتنا إلى أميرات من الخيال، ممتنة أنا له بهذا الوهم اللذيذ الذي أعيشه.

أغلقت الباب، وألقيت بجسدي على السرير، وغرقت في قصة طالت كما فيلم هندي، عشته بكل كياني ورحت معه في حلم جميل.

رنات سريعة متلاحقة، مكالمة دولية، أسرعت، أمسكت بالسماعة فالاتصال الليلي يصيبنا جميعا بالرعب، وتوقع أخبار غير سارة.

بالفعل لم يمهلني حظي أن أستمتع بخيالي الهائم في "عدنان" لأسمع خبر استشهاد "صبري" أخي في العراق، وعودته في تابوت.

***

الصفحة السابعة والثلاثون

عاد "عدنان" إلى البيت، وضع المفتاح في الكالون، ووقف صامتا، وعلى وجهه ابتسامة، وظل يقلب في يده ويضعها على أنفه يشمها ثم يقبلها، دخل فإذا بصوت "عنود" تنادي عليه..

- عدت يا "عدنان"؟

- نعم أختي أنا هون.

_ تع لعندي.

جلس إلى جوارها، وسألها عن صحتها، أجابته بأنها في أفضل حال.

- أرى أنك سعيد.

- لأنك صرت بخير..

- أم لأنك خرجت مع "همت"؟

- إلام تلمحين؟!

- أعرف أن الحياة هنا مملة لشاب في مثل سنك ، لا شئ يشغلنا سوى العمل، فلا أماكن للترفيه، ونحن بشر نحتاج أن ننعش قلوبنا وإلا قست.

- "عنود" ! "همت" جميلة وخفيفة الظل، لكنها أيضا زوجة، ولست أنا الذي يتعدى على حرمة بيت مهما

كانت الوحدة قاسية، فأنا لست خائنا، ولن أرتكب تلك القسوة، لن أمد يدي لقتل إنسان برئ.

- قتل؟

- للقتل أنواع، منها أفظعها، ونحن عشناه حين قتل أهالينا وأحبتنا هناك، مازال الدم لا يغيب عن ناظري، كذلك حين تسرق بيت أحدهم فأنت تقتله، و"شريف" إنسان طيب، مسكين،أكن له كل الاحترام، ولن أكون سببا في ضياع أسرته، لن أكون قاتله.

- "همت" تسعى للانفصال عنه، وقد اتفقا على الطلاق عندما يعودان إلى مصر ، ألم تخبرك "همت" بذلك؟

- ماذا؟ "همت" لم تنطق معي بكلمة، كانت صامتة طول الطريق، هل ستنفصل "همت" عن "شريف"؟

- نعم

- لماذا؟

- لا تفاهم بينهما، وقد قطع "شريف" كل طرق الإلتقاء بينهما، تصور !! لقد خطبت فتاة يمنية له؟

أرادت أن تزوجه حتى ينشغل عنها، فهي تشعر بالتقصير في حقه، وأنها ليست بالزوجة التي يرجوها، لم تفش عن السر وراء كم الخلافات التي تشب بينهما، ولماذا ساءت العلاقات بينهما إلى هذا

الحد، حتى تدخل رئيسها في العمل، ونصحه بالابتعاد عنها فترة، والانتقال للعيش في بيت مستقل عنها، لينتقل للعيش مع صديق له مصري، ولكن أرجعته "همت" إلى بيته شفقة به، وفي محاولة لرأب الصدع بينهما، فما بينهما ليس زواجا فقط، بل علاقة تمتد منذ الصغر بين الأسرتين، لكن ساءت الأمور بعد أن أهانها أمام أهل العروس التي عرضتها عليه، فلقد اتهمها بالجنون، وبأنها زوجة ناشز، و لا رغبة له في الزواج حتى لا يكرر التجربة الفاشلة، حاولت "همت" أن تهدىء من غضبه، وأن توقف إهاناته لأهل الفتاة بلا فائدة .

كظم والد عائشة غيظه لما سببه "شريف" من إهانة وألم لابنته وله ولاسمه، فكيف لأجنبي أن يرفض نسبه، وتحين الفرصة لكي يرد له الصاع صاعين واستغل علاقاته ونفوذه لنقل "شريف" من صنعاء إلى محافظة نائية، ولولا احترامهم لـ "همت"، وتقديرهم لها لفسخوا عقدها، ولعادت إلى مصر، يبدو أن "شريف" يمر بأزمة نفسية، تجعله غير قادر على التحكم في غضبه، ويتلفظ بكلمات شديدة القسوة، مسكينة "همت".

- بل مسكين "شريف".

- لماذا مسكين؟

- لأنه يحب من طرف واحد، والحب من طرف واحد أبشع الأمراض.

- أرى أن "همت" تميل إليك "عدنان".

- ماذا تقولين؟

- ألم تلاحظ ذلك؟ كلما التقت بك يحمر وجهها وترتبك وتتحول إلى شخص آخر نستغربه، تصير أضعف وأهدأ، لأن "همت" قوية الشخصية وحازمة، لكنها تتحول إلى قطة ناعمة كلما التقت بك.

- لتستريحي "عنود"، الحمى جعلتك تهلوثين.

لم يتحكم في تلك الابتسامة التي سكنت وجهه، يخرج متجها إلى غرفته، أدار الراديو باحثا عن أغنية تعبر عما يشعر به من اشتياق لـ "همت"، إلى أن سمع صوت "حليم" يغني "باحلم بيك".

تمدد على فراشه متوسدا ذراعيه، وغاب مع حليم وطيف "همت"، ولمستها ليده التي قالت له الكثير.

***

الصفحة الثامنة والثلاثون

كان أستشهاد صبري أخي كما طعنة سكين قوية في قلبي لتترك ألما بداخلي، لم أشف منه سريعا، هل شعر أخي بالألم حين قتلوه؟ هل عذبوه؟

ماذا كانت مشاعر صبري في تلك الأيام؟ هل استغاث بنا؟ هل توسل إليهم أن يتركوه؟

ما أفظع الضمير حين يجتر كل الأوجاع، مسكين صبري، كان ضحية الفقر والظلم، دفع ثمن البحث عن فرصة للخلاص، فلم يكن يعلم أنه بسفره كان في طريقه لينال خلاصا أبديا، ها أنذا أختبر رائحة دم أخي، وعشت لحظات مرت بها "عنود" و"عدنان"، معتقلون نحن في سجن كبير اسمه حكومات فاسدة.

أحاطني الجميع بالحب، وساندوني في أيام حزني وتألمي على ألم أخي وفراقه، وكانت أكثرهن احتضانا لي د. "سهام"، تلك الأم التي لقمتني الحنان والرحمة، فكانت الملاذ الذي أختبئ به وألتمس معها الأمان، أصرت على أن تستضيفني في بيتها لمدة أسبوع، وكلما طلبت العودة ترفض وكأنها أرادت أن أكون تحت رعايتها، حتى تطمئن أنني عدت طيبة، شملتني بحبها وبكلماتها التي طببت جرحي، وأشعرتني بأن "صبري" حي يرزق، ويستمتع برؤية الله والأنبياء،

ونحن الذين نستحق الترحم والشفقة، فالشهادة امتياز لا يناله إلا المصطفون، فأين نحن منهم؟!

أستطاعت أن تشعرني بالغبطة والسرور لترقي أخي ومرافقته الأخيار، وعدت لاستكمل رحلتي الشاقة، فالنزول من القاطرة ليس اختياريا.

***

الصفحة التاسعة والثلاثون

مرت شهور لم أتواصل مع عائلتي إلا قليلا، كنت أبعث إليهم بتحياتي، وأقوم بتحويل مبالغ تعينهم على الغلاء لأبي، وهدايا لهبة وعبدالله، أبعثها مع أصدقاء لي عند نزولهم في إجازة الصيف، وأحيانا أتصل اتصالا تليفونيا يتخلله السلام والأشواق وكلمات بسيطة سريعة تطمئنهم علينا، حيث انشغلت بعملي في السفارة وكثرت أسفاري، تباعدت فرص التواصل بيننا، يبدو أن الله أراد لي الاستغراق في العمل حتى لا أشهد وجع أبي وإخوتي، وحماني من أن أحضر دفن "صبري" وجسده المسجى تحت دمه، يرسل الله الابتلاء ويرسل معه الرحمة..

علمت بخطبة أختي لابن عمي، والتي تمت بشكل أسري بسيط بلا احتفال، فالبيت مازال حزينا على موت أخي، وتأجل الزفاف حتى موعد نزولي إلى مصر.

عدت إلى صنعاء بعد رحلة عمل طويلة وسياحة قصيرة، افتقدت فيها صديقاتي، والصالون الفني الذي اجتاح حياتنا، وملأها متعة وثقافة وعطاء، عدت محملة بالكثير من الأفكار والموضوعات التي ستسهم في ثراء الصالون فنيا وأدبيا.

تعجب الأصحاب وزملاء العمل من حماسي، ورفضي تلقي العزاء، وغلق باب المواساة، وأعلنت أن الحياة أقوى، دعونا نعمل، فموعدنا قريب.

كانت لليمن عادات في توديع الموتى ،تختلف كثيرا عنا نحن المصريين، فلا عزاء أكثر من ثلاثة أيام ولا تتبع النساء الجنائ، ويرتدين الأبيض، ولم أسمع منهن صراخا أو لطما، يتم ذبح خروف أو أي من الغنم والضأن وطهوه وإطعام المعزين، كانت المراسم إسلامية متحضرة بلا مغالاة ولا مظاهر لا تفيد المتوفى ولا أسرته ولا المعزين.

هكذا أردت أن أودع أخي كما علمنا الإسلام، عدت إلى عملي واستكملت رحلتي في هذه الحياة وأنا أحمل وجعي.

تمتعنا بقدر كبير من الحرية واليد المطلقة في إقامة حلقاتنا المتنوعة، فالموضوعات دسمة، والضيوف من ذوي الثقل، وتمكنت من الاستفادة من علاقاتي بالسفارة في دعوة قامات أدبية وفنية، مما ساعد على شهرة الصالون ودعمه، لما قام به من تعريف العالم العربي باليمن، وتاريخها العريق، وأماكنها ذات البهاء الخلاب، فلقد خرجنا إلى الجبال والحدائق، وتمكنا من نقل الصالون بأعضائه إلى الكثير من المحافظات اليمنية، ومنها صعدة وإب، وبعد أن تمت الوحدة بين اليمن الجنوبي والشمالي، تمكنا من عقد أحد اللقاءات

بتعز، وكنا نبدأ اللقاء بالغداء، كل واحدة تأتي بطبق بلدها المميز، فكانت المائدة غنية بأطباق شهية من كل بلد، تذوقنا السلتة وبنت الصحن اليمنية والملوخية والمحشي المصري والكبيبة السوري والتبولة والمكدوس.

كانت تجربة ثرية، فعلى الرغم من أنه بلد واحد شطره الاحتلال والجهل، إلا أن طبيعة الشعبين والعادات كانت متطابقة إلى حد بعيد، وبعض الاختلافات الثقافية التي خلقتها الاشتراكية والفكر التنويري الحديث في اليمن الجنوبي، حيث ظهرت به المرأة بشكل أكثر تحررا وثقافة، لقد سبقت شقيقتها باليمن الشمالي في العمل والتعليم، لذا كان المزج بين اليمنين في حاجة إلى وقت، لكي يندمج كل منهما، وتذوب الفوارق المستحدثة ما بينهما ، الجنوب بأيدلوجيته الاشتراكية المتحررة، والشمال بفكره المحافظ الصاعد نحو الليبرالية والديمقراطية، وكانت "هيلانة" تحضر الصالون على فترات بعيدة، كلما سنحت لها الفرصة لزيارة اليمن.

***

كان صالون الحرائر كما الجامعة العربية، ولكن مطروحا من حساباته أية مصالح أو اطماع سياسية أو شخصية، جمعتنا لغة واحدة، وذائقة أدبية واحدة، وفنون أمتعتنا، وأضفت على علاقاتنا روابط ليس من

السهل تفريقها، ليخرج مارد من ركن مظلم محاربا، ليبتلع سعادتنا، ويمزق ترابطنا، وهوية طيبة جمعتنا، هكذا، فلكل يوتوبيا أعداء وحاقدون، في هذه المرة كان الحاقد رغبات دولية أو سلطوية، فما تزرعه الحكومات من عداوات تحصده الشعوب.

غزا العراق الكويت، وظهرت في الآفاق الشياطين تزغرد، فالحرب قادمة لا محالة، والتفكك يسير على قدم وساق، بل على صاروخ وخونة.

كانت ردود الافعال مختلفة كما اختلاف العرب، هناك من رأى أن الغد يحمل معه نبوءة بعودة صلاح الدين في ثوب "صدام حسين"، وبنينا فوق الفكرة والغزو عشرات الأحلام، فهو الخليفة الجديد، شامخ الرأس قاهر الفرس، وقاهر إسرائيل، ومن ورائها أمريكا.

ويعلن "حسني مبارك" تجميد مجلس التعاون العربي، وتخليه عن مساندة حليفه في المجلس "صدام حسين"، ويتضح بشكل لا يدعو للشك أن هناك كارثة تحيط بالمنطقة، فها هو "علي صالح" يعلن مساندته للعراق، ليتم عقاب اليمن فيما بعد بمنع المعونات الكويتية والسعودية عنها، ليعاني اليمنيون أزمة اقتصادية ضاربة، ويفتح "مبارك" قناة السويس لضرب صدام، وتسوء العلاقات بين مصر واليمن، ونحصد نحن نتاج هذا الخلاف، يتم ضرب السفارة المصرية بالحجارة،

وإلقاء تهمة الخيانة على مصر وحاكمها، والمناداة بطرد المصريين من اليمن، وأعاني أنا من ذلك.

الأمس كان يحمل أملا بوحدة ثلاثية، ربما كانت تنبؤا بوحدة أعظم، ليأتي ذلك الخبر الذي مزقنا إلى جزيئات لا ترى بالعين، وذات عناوين عظيمة، سلطنة، مملكة، إمارة.

ألا نخجل من أنفسنا؟ ألا نشعر بالخزي إن نظرنا هنيهة إلى الأمس القريب، حين كانت السلطنة تمتد شرقا، وتفرد ذراعها غربا، فلا تغرب عنها الشمس، لنحيا سلاطين يجلسون فوق عرش أكبر من أرضهم؟!

الاسم عظيم، والمسمى تافه!! أية إمارة؟ وأية مملكة؟ وأية دولة؟! إنها دويلات لا تمتلك من الشعوب ما يكفي لتشكيل جيش يقف أمام أصغر دوله في العالم..

كنت في الصالون أحاول أن أنسى ما يحدث من صراع بين حكومات العرب، واجتمعنا، كان ما يميز الصالون أنه يجمع الكثير من الجنسيات العربية، فهنا "عطاف" الفلسطينية، وها هي "سهاد" السورية، وتلك "جود" الصومالية، وهنا "غالية" السودانية وأخريات.

تثار تهمة خيانة مصر للعراق، وأن حكومتها باعت القومية للمرة الثانية، فالأولى حين تمت معاهدة كامب ديفيد ومعاهدة السلام المزعومة، وهاهو "مبارك" يخون الوحدة العربية للمرة الثانية، حين تخلى عن

"صدام"، وحين فتح قناة السويس لأمريكا لضرب "صدام"، بل وضرب الحلم بأن يتوحد العرب، فـ "صدام" سوف يحرر فلسطين، وسوف يكون الخليفة القادم.

كانت الكلمات قاسية، وكانت الصفعة تلي الصفعة، وكنت أسمع وأنصت لكل الاتهامات ومعي د. سهام، فجأة تتدفق الدموع من عيني، فلقد تجسد جثمان "صبري" أمامي مغطى بالدم بلا بطاقة هوية، ينام بجواره شباب كثر، بالملامح العربية نفسها: لون الشعر والشارب، بل ولون العين، ربما تكون الجثة التي تم إرسالها على أنها جثمان أخي هي جسد لعربي، وحدث خطأ، وتم إرساله مع جثامين المصريين، وقد يكون جثمان أخي قد تم إرساله إلى بلد أخر، فمن يدري؟ فدمنا تفرق بين البلدان العربية، والذي أساله الطمع والخيانة والعنصرية، اكتفيت بجملة واحدة، أسكتتهم حتى لو مؤقتا:

- لن تتحرر فلسطين إلا على يد المصريين، والتاريخ خير شاهد، لو كان "صدامكم" صادقا لكان صاروخه أصاب تل أبيب، ولكنه سقط بالصحراء، وصاروخه الآخر الذي ألقى به على الجزيرة العربية سقط في الرمال، رجلكم يتظاهر بأنه ناصر للوحدة العربية، وبأنه محرر فلسطين، وخليفة المسلمين، بينما هو يغرق المنطقة في حرب لا قبل له بها، لقد أغرق

العراقيين في حرب مع ايران ثماني سنوات، فلم يهنأ شعبه براحه، فالعراق في حرب منذ توليه، المصريون ليسوا خونة، ولم يكونوا ابدا خونة، لقد دفعنا ثمن فساد العالم العربي، ومازلنا ندفعه، لقد استلم أبي جثمان أخي المسافر إلى العراق لأجل لقمة العيش، أخي قتل على يد زبانية "صدام"، أو من متعصبين جهال.

كانت كلمات أطلقتها نعرتي القبلية، وردًا لصفعة الخيانة التي لاذنب لي فيها، ولا تحضر للحظة في ذهني، فأنا بينهن واحدة منهن، أحبهن، وأحب وجودي بينهن، أشعر بالكثرة والقوة حين أجلس في مقعد يلتصق بمقاعدهن، نحكي ونقص ونتذكر ونشتكي، لم أشعر بالغربة، ولا كنت أحس بكلمة اغتراب، فما يجمعنا الكثير.

لم أبكِ أخي وحده، بل بكيت كل شاب تم التغرير به بخطب رنانة، لم تخدم إلا الجالس فوق العرش، فلاهم نالوا الحرية، ولا تذوقوا طعم الرفاهية ولا عاشوا شبابهم يحلمون بالغد الأفضل.

لم أكن لأسمح لأحد أيا كان أن يهين تاريخ بلدي، حتى لو كنت أعارض النظام القائم، لم أحاول أن أسأل نفسي إن كنت أؤمن بما قلت، أو أنني أصدق كلماتي، ولكنها انطلقت من فمي لأكتشف أني عاشقة لبلدي، وأغار أن يمسها أحد بأية إهانة.

***

الصفحة الاربعون

لقائي الأخير بشريف

رفض "شريف" لعائشة كان طامة، لم أتمكن من معالجة عواقبها بسهولة، ولملمة أطرافها، فلقد اتصل الأب بمكتب الوزير، واتهم "شريف" بالتحرش بابنته، وحُوِّل إلى التحقيق، وانتهى الأمر بنقله إلى إحدى المحافظات النائية، تكرما من الوزارة لمجهوداته، ولأنهم صدقوا دعواه برفضه الزواج منها، ولكن لأن الأب له علاقات مهمة بالصحف وشخصيات عليا، آثروا نقله بعيدا عن أسرة الفتاة.

خدمني خبر استشهاد "صبري" في العراق، وحجب عني العقوبة، فرأف بي والد "عائشة"، ومن معي بالمركز الثقافي، فكان موته التوصية التي مررت أزمتي بلا ضرر يذكر، اللهم إلا المزيد من المهام والمسؤليات.

حضر "شريف" إلى بيتي، وكانت حالته سيئة، ذقنه طالت، وحلق رأسه بعشوائية، كمن خرج من معتقل، فكانت في رأسه تجمع شعرات طويلة، وفي ناحية اخرى بقع صلعاء، كان يرتدي (جلابية مكرمشة) غير مكوية، وفوقها جاكت كاليمنين، كان مهزوزا لم يعد "شريف" الواثق من نفسه المعتد بها، كان مكسورا،

أتى في محاولة لأن نجتمع ثانية، وأنتقل معه إلى تلك القرية:

- البقاء لله في صبري، لقد كان بمثابة أخ لي، حزنت عليه كثيرا

- أحتسبه عند الله شهيدا، أشكرك "شريف".

كان لشريف أسراره الخاصة، فكم من مرة يعلمني بسفره في رحلة ما، ولا أعرف عنها شيئا، وكثيرا ما كان يتم اختفاؤه لأيام، ولكن يبعث لي من يطمئنني، ولكن لا معلومة عن مكانه أو المهام التي يقوم بها.

وها هو ذا يظهر أمامي، بعد حادثة رفضه لعائشة، وما نتج عنها من تغييرات وانقلابات، بحجة مواساتي لموت أخي.

- "شريف"، ممكن أعرف أين تختفي؟ وأين تذهب وما هي المهام التي تأخذك أياما دون أن أعرف وجهتك ولا حتى موعد عودتك؟ ألايحق لي أن اطمئن عليك؟

- ماذا ؟ (واضعا يده خلف أذنه وكأنه لم يسمع جيدا)

تطمئنين علي؟

وهل غيابي يسبب لك قلقا يا أستاذه؟ يا من لا تعرفين عن حق الزوج شيئا.

- حتى الآن أنت ترتكب الحماقات وأنا أعالجها، غرورك جلب لك كل تلك الكوارث، تتصور نفسك في

بلدك، وتنسى أنك هنا ضيف، وأنت مجرد عامل أو موظف بأجر، ويجب أن تلتزم بقوانينهم، لقد أهنت الجميع، ولولا أن هؤلاء الناس في قلوبهم رحمة وفطرتهم طيبة، لا أعلم ماذا كانوا فعلوا معك ومعي.

أنا ايضا تضررت، وأشعر أن هناك نوايا لإقصائي من المركز الثقافي، واجتهد حتى ألغي تلك النية، صرت أعمل وأنا خائفة، لقد هدمت كل شئ، دمرتني.

- أنت التي دمرتني، دمرت بيتنا بل وأسرتينا، لا أدري من أين لك هذا الغرور والكبر؟

أنت عاصية لزوجك، والملائكة لن ترضى عنك، بل تلعنك ليل نهار، ولن تنالي رضاي، حسبي الله ونعم الوكيل فيك.

صفع الباب وانصرف، وتركني أحيا ليالي طويلة حالكة الظلمة والألم.، إلى متى سيظل "شريف" جلادا لضميري؟!

***

الصفحة الحادية والأربعون

ذهبت "همت" إلى د. "سهام" التي كانت تشعر بأنها الأم التي عوضها القدر بها.

رنت جرس الفيلا من باب العيادة، فتحت لها "أروى"، ووجهتها إلى الجانب الآخر من الفيلا ، ودعتها للجلوس حتى تعلم د. "سهام"

رن التليفون، وطلبت "أروى" من "همت" أن ترد على د. "سهام".

- معي حالة، دقائق وأكون معك.

- أبدا، لا تتعجلي، أنا في انتظارك، سأحتسي فنجانا من القهوة حتى تنتهي من الكشوفات.

أغلقت سماعة التليفون، أسندت رأسها، وأغمضت جفنيها للحظات، رفعت رأسها، عادت "أروى"، وفي يدها صينيه بها فنجان قهوة

- صنعت لك فنجان القهوة التركي كما تحبونه في مصر، فأنا أعلم أن القهوة اليمني لا تستهويك.

- أشكرك يا "أروى"، كل ما تصنعينه أحبه، يكفي روحك الطيبة.

- أنا أحب مصر، وأهل مصر من زمن، وزاد من حبي لها د. "سهام" وإنسانيتها، لم ترد مريضة، ولم

تناقش فقيرًا في ثمن الكشف، بل كثيرا ما كانت تشتري العلاج لهن بلا مقابل، إنها ملاك، وليست طبيبة، أنتم المصريين نعتبركم أهلنا وكبار العرب.

- تسلمي يا "أروى" على كلامك الجميل، أهل اليمن يتميزون بفطرتهم الطيبة، والإسلام الذي يخلو من التعصب والفرقة، ربنا يحمي هذا البلد الطيب والذي أعتبره بلدي الثاني.

- مرت ساعة وحضرت د. "سهام" تعتذر لـ "همت" عن التاخير

نادت على "أروى" التي حضرت سريعا:

- ماذا تفعلين يا "أروى"؟

- أشاهد الفيلم المصري.

- أعتذر لك أني قاطعت مزاجك يا قمر، لكن أريد طلبا سريعا وبعدها لن اقاطع مشاهدتك " كوب من الكاكاو الساخ.

- سريعا

ابتسمت د. "سهام" وقالت السينما المصرية حضرت اليمن بقوة، والله يستر.

- أنت مجهدة أكيد، سأشرب معك القهوة وأنصرف.

- ماذا تقولين يا "همت"؟ أنت ابنتي، هل تصدقين أنني منذ أول وهلة رأيتك فيها شعرت بمسؤولية تجاهك؟!

الأرواح جنود مجندة، ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف.

- وأنا شعرت أني وجدت أمي التي لم أرها.

- ماذا بك ياغاليتي؟

ألقت رأسها في حضن "سهام" وبكت.

- ما الأمر يا "همت"، كنا نضرب بك المثل في قوة الشخصية، كنت أسمع شكوى "شريف" وغضبه، وأجدك أغلب الوقت مبتسمة متماسكة، وكأن ما يقوله "شريف" ادعاء، تعجبنا منك كثيرا، فعلى الرغم من صغر سنك، وحداثة عهدك بالمسؤولية إلا أنك لم تشتكي أبدا، فضفضي، تكلمي.

اعتدلت في جلستها وكفكفت دموعها وحاولت أن تتماسك.

- لا أعرف، ولكني متعبة، مجهدة، أشعر بأني أرغب في أن أصرخ، لكن وضعي لا يسمح، أريد أن أعتزل في ركن بعيد عن الناس، ولكن ليست لدي الرفاهية، ولا الوقت لأن أبعد، فالوقت يستهلك المال وأنا في حاجة إليه.

- كنت أردد أن "همت" تقاتل، وفي صراع مع شئ ما ولكن لا أعرفه، حتى حين استشهد أخوك، كتمت حزنك، وكنت تتحركين كما الغزالة المجروحة، والتي

تأبى إلا أن تظل واقفة على ساقيها لا تسقط حتى تتجنب شفقة الصياد.

- د. "سهام" رغم أني أشعر أن ما سأقوله هو تكشف وتعرٍ، إلا أنني أحتاج إلى من يرشدني ويطمئنني على حالتي.

أنا عشت حياة صعبة ولا أريد أن أعود إلى تلك المعاناة، "شريف" كان القشة التي تعلقت بها لينقذني من الاحتياج الدائم، وبالفعل لم يتخل عني، ساندني، وتولى مصروفات تعليمي، وأسهم في نجاحي، ولكنه كاد أن يهدم كل ذلك فوق رأسي ورأسه، ضميري يقتلني، أشعر أني شيطان أصاب حياته وهدمها.

والله لم أقصد، رغما عني، لو سمع كلامي وقبل أن نعيش كإخوة ما تذمرت، ولأكملت حياتي معه.

أنا قبلت أن يتزوج بأخرى لعله يجد سعادته، ولكنه رفض، وفضحني، وتسبب في تشويه صورتي أمام رؤسائي، ربما آذيته واستغللته، ولكن حاولت أن أرمم ما أصاب حياته من شروخ سببتها له، وحاولت أن أرد له الجميل، وساندته حتى تقلد منصبا ما حلم به، ولكن كبرياءه أبى إلا أن يهدمني.

- أسمعك.

- أنا أحب أسرته، أخته رفيقة العمر، أمه كانت كأم لي، أنا تحولت فجأة إلى كابوس لهذه العائلة.

- "همت" أنت صغيرة، والزواج في سنواته الأولى يمر بكل تلك العواصف، فقط تحتاجين أنت وهو إلى وقت حتى يتم التفاهم بينكما والتأقلم.

- أنا أكره لحظات تجمعني به، لا أتقبل أن نجلس معا نتحدث، فمابالك بالنوم في فراش واحد، ستضحكين مني الآن، هل ستصدقين أنني شككت في نفسي أنني قد أكون رجلا في جسد امرأة؟!

ضحكة بصوت عالٍ لم تتحكم فيها د. "سهام"

- ماذا؟! رجل بمثل هذا الجمال؟!

- لكن فجأة شعرت بأني أنثى في لحظات لم أتعمد أن أعيشها.

- حينما شرع الله الزواج، أوجد لنا منافذ للخروج منه وهوالطلاق، الزواج علاقة لها قدسيتها، ولكنها ليست طوقا يخنقنا، في حال تفاقمت المشكلات واستحالت العشرة، أوكما اقترحت أنت أن يتزوج بأخرى، ولكنه بالفعل أغلق كل تلك المنافذ أمامك، أما عن فضله فيما أنت فيه، فكلنا مسخر لخدمة الآخر، ولقد جعله الله سببا لأن تتنفسي وتحققي طموحاتك.

- كدت أموت خشية أن أخسر عملي، كياني كله، كنت أعيش كوابيس أنني أتسول وأموت جوعا في بلد غريب وحدي.

- أنت لست وحدك، نحن أسرتك، لم و لن نتخلى عنك أبدا، لأنك لم تتخلي عن أي منا.

كنت سندا لـ "هيلانة" وأختا لـ "عنود" وأما لـ "عائشة" وابنة لي، فكيف نتخلى عنك؟!

لقد كنت النموذج الأجمل للمصرية، شرفتنا هنا، وحفرت صورة طيبة عن نساء مصر، لم تعمك العنصرية أوالتعصب، لقد جمعتنا كلنا تحت مظلة الحب، حتى أنا نسينا جواز السفر والهوية الوطنية التي يتشدقون بها والتي قسمتنا بل فتتنا.

- وأنت د. "سهام" كنت أجمل صورة لنا، لقد سمعت أشعارا عنك من "أروى" والكثيرات من مرضاك.

- أنا هنا منذ ما يزيد عن العشرين عاما يا "همت"، صرت منهم، كنت أشتاق إلى مصر، ورأيتها حين رأيتك، شعرت بالفخر وبالعزة وبأنك اليد الأخرى لي هنا.

- ألم تزوري مصر طوال هذه الاعوام ؟!

- لا، ممنوعة من النزول، أو بالأحرى نزولي فيه خطورة علي حياتي وحياة زوجي.

- لماذا؟

- لا تسألي يا "همت"، يقول تعالى: "يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم" صدق الله العظيم.

ربما يأتي اليوم المناسب وأحكي لك كل شئ، أما الآن فدعينا في "همت" وما تريده.

- أحار في أمرك كثيرا، د. "سهام" الزي الذي ترتدينه ينم عن زاهدة، أو واحدة من تلك الجماعات التي جعلت من نفسها حكما على المسلمين، بل قضاة، وأفعالك تنم عن سيدة متحضرة، لها رسالة، تسمع الشعر والغناء، ترتاد المعارض الفنية، وتفني نفسها ووقتها في خدمة الغير، دون السؤال عن هوية المحتاج أو عقيدته.

- يبدو أن لديك أفكارًا مغلوطة عن الالتزام الديني، "همت"، الإنسان لم يخلق عبثا لأجل إشباع رغباته، واللهث وراء المال والدنيا، خلقنا لأجل رسالة أسمى وأعمق.

نحن مسؤولون عن الكون بكائناته، وسنحاسب كل بقدر علمه هذا، العلم هولب الدين، والتأمل والتفكر هما ذروة سنامة، لا يجوزأبدا أن ننخدع بأقوال أرباع العلماء، الذين يتشدقون بحرف الجيم المعطشة، أو الضادالمغلظة، الذين أغرقونا في سفاسف الأمور، وصرفونا عن أعظمها، أنا أحاول أن أجتهد في الفهم ولا أدعي كوني عالمة، أجتهد في عملي الذي هو

اسمى رسالة، وأمنح أسرتي جل اهتمامي أيضا، وأحترم زوجي وأجله، لأنه يحترم عقلي، ويتعامل معي كشريك في مؤسسة الحياة، قراراتنا مشتركة وأهدافنا واحدة.

"همت"، ليتك تناديني "سهام" بلا ألقاب حين نكون معا، فنحن أخوات وأصدقاء حبيبتي.

- لا أجرؤ، لايستسهلها لساني.

- بل ستنادينني بسهام فقط.

- سأحاول، أشكرك، أو الأفضل أن أقول "جزاك الله خيرا"، أخذت من وقتك الكثير، والمرضى في حاجة إليك.

- مرحبا بك دوما ياغالية.

- ساغادر الآن حتى لا أعطلك عن العيادة.

- لا تتأخري عليَّ يا "همت".

- حبيبتي.

قبلتها وغادرت

***

الصفحة الثانية والأربعون

الرحلات من وإلى ألمانيا صارت عادة تكاد تكون شهرية، إما للتبادل الثقافي، أو للعلاج، أو لإتمام مشروعات تخص تبادل السلع، وإبرام صفقات.

كنت أجلس في الفندق، أتصفح مجلة "نويس دويتشلاند"، فإذا برسالة على الفاكس بها كلمتان: "أنت طالق".

توالت الأخبار السيئة، استهلت بوفاة أخي الذي تلقيته في صنعاء، وعدم قدرتي على النزول لظروف عملي، واستعدادي للسفر إلى ألمانيا.

مرت أيام عشت فيها حزني ووجعي على "صبري"، ونقمة على عالم يضن علينا أن نتنفس الهواء النقي ونبتعد عن حياة عشوائية، ليتم صيدنا وضحكة على وجه الصياد.

ولكن استعدت همتي، وضرورة أن أواصل، ففي أرض المعركة يتساقط الجنود، ويواصل الحي القتال، وهو يحمل بندقيته في يده، ومخلاته فوق ظهره، وحزنه داخل قلبه .

وللمرة الثانية في وقت قصير أصاب باختبار آخر، ويجب أن أواصل الوقوف والقتال لأجل أن أفسح

لنفسي مكانا بين الناجحين، فلنتألم ونتوجع ونحن نسير إلى الأمام، فالحزن لمثلنا رفاهية لاوقت لها الآن.

للكلمة وقع مخيف لشعوري بالمسؤولية تجاه "شريف" وحاجته إلي، كنت أتوقع أن طلاقي منه سيشعرني بالفرحة، لكن العكس هو ماحدث، فيكف أسير على جثته ضحوكا؟!

تأنيب الضمير، وقلقي عليه أفقداني رد الفعل الصحيح، فهو لم يكن أبدا رجلا سيئا، ولم يكن زوجا كريها، إنها هي المشاعر التي أفقدت علاقتنا الروح، والجهل بطبيعتي النفسية، وفك شفرات نفسي عقد الأمر.

ليته يجد من تحبه، يلتقي بنصفه الآخر، لا شك أنني سأكون سعيدة، وسيهدأ ذلك الألم الذي أصاب ضميري.

ماذا سأقول لصديقة عمري سناء؟

هل ستتقبل انفصالي عن أخيها؟

هل ستقطع علاقتي بها؟

ليتها تتفهم، وتفصل بين خلافي مع أخيها وصداقتنا.

وأسرتي، كيف سيتلقون الخبر؟

يكفي مابهم من ألم مقتل صبري.

سأكتفي بكوني صرت حرة، ولن أخبر أحدا، وسأترك الأمر للقدر يدبره بحكمة.

سني الصغير، ومعلوماتي القانونية، كانت قليلة ولكن معرفتي بالفقه كانت تتسع، ولم أكن أعي- حتى هذه اللحظة - الفرق بين ما هو شرعي وما هو قانوني.

نسخت رسالته بحركة لا إرادية فهكذا أتصرف حين أتلقي رسائل الفاكس.

***

الصفحة الثالثة والأربعون

عدت من رحلتي مع أسرة الأحمر العلاجية، وقد أدركت معنى أن تقهر وتسلب حريتك كأضحية لأرض الوطن ونهضته، والتي دهست في طريقها الإنسان..

لذا انتشرت المحاولات في ألمانيا الاشتراكيه للهروب إلى حلم الحرية، والحلم بأمريكا، أرض الفرص، ومرتع الإبداع، والإلتحام بالنصف الآخر المسلوب منهم وهي ألمانيا الديمقراطية، وكأني أعيش وجع اليمن الجنوبي والشمالي بشكل آخر أكثر درامية.

كان الألماني يفتش عن إنسانيته التي راحت تحت عجلات المصطلحات المبهمة عن الشمولية والبرجوازية وعبودية رأس المال والجدلية المادية، وهو الذي كان يسعى للمزيد من المتعة والرفاهية، ترفض الرفاهية في ظل أن تغتصب حريتك، كنت اعتقد أن الجنة سهل أن تزرع هنا بالأرض، وأن العدل والمساواة قيمتان ثمينتان، ولكن سهل أن تتوفرا للبشر، في ألمانيا الشرقية حيث الوجوه عابسة والإنسان تحول إلى كائن بوجه بلاستيكي، فلا مكان لحلمك الخاص، الحلم ألماني أممي، لا مكان ولا وقت للأحلام الخاصة، أنت ترس في عجلة لمصنع كبير ينتج (تكنولوجي) بماركة ألمانية، يغيب تحتها اسم

الصانع أو المخترع، فقط صنع في ألمانيا، فتحيا ألمانيا على دم المواطن.

عدت، وقد شبعت حد القئ من الهتافات بمفاهيم "كلية مجردة"، لايستوعبها الإنسان البسيط، الذي تتلخص آماله في البيت والطعام، ليستهلكه الصفوة لتحقيق أطماعهم، وليصعدوا ليناطحوا السحاب على أكتافهم.

اشتقت إلى إخوتي وإلى أبي، ترى هل سيسعفني الوقت لأن أستمتع بهم؟ أم سألحق بأخي، وأغيب دوما عن مصر؟!

الغريب أنني لم يغمرني أي إحساس بالغربة، فالغربة إحساس لا يرتبط بالمكان، بل بإحساسك بذاتك، فالوطن هو المكان الذي تصنع بأرضه ذكريات طيبة، وفي حضنه تشعر بالآمان، تهرب إليه حين يلفظك الجميع، تستقوى به حين تتعرض للظلم، تتزود برائحته لمواصلة تحقيق الأحلام، وأنا شعرت بكل ذلك هنا، لم أشعر بغربة ولا بخوف حتى في ظل كارثة حرب الخليج والخلافات الحكومية بين بلدي واليمن.

استمر الشجار أياما لينتهي كما زوبعة في فنجان، فلقد تم إطلاق يدي لتنفيذ أغلب ما أريده من مشاريع، تمكنت من إقامة عدة معارض لـ "هيلانة" ومعها الكثيرات من المبدعات، وحينما كنت أعمل كمعلمة أتاحوا لي كل الإمكانيات لأصل إلى أفضل النتائج في

إيصال المعلومة إلى الطالبات، لم أجد أية معوقات روتينية، ولم أعان من الفساد والمحسوبية التي أضاعت على بلدي الآلاف من المبدعين والموهوبين والكفاءات.

هنا شعرت أني في وطني الثاني، ويراودني الإحساس بالغيرة على مصر، عليها وعلى ما تمتلكه من مواهب وخيرات، حرم منها أهلها.

تمنيت لوكنت وجدت تلك الروح هناك، الآن يسحب الحنين قلبي تجاه أبي وإخوتي، ليتني أتمكن من تعويضهم ومنحهم نفحات من الحياة!!

فجأة طرأ على عقلي فكرة العودة إلى مصر ومعي "هيلانة" وعنود، والتنقل مابين اليمن ومصر، سأتقوى بهما ونشكل فريقا قويا لمزيد من الأحلام ومزيد من المشاريع، ونربط نحن المواطنين بين البلدين في مشاريع مشتركة تجعلني على تواصل دائم بين بلدي مصر واليمن، وربما نتمكن من التوسع لضم عدد من البلدان العربية الأخرى، وندع الخلاف الرسمي، لاعلاقة لنا به، ونحقق نحن الوحدة كشعوب.

"قصت لي "هيلانة" رؤيتها التي تحققت، ترى لو كانت قصتها عليَّ قبل ذلك بأيام كثيرة، ماذا كان سيحدث، هل كنت سأمنع القدر؟ هل كنت تجنبت عواقب قراراتي وقرارات "شريف"؟

لا أدري.. لكن حدث ما حدث ولامانع لقدر..علمنا بموهبة أخرى لـ "هيلانة".. لاشك أنها ذات قدرات بلا حدود، تلك الشامية المصرية.

ناقشت "عنود" و"هيلانة" في فكرة النزول إلى مصر، الأمر كان مقبولا بالنسبة لـ "هيلانة" ولكنه كان كما الصاعقة التي ضربت سماء "عنود"، لكنها تلقته بابتسامتها الساحرة، هل ستتخلون عني؟!

-لا، بل لابد أن تنتقلي للعيش بالقاهرة معنا، نتنقل بين البلدين، وربما نجد فرصة في يوم ما أن نتنقل بين مصر واليمن وبلاد الشام كلها، لا تضعي سقفا لأحلامك أو طموحاتك يا "عنود"، أنت التي علمتني المغامرة وفتح آفاق جديدة للأحلام.

- أتفق معك أنه لا سقف للأحلام كما تقولين، ولكن لم أعتد التسرع في القرارات أوالتهور، الأمر محتاج إلى دراسة وتريث، من الخطأ أن نقبل على المشروعات أوالمغامرات غير المدروسة، دعوني أطرح الاقتراح على "عدنان" وأناقشه معه، ثم أرد عليكما.

ننتظر رؤية لـ "هيلانة" تساعدنا في اتخاذ القرار، اليمن أم مصر؟

ضحكنا وضحكت "هيلانة" وقالت:

- أنا لا أستحضر الرؤية، بل هي التي تهبط على نومي.

"كنت من طرح اقتراح النزول إلى مصر، ولكن هناك بداخلي، في عمق نفسي، كنت رافضة لمغادرة اليمن والتخلي عن حياة كانت حياة.

الصفحة الرابعة والأربعون

الأرض مشاع، الحدود خلقت لصالح الملوك والرؤساء لكي تزداد العروش، وتتاح الفرصة للطامحين، الطامعين في الخلود والربوبية أن يشغلوا كراسي شاغرة، لم يأمر الله أن نحوط الأرض، ولا أن نوزع صكوك ملكية لأرض لا نمتلكها، فلقد أعطى من لا يملك من لا يستحق، فالأرض مشاع، لم تخصخص ولم تسند ملكيتها لأحد، إن ضاق بك بلد فلتفسح لنفسك مكانا في بلد آخر، هاجر، فالوطنية مصطلح مصطنع، تلوح به الحكومات والملوك، ليمتد أجلهم لتتويجهم وتعرشهم سنينا، ليضيع في سبيلهم وسبيل الطمع شباب، وتتأرمل نساء، ويُيتم أطفال، ويفتقر الفقير، ويزداد الغني وأصحاب الإقطاعات غنى.

كنا نؤمن بذلك أنا وإخوتي، وحين ضاقت بأخي السبل سافر إلى العراق يلتمس فرصة للحياة والتنفس كإنسان، كان بداخله أمل أن يجد عالما أفضل، أرضا أرحب وأكثر عدلا.

كانت الرسائل في بدايتها مبشرة بالخير، وجد فرصة عمل كمحاسب في إحدى الصحف، وكمراسل أحيانا، ثم أتيحت له الفرصة للعمل في إحد القنوات العراقية، وشعر بوطن لم يولد على أرضه، كان العراقيون

يتعاملون مع المصري كإخوة كما فعل المهاجرون والأنصار.

ثم انقطعت الرسائل، وأمست ضنينة منه، لنكتشف أن البخل لم يكن منه بل من العالم، لقد استكثروا علينا أن نحيا، فتنة ما دبت بين المصريين والعراقيين بعد انتهاء حرب العراق مع إيران، ليعود أخي جثة في تابوت، لم يجب أحد علينا في أي سؤال: كيف مات؟ من قتله؟ أين قتل؟

ليقتل الأخ أخاه بدم بارد، إنه إرثنا عن قابيل.

قيل إن سبب المذابح التي طاردت المصريين مباراة كرة قدم بين مصر والجزائر، وخرج المصريون بالعراق للاحتفال بالنصر، فأطلق عليهم بعض العراقيون النار لتتسع الفتنة، ويراق الدم، وهناك من أقسم بأن المصريين كان يتم تجنيدهم إجباريا في حرب إيران، والإغارات على الأكراد، ولكن أيضا لم يخرج مسؤول ليكشف لنا الحقيقة، بل لقد تملص الرئيس مبارك، وأصدر أوامره للإعلام بالكف عن إثارة الرأي العام، وغلق التحقيقات في تلك الجرائم، وتم تلبيس الحقيقة لباس ذئب يوسف.

حتى الآن لم تظهر الحقيقة، وضاعت، لننتظر التاريخ وما سيسجله من مبررات للقتل.

تعتيم إعلامي عراقي مصري، وراح أخي شابا، كثيرا ما أستدعي تلك الحادثة في محاولة لفهم المغزى من وراء تلك الحروب وما وراءها من فتن.

كان أخي قد أوشك على أن ينهي رحلته بالعراق، وأنا كنت حينها في بداية تعاقدي وبناء حياتي باليمن، وهناك بمصر أسرة تنتظرعودة أبنائها ومعهم الأمل، معهم الخير، ليعود أخي في تابوت ومعه خبر الشهادة.

يكتم أبي حزنه، ويُجبر هو وإخوتي على التكتم حتى تم دفنه، لأعرف بعد شهر بالخبر، مصالح ما بين البلدين دفعت حكومتنا للتكتم على تلك التوابيت، فلا تغطية إعلامية، ولاتحقيقات، ولاحتى تعويضات، إلا إذا كان العراق قد دفع للحكومة المصرية دون علم أسر الشهداء!

فجأة تعود لي ذاكرتي عن حالتي النفسية في ذلك الوقت، وكم كانت سيئة، وكيف أصابني الكثير من التشاؤم، لتساندني تلك الأم التي نزلت لي من السماء د. "سهام".

تولتني بالرعاية، واحتضنتني، حتى عدت إلى مواصلة حياتي، وفي داخلي وجع لا يزول، لتشجعني على استكمال إجراءات سفري إلى ألمانيا، ومواصلة حياتي فلا عزاء بعد ثلاث، والموتى لا يرتبطون بمكان، والدعاء يصل إلى المتوفى في أي مكان.

فالروح لا تجري عليها أحكام الجاذبية الأرضية، ولا تؤمن بالحدود، ولا جوزات السفر.

بعد استقرار الأوضاع تم منحي تذكرة سفر ذهابًا وعودة لأي بلد عربي أريده، اخترت النزول إلى مصر لرؤية أسرتي.

عدت إلى القاهرة في إجازة لمدة شهر، وقد سبقتني "هيلانة"، أما عن "عنود"، فلقد أرجأت فكرة النزول إلى مصر لحين انتهاء عقد عملي باليمن والاستقرار النهائي، عندئذ ستقرر إن كان سهلا أن تنقل عملها إلى القاهرة.

لم أشتر هدايا كما هي عادة كل مغترب، فضلت أن أمنح أخوتي نقودا، فهي أقيم من الهدايا في ظل ظروفنا.

الأحوال بدأت في الإنفراج، أنتقل أخي الاوسط للعمل في إحدى شركات البترول الكبرى..وتخرجت أختي وتمت خطبتها.

شاهدت في القاهرة على شاشات العالم سقوط حائط برلين، وبدايات الوحدة بين البلدين، وعودة التحام الأرض التي تم تقسيمها، وتتجسد أمامي عبوس الألمان في أرضهم الشرقية، وغياب الأمل، وقسوة الحياة لتتحق مقولة: "ليس بوسع أحد أن يبلغ الفجر

دون المرور بطريق الظلام، والفجر لا يدرج إلا من مهد الظلام "

مازال هناك أمل في أن تنقشع الغمة عني وعن بلادنا.

جاءت "سناء" لزيارتي ومعها أمها، فكنت في حالة من التخبط في كيفية مواجهة أسرة "شريف" وبماذا سأخبرهم؟

يبدو أنهم لم يعرفوا بخلافاتي معه، وبقرار الانفصال، سألا عن "شريف" ولماذا لم ينزل معي؟

أخبرتهم بأنه تم منحي تذكرة سفر كمنحة لما بذلته من مجهود، أما "شريف"، فسينزل مصر في إجازته السنوية.

غادرت "سناء" وحماتي بيتنا، وهناك هواجس بداخل صديقة العمر بأن هناك أمر ما، أما الأم فكانت مصدقة لي، ولم تشك في كلامي.

اعتدت من حماتي الصلابة وكما تقول هي: إنها تفوض أمرها وأمر أسرتها إلى الله، فنحن لا نمتلك حتى أنفسنا

تكتمت خلافاتي مع "شريف"، ولم أخبر أسرتي ولا أسرة "شريف" بما حدث من طلاق شفهي بيننا ،فلا طاقة لهم بمصيبة أخرى، لأنتظر وقتا مناسبا لأعلن لهم انفصالنا.

كان لابد أن أجاريهم، خاصة أنني ما زلت زوجته قانونا، ولا بوادر تظهر في الأفق بأن حريتي على الأبواب، فمازال عقد ملكيته لي حاضرا ومختوما وبشهود.

لم أشتر لإخوتي هدايا، ولكن لم أنس سناء، اشتريت لها سلسة من الذهب، أستأذنتها قبل الانصراف أن تنتظر قليلا، دخلت حجرتي أحضرت لها العلبة بعد أن وضعتها في حقيبة هدايا، خرجت وقدمتها إليها ثم قبلتها حبا، وأعطيت حماتي ظرفا به مبلغ من المال وأقنعتها أنه من "شريف".

تم زواج أختي، وانتقلت للعيش في مدينة الإسكندرية، حيث تعمل هي بأحد المراكز الطبية كرئيسة طاقم التمريض، وزوجها يعمل كمعلم بأحد المدارس هناك.

يبدو أنهما قد اتفقا على الخروج من القاهرة، والبحث عن حياة مختلفة بعيدة عن الضجيج والغلاء هنا.

لم يوفق أخي "عبد الله" في الحب، أو في اختيار فتاة أحلام مناسبة له، وقد بدا عليه اليأس والاستسلام لفكرة العزوبية، فلم يشغل نفسه بحجز شقة أو حتى بالتفكير في الفتيات.

سألني إن كان يجوز له التفكير في خطبة سناء، فهي متوسطة الجمال، من ظروفنا الأقتصادية والاجتماعية نفسها.

ترددت في منحه النصيحة، فكيف أخبره أنني طلقت من أخيها شفهيا، وأنتظر اللقاء به لإتمام مراسم الطلاق؟

كنت أحاول أن اؤجل النكد على أسرتي واسرة "شريف"، واختيار وقت مناسب للإفصاح عن ذلك، ولكني كنت في حالة إصرار على أن أفتح له فرص الاختيار الصحيح.

- هل تعلم أن بابا "سناء" و"شريف" كان مريضا نفسيا؟

- معقول؟ لا، هل هو بالفعل مريض؟

- نعم، عرفت ذلك حينما كنت أذهب لزيارتها، وزيارتي لها كانت نادرة فهي كانت تتعمد إبعادي عن أسرتها، ولم أكن أفهم الأسباب، فعلاقتي بها أكثر من زميلة فصل أومدرسة، تفرقنا في المرحلة الإعدادية في فصول مختلفة بسبب أحرف اسمينا، فهي في الفصول المتقدمة، تسبقني بحرف اسمها وأنا في الفصول الأخيرة، حيث الهاء في آخر الأبجدية ولكن كانت تجمعنا المدرسة والفسحة والرحلات والقراءة، هوايتنا المشتركة، كنت كلما ذهبت إلى بيتها ألاحظ عليه تصرفات غريبة، كنت أفسرها بأنها مجرد طباع أو سمات في شخصيته.

كان لديه وساوس غير عادية في النظافة والشك، وكثير من الأمراض النفسية تورث، أعتقد.

- وهل "شريف" ورث ذلك عن أبيه؟

- لا أعرف ولكنني فشلت في التعامل معه، واستنفدت كل الطرق للتواصل حد اليأس، وأشعر أن من واجبي أن أنصحك بالتفكير الجيد والتريث في اختيار أم أولادك.

"سناء" لطيفة وطيبة ورقيقة، لكن تبادل الزواج هنا غير مستحب، لو حدث خلاف ما في بيتي ستتأثر علاقتك بسناء، والعكس أيضا.

إياك أن تتزوج بأي واحدة لأنك مضطر حتى لاتندم.

- اعتقدت أنك سترحبين بزواجي منها، حتى أساندك عند أي أزمة، فلو مثلا تطاول "شريف" عليك، لطردت أخته، وواحدة بواحدة.

ضحكنا، واخترت أن أستمتع بصحبة أخي وأسرتي، وأن أتجاهل أية أزمات، فلي معهم عدة أيام، وبعدها السفر، وحياة أخرى دونهم، من الحكمة أن أستحضر اللحظة بكل ما فيها من إحساس بالأمان، والصدق.

- اسمعي، سيعرض التلفزيون مسرحية لفؤاد المهندس الليلة، سأذهب لشراء اللب والسوداني، فأنا أفتقد سهرتنا معا، وصوت ضحكتك الذي يمنح المسرحية

مزيدا من البهجة، لعلنا نخرج أبي من جو الحزن الذي خيم على أجواء البيت.

جلس أبي يتوسطنا، وقمت بإحضار الشاي وأطباق للتسالي، وجلسنا ثلاثتنا، فأختي في بيتها، كانت ضحكتنا أنا وعبدالله تخترق النافذة إلى الشارع.

أحمد الله أننا هنا بأحد الأدوار التي تقترب من السماء، فالصوت ينحصر في حجرتنا، والأقمار الصناعية، لو كنت في بيتنا القديم، حيث شقتنا بالدور الأرضي بأحد الحارات الضيقة جدا، لما تمكنت من إطلاق حرية ضحكتي، فهناك في ذلك الزقاق، كان أمرا عاديا أن نسمع شجار زوجين، أو أن تمتد يد شاب بزجاجة خمر في حفل عرس لتنطلق السباب والشجار بين إخوتي وبينه، ليعتذر أهل العروسين وتنتهي الليلة.

أكرر عبارة عادل إمام: "بلد بتاعة شهادات صحيح"

يكررها أبي في شكل سؤال: هل هي بلد شهادات فعلا؟ أم واسطة ومحسوبية؟

لقد تم إلغاء الخدمة العامة، وهذا معناه أن الحكومة خلعت أيديها ولن تكون مسؤولة عن تعيين الخريجين، سيتخرج الآلاف من الجامعات ولن يكون العمل بالكفاءة بل بالرشاوى والواسطة.

ما عمله عبد الناصر من إصلاحات، وتحيزه للفقير، سينقلب كل ذلك ونعود لعصر السادة والخدم.

أكمل أخي:

- لقد استلهموا من الرأسمالية التحرر الاقتصادي وتناسوا سلبياتها، التي تحتاج إلى تقنين وقوانين تحمي العمال والموظفين والتأمينات الصحية والاجتماعية. الدول الإشتراكية التي سقطت كان أهم أسباب سقوطها عدم تدارك سلبيات أنظمتها، أما في الدول الليبرالية فلقد تداركوا عيوب أنظمتهم وعالجوا تلك السلبيات بالقانون.

- لقد ابتعدنا عن فؤاد المهندس وأغرقتمونا في أفكار "جيفارية" لا وقت لها الآن، الإجازة تنتهي والوقت ينفد، وأنا أشتاق للتمتع بضحكاتكم التي تمنحني الطاقة لاستكمال حياتي، دعونا من السياسة

- بابا، لندع النكد الآن ولتضحك، اتركها على الله، أليست هذه جملتك الشهيرة؟!

- كيف أدعه ابنتي، هو من يمسك بذيل جلابيتي، كيف أنسى ظلم أخيك حين أضاعوا عليه حقه بالتعيين في الجامعة لصالح ابن عميد، ليسافر حزنًا وقهرًا إلى العراق، ليعود جثة في نعشه مع آلاف آخرين بلا ثمن، وكذبت الحكومة موتهم وقالوا إنها شائعات ستضر بالوحدة مع العراق.

لقد قتلوا ابني، شارك في قتله عميد الجامعة وابنه والحكومة والعراق.

كانت المرة الأولى التي أدخل فيها بيتنا الجديد، والذي تمنيت أن يجمعنا أربعتنا وبيننا أبي، ونستمتع بالرفاهية التي طالما رجوناها من الله.

كانت نعمة منه أنني نزلت في شقة جديدة لا تحمل ذكريات مع أخي صبري، مما خفف الكثير من الألم الذي يتكبده أبي وإخوتي، ولكن شعرت بالشوق إليه وطيبته، كان بالفعل أب لنا جميعًا، قليل الحظ.

- كفاك أبي، هوِّن على نفسك، أخي راح شهيدًا وأنت أب لهذا الشهيد، وموته سيشفع لك، لقد ضمنت الجنة يا أبي، لا تضيع صبرك ومكافأتك التي يدخرها لك الله.. ربنا يعوضك فينا .. دعنا نشاهد المسرحية لنبتسم قليلا.

خلال فترة الإعلانات تناقشنا في فكرة شراء سيارة أجرة يعمل عليها أبي بالتبادل مع عبدالله، حتى ينشغل عن التفكير في مقتل صبري، ويكون عملا يسهم في تحسن الحالة المادية للأسرة، ومساعدة لعبدالله.. طلبت من عبدالله البحث عن سيارة جيدة، وعمل الإجراءات اللازمة، على أن تكون السيارة باسم أبي، ليرد علينا بقوله: "لم أعد أشتهي شيئًا بعد مقتل صبري، أكتبيها باسم عبدالله يا ابنتي، فهو أولى بها.

- كما تحب أبي.

"اشتقت إلى "هيلانة"، ترى ما هي أخبارها؟ ولِم لم تتصل بي حتى الآن؟ لقد انشغلت بعرس أختي وبتنظيم بعض الأمور، وبالتسرية عن أبي، سأتصل بها حتى نلتقي ونتسامر معًا قبل عودتي إلى اليمن.

***

"هيلانة"

كانت صورة "نبيل" تعظم وتتضاءل في علاقة عكسية مع علاقتي بمظهر، يغيب "مظهر" في أسفاره التي لا تنتهي ويتألق حضور "نبيل"، يساندني في تنفيذ أفكاري وتحقيق مشروعاتي، يُذكرني بهمت، هي تدعمني في الفن وهو يدعمني في عملي بالشركة.

زوجة "نبيل" سيدة أنيقة مثقفة تعمل بأحد البنوك، رفضت أن تعمل في شركته، رغبة منها في تحقيق ذاتها بعيدًا عن زوجها. لديه منها طفلان، ورثا جمال أمهما وبعض خصال أبيهما، ما أجمل الأطفال، هم منتج معدل من جينات مشتركة، طفل يأخذ بعضك وبعض زوجك وكل قلبك وروحك، ليخرج كائنا مستقلا تموت فداه.

تمنيت أن أعيش هذا الشعور، ولكنها إرادة الله.

ينتهز "نبيل" أية فرصة للانفراد بالحديث معي، تتشعب الموضوعات وتتوالد الأفكار كلما اجتمعنا معًا، آراؤنا واحدة وأذواقنا متقاربة إلى حد بعيد؛ لذا لم تكن هناك مشاكل تذكر في إدارة الشركة أو في ترتيب المشروعات حسب الأولوية.

كلما شعرت أن الموقف بيننا سيتحول إلى مشهد رمانسي، أو أن الحوار سينتقل إلى الحديث عن المشاعر، أتمكن من التهرب والفرار.

وأذكر "مظهر" سريعا ومدى شوقي إليه، أو اسأل عن الأولاد وزوجته الجميلة.

هكذا كنت أقوم بتأجيل المواجهة بيننا.

دخلت السكرتيرة تحمل باقة زهور بلا بطاقة تحمل اسم مرسلها، ظننت للحظة أنها من "مظهر" ليخيب ظني، يدخل "نبيل" قبل أن تنصرف السكرتيرة، ويقف مبتسما، تغلق السكرتيرة الباب.

- يارب تكون الباقة تليق بذوقك!

- جميلة، أشكرك، اعتقدت أنها من "مظهر"، فلقد اعتاد ان يرسل لي الزهور عند كل مناسبة.

- يبدو أنه مشغول يا "هيلانة"، لاأدري كيف ينشغل زوج عن زوجة بمثل شخصيتك.

- هو يقوم بعمل له قدسيته وأهميته، بل أهم من تلك المناسبات "نبيل"

- ما رأيك أن نتناول العشاء معا، فالوقت تأخر وضاعت وجبة الغداء، لنجمع الوجبتين، ونتناولهما عشاء، هكذا يكون التوفير.

- أعتذر يا "نبيل"، فأنا وعدت أمي وأبي أن أتناول العشاء معهما، وهما في انتظاري. لنؤجلها إلى يوم آخر

- كما ترين، تحياتي للأسرة، وتمنياتي بوجبة شهية لكم، ممكن سؤال؟

- نعم

- لماذا تميل النساء لمن يعذبهن ولاتستجيب للحب الحقيقي؟

- وهل الحب اختيار يا "نبيل"؟!

- أعتقد أنه كذلك يا "هيلانة"، الحب اختيار، كذب من ادعى أنه يهبط علينا من السماء

– وهل اخترت أن تحب زوجتك؟

- بل اخترتها زوجة بحسابات دقيقة، درست أسرتها، وقمت بعمل بحث عن نسبة ذكاء العائلة، ومستواهم الاجتماعي، وأدركت أن زواجنا سيكون ناجحا، وسننجب أبناء نجباء، بل سأفاجئك بأننا حددنا نوع الأولاد، واتفقنا أن يكونوا ذكورا، وقمنا بذلك تحت إشراف طبيب مشهور في مثل تلك العمليات.

اعتددت ألا أترك شيئا للصدفة أو للحظ، فلن نفشل مادمنا نتبع العلم والعقل.

- صفة جديدة أكتشفها فيك يا "نبيل".. مخيفة!!

- مخيف أن نتبع العقل؟

- أرى تناقضا في شخصيتك، تحدثني عن العقل والعلم، وأرى رومانسية في تعاملك معي ومع أولادك.

- ليس معنى أنني أحترم العقل أني إنسان يخلو من المشاعر، الزواج مؤسسة يجب أن تقام بمواصفات خاصة جدا، وأسس يجب أن تكون متينة وقوية، أما ارتباطي بأولادي فهي الغريزة والفطرة.

- مادام زواجك ناجحا، لم تفتش عن امرأة أخرى؟

- هي زوجتي، وأنا أختار حبيبة الآن.

اكتفيت بالحديث عند هذه الجملة، واعتذرت منه بضرورة انصرافي:

- أعتذر يا "نبيل"، لابد أن ألحق بالعشاء.

- لماذا تتهربين مني كلما حاولت الاقتراب؟

- لا تنس أن السكرتيرة تنتظر انصرافنا لتغلق المكتب.

فتح الباب، وبصوت غاضب أمر السكرتيرة بالانصراف:

- رشا، تستطيعين الانصراف الآن، وسأغلق أنا المكتب، فهناك بعض الأوراق التي يجب أن أنهيها الليلة.

انتظر حتى خرجت السكرتيرة، وعاد ليكمل حديثه معي، وأبقى الباب مفتوحا:

- أنت مريضة بالمازوخية، تدمنين تعذيب الذات.

- مريضة؟

- أعتذر .. لكنك في حاجة إلى الصراحة، إلى من تتكئين عليه ليخرجك مما أنت فيه من عذاب !

- هل ألأني معاقة؟

- لا.. لا لم أقصد.. سامحيني إن جرحتك.. أنت تستحقين السعادة، وحياة أفضل.

- "نبيل" لايليق أن نبقى بالمكتب، وحدنا فكلام الناس سيطولنا.

استدرتُ وخرجتُ من مكتبي، وأغلقت الباب بينه وبيني

***

التقيت ب"هيلانة" في ركن "عشتار" بمطعم أبيها وتركنا لنتحدث، لاحظت شرودها وحزنها الذي صار كما شخصيتها..

- ماذا يا "هيلانة"، مابك؟

- لا شئ ولكن معدتي تؤلمني.

- الطعام فاسد؟! هو طعامكم.

ابتسمت وكأنها مرغمة لمجاملتي

- كيف يستسهلون الخيانة؟

- من هم؟

- الرجال يا "همت" الرجال.

- يبدو أنها فطرة فطروا عليها.

- أنا لاتصور أن يلمس جسدي رجل غير مظهر، أن أقول أحبك إلا له.

- لقد منحك القدر الحب وأن تتزوجي ممن تحبينه، نعمة لا ينالها كل الناس يا "هيلانة"، فأنا مثلا.. تزوجت لظروف اقتصادية بحتة، لم يكن الحب هو الدافع، ففي ظروفي كان الحب رفاهية لا أمتلكها، وليس من أولوياتي.

- هذا عنك، و"مظهر"، لماذا لايمتن لحبي له؟

- ما تمتلكه اليد تزهد فيه النفس عند أغلب الرجال، أنت شخصية لا تحب إلا مرة واحدة، وسوء حظك أن من أحببته ذواقة، يمل سريعا، وفي حاجة لتغيير قائمة كمن يغير في قائمة الطعام.

- تؤكدين لي أن "مظهر" خائن!!

- أنا لم أتعرف على "مظهر"، ولم أقترب من عالمه كثيرا، ولكن أنا أحكم عليه من خلال ما تقصينه علينا.

- يبدو أنني لن أستطيع أن أعيش مع رجل غيره.

- متى ستعودين إلى اليمن؟

- سأحاول أن أمد الإجازة، فهناك أمور كثيرة عالقة لابد أن أنهيها.

- سأفتقدك يا "همت"، عند أول فرصة سآتي إلى صنعاء لأراك.

- هيا، قومي معي نتمشى ونتناول الآيس كريم من محل غير مطعمكم.

ابتسمت "هيلانة"، وكان وجهها قد اعتلته الراحة.

الصفحة الخامسة والأربعون

تلقيت مكالمة تليفونية تطلب مني ضرورة العودة إلى اليمن، فهناك مهام كثيرة في انتظاري.

تقدمت لمد فترة الإجازة، ولكن رفض طلبي لحاجتهم إليَّ، اضطررت للاستعداد للسفر، بعد أن تركت مبلغا ل"عبد الله" لشراء التاكسي.

ودعت أسرتي بعد أن أطمأننت عليهم، وعدت إلى صنعاء.

وجدت "عدنان" في انتظاري بالمطار، كانت مفاجأة لم يتحملها قلبي، ولم يتمكن لساني من الكتمان، وجدتني في حضنه.

وأنا أردد: "وحشتني".

يمسك بي، ويحاول أن يبعدني بلطف عنه، وقد أحمرت وجنتاه:

- نحن باليمن، ماذا سيقول الناس عنا؟

هيا، السيارة في أنتظارك، كنت أتوق لرؤيتك لم أستطع صبرا.

- أعتذر لك عن تهوري، كان تصرفا عفويا من شدة سعادتي لرؤيتك بالمطار.

- لا تعتذري، فأنا سعيد، وأية سعادة!! كم تمنيت أن أحتضنك، بل وأحملك بين يدي كما ابنتي.

- "عدنان" ! أنا لا أصدق، لقد فاجأتني. كنت أعتقد أن حبي لك حب مرضي من طرف واحد، ما أرحم القدر، وما أكرمه!

- جميلة جدا هذه المقولة، رغم أنني لاآمن للقدر ففي منحه محن والعكس، لا تسطيعين فك أحاجيه.

- لماذا تقول ذلك؟

- لأنني حين ولدت ولد معي الفراق، كما القرين.

لم تكتمل لي فرحة يوما، أذكر أنني كنت أزرع بستانا صغيرا حول بيتنا، وعند أول قطفة لأول طرح الياسمين كان القصف والمجزرة التي لطخت نقاءه الأبيض وحولته إلى دم أحمر قانٍ، ضاع عطره خلف رائحة الدم البغيضة، وكأنني كنت في مجزر للبهائم.

وحين قدمت أوراقي بالجامعة، تم رفض أوراقي واتهامي بالإرهاب، وحرمت من حقي في التعليم، لتكون آخر مصائبي ذبح أهلي وعشيرتي وأصحابي واعتقال أخي الأطيب، أعتذر أنني بدلت فرحتك حزنا.

- أبدا والله ، أنا اشعر بسعادة أنك تتحدث عن أوجاعك معي وأنني سبب لراحتك.

- كم من مرات قتلت فيها رغبتي في رؤيتك، ذبحت فيها أحلامًا نسجها شوقي إليك.

خشيت إن تعلقت بك ضعتي مني، وكأن القدر أقسم إنه لن يهبني السعادة، فقط الموت والفراق.

- لا تقل ذلك يا "عدنان"، الله كريم ورحيم جدا، والحياة كما تصفعنا بالألم تهبنا السعادة أيضا، فلا حزن دائم ولا فرح خالد، وهي أدوار نتبادلها وتتبادلنا، ألا تجد في تركك سوريا فرصة لحياة جديدة مختلفة؟!

يكفي أن هجرتك إلى اليمن كانت سببا لأن نلتقي، القدر منحك لي.

- ليس معنى اعترافي لك بحبي يا "همت"، أن ننسى أنك مازلت زوجة، وزوجة لرجل محترم، أعتز بمعرفته.

- لقد أتفقنا على الطلاق، ولكن ظروف سفره حالت دون ذلك، كما أنه بعث لي برسالة طلقني بها، فأنا شرعا مطلقة منه، لكن الأوراق مازالت تعطيه حق امتلاكي.

- هل هناك تفسير لسفر "شريف" دون أن يرسل إليك بقسيمة الطلاق؟

يبدوأنه ما زال متمسكا بك، وأنه بسفره يمنحك فرصة التفكير والرجوع عن قرارك .

- أو أن سفره هو انتقام مني، حتى لا أتمكن من مواصلة حياتي، أولا مبالاة وفوضوية وعدم تحمل مسؤولية، كونه زوجا يحمل أمانة الاسرة؟

أنا منحته عدة بدائل، ولكنه كان دائم التعنت، عرضت عليه الطلاق، وأن أتنازل له عن كل حقوقي، كما يقول الدين، فأنا كما قرأت يجوز لي أن اخلعه بالتنازل عن مهري، قرأت ذلك في كتب الفقه، ولكنه رفض واعتبره إهانة له ونعتني بالملعونة.

عرضت عليه أن يتزوج بأخرى، وأن أظل في عصمته، حتى لا أظلمه، ولكنه أيضا رفض، ووضعني في موقف محرج مع الفتاة التي رشحتها له، كما أننا تسببنا في إهانتها مع أسرتها، فخسرت صديقة وعائلة كانت بمثابة عائلتي هنا.

- أعرف يا "همت"، لكن لا يجوزأن نتعدى على الأعراف والقوانين الربانية، أنا جربت الظلم ولا أريد أن أكون ظالما، لنغلق هذا الباب إلى أن يقدر الله.

كما تحب، يكفيني أنك معي، وتبادلني إحساسي، لا أطمع في أكثر من ذلك.

أوقف السيارة أمام منزلي، وأنزل حقيبة السفر، ونادى الحارس و ودعني.

- حمدا لله على السلامة، أنرت اليمن، لا بل العالم، أنرت دنياي.

الصفحة السادسة والأربعون

اختفى "شريف" من صنعاء وتوقف عن الذهاب إلى عمله، ولم ينفذ قرار النقل، واستخدمت علاقاتي لأستعلم عنه.

وكاد أن يخسر عقده لولا تدخلي، وقدمت عنه إجازة لظروف مرضية، وتواصلت مع صديق يمني له بالمدرسة، والذي أبلغني بوجوده عند صديق مصري بالحديدة، أقلني د. "سرور" ومعه زوجته د. "سهام" إلى حيث يوجد "شريف"، فلقد رفضا أن أذهب إليه بمفردي.

رحبت بنا أسرة الصديق المصري، وكانوا أكثر ترحيبا بدكتور "سرور"، الذي كانت مكانته عند أغلب المغتربين المصريين كسفير لهم وشيخ له مكانته وكلمته المسموعة مع اليمنين.

لولا وجدود د. "سرور" ود. "سهام" ربما قد تعرضت للإهانة التي قد تصل إلى الضرب من "شريف"، قابلني ببرود، ولم يمد يده لي بالسلام، اكتفى بالترحيب ب د. "سرور" أما د. "سهام" فلقد دخلت إلى حجرة أخرى، فالريف هنا يتعامل بتحفظ، ويمارس الفصل بين الرجال والنساء.

دار الحديث بين د. "سرور" و"شريف" لإقناعه بالعودة، والالتزام في العمل، واستلام قرار النقل حتى لا يتم ترحيل،ه وأقنعه بأنه لولا تدخله وتدخلي لتم فسخ العقد وترحيله.

- هل كانت "همت" الواسطة لمنع فسخ عقدي؟!

رفع جانب شفتيه وخرجت من فمه "هئ" الساخرة!

- "شريف" نحن هنا لكي نحميك من فسخ العقد، ومن تدمير فرصتك، لا لنتلاسن، أو نتدخل لحل خلاف أسري، فلا الوقت ولا المكان مناسبان لتلك الأمور.

- أشكرك د. "سرور" على النصيحة، والمجئ إلى هنا بنفسك، وممتن لكم، وسوف أنفذ قرار النقل بعد انتهاء الإجازة التي تفضلت "همت" بتقديمها لإدارة المدرسة نيابة عني.

أخذ د "سرور" "شريف"، وصحبه إلى غرفة، وبعد وقت ليس بالقليل يخرج د. "سرور"، ويتبعه "شريف" شاكرا له.. ويدعو له د. "سرور" بهدوء البال وأن يبعد الله عنه وساوس النفس والشيطان.

أصر المضيف أن نشاركهم الغداء، وأقسم أن نبر بقسمه، وحققنا له ما طلب، وشكرناه على كرمه هو وزوجته، ثم انصرفنا عائدين إلى صنعاء.

في الطريق اكتفيت بالصمت، لتفتح د. "سهام" الحديث، وتوجه السؤال لـ د. "سرور":

- لماذا لم تناقشه في أمر الطلاق يا دكتور؟!

- لم أرغب في إثارة غضب "شريف"، كما أننا كنا ضيوفا عند أسرة لا تعرف عنا شيئا، فلا يجوز أن نقحمهم في تلك الأزمة، بعد عودة "شريف" سوف أستضيفه ببيتنا، ونتحدث معه.

كنت أحلق مع الهواء الحريري، ونسمات تسربت من بين الجبال لتربت على خدي.

أغلقت عينيَّ، واستغللت الهدوء باستنشاق تلك النسمات، كان المشهد رائعا ومهيبا كما صنعاء، رحلة السفر والعودة من الحديدة إلى صنعاء كانت مغامرة للكثيرين مرعبة، فأنت تمر بسلسلة جبال لمدة خمس ساعات أو أكثر، كنت أمسك بالسحاب الذي يتسرب من بين يدي بخفة كما كائن له وجود، ولكنه كما الزئبق لا يمكن الإمساك به.

كان الطريق ضيقًا جدا حلزونيا، يسع بالكاد سيارتين، والسيارة في ارتفاع مستمر، وكأننا نحلق في لعبة الحلزون في ملاهي ديزني، لم أشعر بالخوف، كنت منشغلة بمتعة المغامرة ومصارعة الموت، فكلما اقتربت منه زاد حماسي للقتال لأجل الحياة، كنت أرقب نظرات دكتورة "سهام" التي كانت مغلفة بابتسامة تحمل كل معاني الحب والعطف.

لم يعد "شريف"، ولم ينفذ قرار النقل، ولم نلتق، اختفى، واحساسي بالمسؤولية وقرعات ضميري لم تتح لي أية فرصة للنوم المريح، ظلت الكوابيس ضيفا مقيما فوق قلبي طوال ليالي وجودي بلا خبر عنه.

أكل القلق قلبي، وظهرت علامات افتراسه تحت جفوني، وفي غياب البسمة عن فمي، كنت حاضرة غائبة.

***

الصفحة السادسة والأربعون

هيلانة

كانت رحلتي إلى اليمن نقطة تحول في تفكيري، عدت منها وقد اكتسبت أصدقاء، بل أخوات لي، لسن من دمي، ولكنهن جزء من قلبي.

حاولت أن أضع قوانين جديدة لتضبط علاقتي بمظهر، ولكي أقلل من تطرف تعلقي به، فأغرقت نفسي في العمل بالشركة، وفي المساء مع لوحاتي، التي كانت كما صفحات رواية لها حبكتها ونظمت حروفها الخاصة جدا، عدت الى القاهرة ممسكة بحلمي في النجاح، وبقرار مرتعش بالتوقف عن تعاطي مظهر، والاعتدال في التعامل معه، بأن أقف بايجابية في مواجهة أخطائه وأتصدي لخياناته.

أما "همت" فلقد أغرقت نفسها في العمل، وكرست جل وقتها لإثبات وجودها، حتى ينسى السفير ماحدث من تجاوزات من زوجها، لكي تتمكن من الحفاظ على مكانتها، كل ذلك مثّل ضغطا على أعصابها وصحتها، لكنه أهون من أن تعيش في بلد بلا سند ولا راتب يعولها، لقد جربت الحاجة وطعم الفقر المر، لذا فهي في حالة قتال حتى لا تعود إليه ثانية، ملامح الماضي كانت تلوح لها من مكان مظلم لتعافر

وتطردها من ذاكرتها، لكنها منحتها طاقة لاستكمال نجاحه، أدركت أنها لابد من أن توفر المال اللازم لفتح أحد المشروعات التي تدر لها دخلا إذا حدثت تغير في خط الحظ، وتركت العمل بالمركز الثقافي.

بعد الوحدة اليمنية التي تمت في ٢٢ مايو ١٩٩٠ صارت الحركة الدبلوماسية بين الجنوب والشمال في حالة ثراء وصار التنقل بينهما دائماً.

كانت فكرة الوحدة كما الانتقال إلى يوتوبيا عربية، حيث الأرض واحدة، والتنقل بلا جوازات سفر، عشتها هنا ، حيث تمزقت الأعلام المختلفة ، والحدود الوهمية، وعادت جسدا سليما معافى، هل سأعيش حتى أرى كل الحدود قد ذابت، نصبح على نهر صرنا فيه بلدا واحدا عظيما ببطاقة هوية واحدة؟!

استفادت "عنود" من فتح الحدود بين اليمنين، وتشعبت مشروعاتها وتجارتها، وكان العبء الاكبر يتحمله "عدنان"، إلى أن تمكنا من توسعة تلك التجارة مع بلد مثل ألمانيا ثم الدنمارك.

لم نكد نفرح بوحدة، ليظهر في الأفق غزو العراق للكويت، والذي كان بالنسبة للكثيرين خطوة سيليها خطوات لحلم الوحدة، فهناك أصوات تنادي بعودة الكويت كواحدة من محافظات العراق، وهناك من يندد بالغزو القائم على الطمع في بترول الخليج، وجنون العظمة الذي أصاب صدام، ليشب الخلاف بين الدول

التي تؤيد والأخرى التي تعارض، ويتجمد التعاون العربي بثلاثته، مصر واليمن والعراق، وتأخذ الحكومة المصرية موقفا مساندا للكويت ومعارضا لصدام، ثم ينكمش الحلم ويخرج العراق في فبراير ١٩٩١، ويخسر صدام مساندة العديد من الدول العربية والعالم الغربي، وتبدأ سلسلة العقوبات على العراق، وننقسم، وتتسع المسافات بين التقسيمات وتتأجج العداوات التي لا منبت لها إلا المصالح الشخصية، لتتحول فكرة القومية والوطنية إلى عنصرية فجة، ألمانيا تتحد ونحن نتعارك ونتشاحن ونتباغض بمهارة.

وهنا كان يشتعل صراع آخر مع القدر.

ذهبت "همت" إلى "عنود" وناقشتها في فكرة الشراكة بينهما، وأن تقوما بالتوسع في هذه التجارة، وفتح أحد الفروع بالقاهرة يوما ما.

وجدت ترحيبا ولكنها طلبت منها منحها فرصة لمناقشة "عدنان" في الأمر لأنه هو من يتولى تلك الأمور وكيفية صياغة العقود إذا تم الأمر.

***

الصفحة السابعة والاربعون

كيف غادر إلى الشرق، كيف اتخذ ذلك القرار؟ ومن ساعده على المغادرة؟

سافر متطوعا كمجاهد إلى أفغانستان..

جاءني اتصال من وزارة الخارجية اليمنية بأن "شريف" قد غادر اليمن إلى أفغانستان، تركني معلقة، مطلقة بحكم الشرع، زوجة له بحكم الوثائق، التحديات تزداد توحشا وعدوانية.

رغم ما بداخلي من أوجاع واصلت المسير فالحياة قطار لا يرحم، يدهس تحته من يترجل عن عرباته ويتعلق بعجلاته تاركا مكانه شاغرا، ولست على استعداد أن أضيع نجاحا تعبت فيه.

ساورني الشك أن د. "سرور" على علم بسفر "شريف"، وأنه هو من سهل له تلك الإجراءات، وكانت مخاوفي تتضخم كما الكابوس، هل من الممكن أن الجدار الذي يسندني كلما انهرت هو من يضربني في ظهري؟!

هل يمكن أن تكون "سهام" مشاركة في مأساتي؟

لم أعتد منذ رحيلي إلى اليمن أن احتفظ بمخاوفي، أعتدت أن اواجه، وأن أتكشف بلا تردد، فكيف تحصل على إجابات إذا لم تطرح الأسئلة؟!

توجهت إلى د. "سهام" في وقت غير متوقع منها، كانت في عيادتها غارقة في عملية ولادة لطفل خرج يحمل اسم" حسين"، ابتسمت تفاؤلا حين سمعت الاسم، لاحظت على ملامحي العبوس، وأركت أن هناك أمرا عظيما.

- تعالي يا "همت" لنستريح قليلا.

نادت على "أروى" وطلبت منها كوبين من عصير الليمون، واستأذنت أهل المريضة بعد أن طمأنتهم على حالتها، وصحبتني إلى حديقة البيت.

- د. "سهام" هناك سؤال مباشر جدا وأريد إجابة مباشرة جدا عنه.

هل د. "سرو"ر وراء سفر "شريف"؟

وضعت كفها على شفتيها ثم نقلتها لتسند بها رأسها:

-أكيد أنت تصدقينني "همت" فأنا لم أكذب عليك أبدا، ربما لا أفصح عن كل ما أعرف، ولكن ما يخص "همت" لا يحق لي أن أكذب فيه.

لست متأكدة من علاقة د. "سرور" بموضوع سفر شريف، لأنه لم يفصح لي عن أي شئ، وربما أكون أنا من انشغلت حتى لم أجد فرصة أن أسأله.

-- أصدقك د. "سهام" ولكن استحلفك بكل غالٍ أن تسأليه وتخبريني.

هل هو أمر يرضي الله أن يغادر دون أن يعلمني بمكانه؟ أو أن يتركني هكذا معلقة؟

- أعدك أنني سوف أتحقق من هذا الأمر وأخبرك بما سأصل إليه من معلومات.

- سأغادر، وأعتذر أنني قاطعتك وقت عملك، سامحيني.

- لا عليك يا حبيبتي .. اطمئني..

غادرت "همت" وتركت د. "سهام" في ضيق، وتساؤلات أثارت بداخلها الغضب من د. "سرور" و"شريف".

***

الصفحة الثامنة والأربعون

هيلانة

فرد، يلفني بشر فوق أرصفة سقيمة، سيارات وقطارات متعددة الوجهات، لكنهم كما الرمل تغطي بيداء هائجة، تشع حرا وزمهريرا.

أحيانا سائرة على شاطئ البحر في ليلة شتاء ديسمبرية

يبتلعني السكوت يلفني الصقيع والملح، أنظر إلى ذلك الفراغ الممتد في ثقة، أمسك بين أناملي قلمي وورقاتي الباردة، أدون تلك الرواية التي تاهت مني نهايتها، ضلت صفحاتي، فخلت بيني وبين الغربة، أستأنس الزحام والضوضاء التي تشوش على جنوني

- متى أبرأ منه؟ متى أفيق لـ "هيلانة"؟

أنقذتني "همت" بتلك المعارض التي تستهلك أغلب وقتي وتفكيري، واستغرقتني بعيدا عن تساؤلاتي عن "مظهر" وجدوله النسائي.

لا أعرف إن كانت قد تعمدت علاجي أم أنها رأت في فنانة قررت أن تستثمر فنها لتقتسم معها ذلك المشروع.

كانت "همت" تنظم المعارض رغم عدم وجودي في اليمن أغلب الوقت، وترسل لي بالصور والفيديوهات

التي توثق فيها نجاح تلك المعارض وبيع اللوحات إلى شخصيات مهمة، بل وترسل لي تلك المبالغ على حسابي البنكي بعد أن تخصم منها رسوم تأجير المعرض والضرائب، لم تفكر يوما في طلب عمولة أو أجرًا عن مجهوداتها معي.

راقت لـ "همت" واحدة من لوحاتي، والتي رسمتها بكامل روحي وأناقة ملمس فرشتي ، كانت هي أنا "هيلانة" ممسكة بالفراغ بيمينها، وتمنح الغيب قلبها الذي وضعته على كفها اليسرى، ونزيف كما أشعة الشمس وهي تبتسم، العطاء بشكله الجنوني.

إنها تمنحه قلبها وهي مبتسمة، رغم الألم الذي يعتصرها، كتبت "همت" مقالة وترجمتها إلى الإنجليزية والألمانية عن تلك اللوحة، ونشرتها في أشهر المجلات العالمية، لتتواصل معها معارض عالمية مهمة في فرنسا والمملكة المتحدة طالبتين أسمي وعنواني.

قالت لي "همت" ذات مرة :

- "هيلانة" تلمع وتتألق حين تتوجع، إنها فنانة عبقرية بالفطرة، تعج بالحب والمنح.

لملمت "همت" تلك الرسائل والدعوات، وذهبت إلى "عنود"، لكي يفكرا معا في كيفية إقناع "هيلانة" بالسفر وحضور تلك المعارض، فلقد أرسلت "همت"

لوحتها إلى فرنسا في المعرض المقام بباريس، ولابد من سفرها.

اتصلنا بها تليفونيا، وأرسلت لها رسائل والدعوات بالبريد، وقبلت العرض على أن تسافر إحدانا معها، وكنت أنا، لأنني أنا من قمت بكتابة المقال.

قدمت طلبًا إلى المركز لمنحي إ جازة لثلاثة أيام لكي أصطحب "هيلانة"، التي تتحدث الفرنسية، وأنا لإتقاني الإنجليزية والألمانية، لأجد تفضلا من السفير بمنحي تذكرة السفر باسم السفارة لأحضر المعرض باسم المركز الثقافي اليمني، مساندة لي، وامتنانا لمجهودي لإثراء الحياة الفنية باليمن.

كان معرضا ناجحا، وتألقت به "هيلانة"، وصارت اسما يذكر مع أسماء فنانين بارزين.

في أحد الأيام، وبعد انتهاء المعرض واللقاءات الصحفية الكثيرة مع "هيلانة"، عدنا منهكتين القوى إلى الفندق لأجدها تحتضنني بقوة وهي تبكي، وكلمات الشكر تتدفق من فمها كما التراتيل المحفوظة.

- لا شكر بين الأصدقاء يا "هيلانة"، الإبداع إبداعك، أما أنا، فمجرد وسيط أو سبب سخره الله لك، لإلقاء الضوء عليه.

- أنت مددت يدك لتنقبي عن "هيلانة" داخل "هيلانة"، أنقذتني من حمقي الذي كاد أن يفتك بي، "مظهر"

بعثرني وأنا احاول أن أجمع هذا الشتات، ولقد بعثك الله لي وكأنك نبي، هل تقبلين أن تكوني مديرًا لأعمالي يا "همت" بالأجر الذي تحددينه.

- أقبل طبعا، رغم أن وقتي ضيق، لكن أنا عاشقة للفن بكل أنواعه، وأشعر بالمتعة حين أوجد في معبده، عيب أن تحدثيني عن أجر، ما بيننا اكبر من النقود "هيلانة".

أنا سعيدة لأنك سعيدة، ولأنك وجدت نفسك، لايجب أن ندور في فلك أحدهم.

الطواف لايجب إلا حول كعبة واحدة، ألا وهي بيت الله الحرام، أما ما دون ذلك فما هي إلا أوثان ابتدعناها، "مظهر" زوج لك، أي شريك لحياتك، تتناصفان المسؤولية، لا فضل لأحد على الآخر، ولا علو له، بل تكامل، إن لم تشعري معه بالكمال فهذا مضيعة للعمر والطاقة والصحة أيضا.

اشتري عمرك يا ابنتي، إما بالانفصال أو بالتجاهل، كما نقول في مصر " كبري دماغك ".

قهقهه من "هيلانة" ومن "همت"، لتكمل "همت":

- سيقصف هؤلاء الرجال عمرنا.

- لا أصدق أن هذه "همت"، فجأة تحولتِ إلى "أم محمد" التي تجلس على مصطبة بين الحريم.

جملة قالتها "هيلانة" وقد امسك بشفتيها وقلبها الضحك

- أشكرك يا فنانة، تحياتي.

قالتها "همت"، وهي تنحني إنحناءة ممثلي المسرح يد عند البطن وأخرى خلف الظهر.

ردت لها "هيلانة" التحية نفسها بالطريقة نفسها قائلة:

- حبا وكرامة.

- حاولي يا "هيلانة" ألا تستغرقي في التفكير في مظهر، فكري في "هيلانة"، فهي جميلة ومبدعة، وفي حاجة لرعايتك لها، ألست الآن مديرة أعمالك؟!

إذن أتركي نفسك لي، حرري "مظهر" منك.

- هل تقصدين الانفصال عن "مظهر"؟

قالتها وهي ترتعش، كما مدمن على التعاطي يرتعب من أعراض الانسحاب القاتلة.

- لا أنا لم أقل الانفصال، بل أطلب منك أن تحبي نفسك، وأن تجدي عالمك الخاص والرائع، وتقدري نفسك وموهبتك، وتعملي على نجاحها، لتستقلي عنه وتكون العلاقة بينكما علاقة تكافؤ، علاقة تقوم على تبادل العطاء، أنه لأمر مرضي أن يعطي طرف أبدا، ويأخذ الآخر أبدا، لا مجال هنا لتضحية عبيطة، التضحيات هي للأوطان والمعتقد فقط.

- إحساسي بالنقص، وشعوري ببساطة جمالي، وإعاقتي، يجعلني ضعيفة وخائفة دوما أن يتخلى عني.

- أنا أرى فيما تجدين أنه نقص فيك أراه قمة الكمال، حاجبيك الموصولان، وكأنك في رؤية متصلة، بصيرة لا تنقطع، فلا فرق يقطع خط رؤيتك، إنها الاستقامة والكمال في خلقه البديع.

حتى ساقك التي ترين فيها العرج، تمكنت من جعل هذا النقص جمالا، حين انتقيت ما يناسبها من فساتين وشراويل أنيقة، الفن فطرة داخلك، إنك خلقت خط أزياء يخصك وحدك صار مضربا للتقليد.

حتى صوتك يخرج منغما، ما أنت إلا لوحة مكتملة ولا أرى "مظهر" إلا معاقا، يلقي عليك بنواقصه فيصيب كمالك بالفوضى.

مظهر هو من يحتاجك، فأنت أمه التي لم تلده، تقبلينه بعيوبه، تستقبلينه بحب، لا ترضين له الألم أو المهانة، وتدفعين من كرامتك لتعلي من كبريائه.

- أشكرك، شكرا يا "همت"، لا أدري من أين لك كل تلك القوة وأنت الموجوعة، المصلوبة على صليب الأنانية والظلم.

- عارفة يا "هيلانة"، أنا لا أؤمن بالمثل القائل: "فاقد الشئ لا يعطيه " رغم منطقيته.

بل يعطي ويمنح ويهب، أنا لم أختبر حضن الأم، ولم أعش العطاء، ورغم ذلك بداخلي أم لا تمل من الموت دون أحبتها، رغم خوفي من نفسي أغلب الاوقات ونهمي في النجاح وأن أجد لي بقعة بين السادة، إلا أنني لم أتخذ طريقهم في الوصول، بل التعب والحلم والاستيقاظ لتحقيق الحلم، أنجح بمجهودي.

حتى في ظلمي لـ "شريف"، كنت أحاول أن أمنحه السعادة، حتى لو كان الثمن الطعن في أنوثتي.

هيا بنا لننام قبل السفر وعودة كل منا إلى واقعه، أنت إلى القاهرة وأنا إلى صنعاء.

نامت "هيلانة" وأنا أتصور أن في حضنها "مظهر" ولوحتها.

أما أنا ففي حضني حلم اسمه "عدنان" وغياب "شريف" الحاضر، ووجعي بهما هما الاثنين.

الصفحة التاسعة والاربعون

جلست د. "سهام" أمام د. "سرور" في إضاءة خافتة والجميع نيام، وكان ممدا على فراشه ود. "سهام" بجواره تجاذبه أطراف الحديث:

- د. "سرور"، هل أنت من ساعدت "شريف" على السفر؟

- منذ متى وأنت تتدخلين في مثل هذه الأمور يا د. سهام؟!

ألم نتفق أن هناك حدودا لا يجب أن نتخطاها حفاظا عليك وعلى بناتك وأهالينا؟!

- هذه المرة من تأذى إنسانة غالية علي جدا، وحيدة لا أهل لها ولا سند غيرنا.

- نحن لم نتخل عن "همت" يا دكتورة منذ قدمت إلى اليمن، بل أنت تعلمين جيدا أننا نساندها بكل قوتنا.

- ولكنك تعلم ما سببه لها "شريف" من أذى نفسي واجتماعي.

- ونحن ساعدناها لكي نهدئ من تلك الخلافات بأن حققنا له مايريد.

- لكنه تركها معلقة

- هي مازالت زوجته، ودورها أن تتحمل معه، هو جهادها الذي كتب عليها.

- د. "سرور" أنت لاتفهمني، لقد طلقها منذ شهور ولكنه لم يوثق هذا الطلاق.

- الطلاق لا يعد ساريا طالما لم يوثق يا د. "سهام" ربما أعادها في نيته.

- ما هذا؟ هل بهذه البساطة يتم التعامل مع علاقة وصفها الله بالميثاق الغليظ؟

- بل لأنه ميثاق غليظ لا يجوز أن نتهاون في تسهيل أمر الطلاق.

- ولكنها تتمسك بهذا الطلاق، وتريده أن يعترف به ويحررها.

- ماهذه المصطلحات التي تستخدمينها د. "سهام"؟ تحرر وحق؟

- لا تنس يا دكتور أن من حقها الخلع، أن تخلعه، حقها الشرعي

- هناك خلاف في هذا الأمر، هناك من أقره وهناك من رفضه وأنكره.

- لنستند إلى تشريع أقره الخليفة عمر بن الخطاب حين حدد فترة ابتعاد الزوج عن زوجته بستة أشهر فقط، فلقد تعدى الفترة المحلل له فيها فراقه لها.

- د. "سهام" هناك أمور أهم، حين يتعلق الأمر بالدين، وتكون أن هناك خطورة تمس العقيدة فكل الخلافات تؤجل وتهون، "درء المفاسد مقدم على جلب المصالح".

هناك في أفغانستان من يستشهد في سبيل دينه، إنها حرب وجهاد يا دكتورة، هل سننشغل بخلافات عبيطة بين "همت" وشريف وهناك من يتآمر ضد ديننا وأمتنا؟!

- أرى فكرا شيوعيا يتخلل افكارك الدينية يادكتور؟

تلوح ابتسامة حانية على وجهه:

- شيوعية؟! أعوذ بالله.

- أن تقهر إنسانا تحت مصطلح فكرة عليا فكرة قاصرة، فسعادة الإنسان أولى الألويات، "همت" إنسان لاسند له إلا نحن، ومن حقها أن تفسخ عقدا سبب لها الألم.

- يبدو أن "همت" غالية جدا عليك يا دكتورة "سهام"، دعي الأمور تسير كما أرادها الرحيم وتعالي في حضني لننعم بالسلام.

أطفأ النور، وساد الهدوء واستيقظ السلام.

***

الصفحة الخمسون

عدت إلى بيتي، أخذت حماما دافئا، وخرجت على رنين التليفون، لففت نفسي بالبشكير، وأسرعت لأجيب، لكن انقطع الاتصال.

أرتدي ملابسي، وأمشط شعري، وأتجه إلى المطبخ لتحضير طبق سريع للغداء، ومعه كوب من الشاي.

أسمع رنين جرس الباب، أخرج لأجد د. "سهام" أمامي، أرحب بها، وأدعوها للدخول وأن تشاركني الشطائر.

جلسنا في غرفة الجلوس، وبدأت في فتح أبوابا للحديث، وكنت أترقب ملامحها والتفاتاتها حتى أخمن ماحدث من د. "سرور"، لتصارحني هي بما دار من خلاف بينهما فيما يخص "شريف"

- لا أفهم، لم الخلاف؟ وماسببه؟

هل د. "سرور" هو من سهل له الإجراءات؟

- نعم، لكن لم يكن لديه علم بموضوع الطلاق يا "همت" وفوجئ حينما اخبرته.

- لكنه كان يعلم برغبتي في الطلاق، لقد أضاع علي فرصة أن احصل على حريتي، لقد ساعد في مد فترة أسري، ولا ملجأ لي إلا الله.

- بل هناك فرصة.. تستطيعين رفع قضية طلاق.

- هنا؟! وعملي وسمعتي؟!

- أعطني فرصة، ربما أتمكن من إيجاد وسيلة تواصل مع "شريف" للوصول إلى حل

- إن شاء الله دكتورة..

أغلقت باب النقاش، فأنا أدرك أستحالة الوصول إلى "شريف"، في ظل تلك الأجواء السياسية التي أطاحت باحلامي بعيدا، وعصفت بحقي في الحرية.

***

الصفحة الحادية والخمسون

التقيت "عدنان"، وكانت معنا "عنود" للوصول إلى شكل مناسب لعلاقتنا التي تجمدت لفترة طويلة، فأنا لا مطلقة ولا زوجة، والرغبة في أن اكتمل بـ "عدنان" صارت ملحة من كلينا، استشارت "عنود" أحد الفقهاء الذي أفتى بأنني قد طلقت شرعا، لسببين: أولهما أنه بالفعل طلقني دون أن يردني، خاصة بعد مرور ما يقرب من عامين، والسبب الثاني أن من يترك زوجه أكثر من ستة أشهر يحق لها إقامة دعوى طلاق للضرر أمام ولي الأمر.

إذن، فأنا في حل منه شرعا، وفي حاجة إلى أن استخرج قسيمة طلاق من أحد المحاكم هنا أو في مصر، وسيطول الأمر فالإجراءات لن تكون سهلة.

لنقرر في لحظة اشتياق ولهفة أن نتزوج عرفيا بحضور شاهدين و"عنود"

تزوجته بقلبي وروحي وجسدي، لول مرة أشعر بمعنى أن يحب جسدي وقلبي رجلا، ألقيت بنفسي بكامل اشتياقي بمخزون مراهقتي المهدورة في التقشف خوفا من الغرق في الأحتياج وأنا عاجزة، فقيرة، ألقيت بنفسي، ومعي كامل طفولتي وجنوني في أحضانه، وألقى هو بكامل حنينه للوطن والبيت فوق صدري، أحسست لأول مرة بطفولته ولهفته لأن يبكي

على صدر أمه، فكنت أمه وأخته وعشيقته، لن أنسى حوارنا العجيب عن مشاعرنا تلك الليلة.

قال لي :

- ليت الليلة كانت بالأمس البعيد، وليت عرسنا كان هناك على أرض حماة، تتأبطين ذراعي، وأحملك أنا بين ذراعي إلى ضيعتنا، أرض الياسمين، أتجول بك حول السواقي السبع عشرة، ليتك كنت هناك بالأمس البعيد قبل مجزرة (حماة) وقتل أهلي.

كم أحبه!! وكم أتمنى أن أعوضه ما ضاع ليتني أستطيع أن أجبر كسره وأعيد الضحكة إلى شفاهه هو و"عنود"!

لم نقض شهر عسل، فلقد كان الزواج بعلم عدد قليل جدا من أصدقائنا، وكان لابد من عودتي للعمل وعودته إلى تجارته.

***

الصفحة الثانية والخمسون

عنود

حاولت "عنود" كثيرا أن تنفض عن ذاكرتها حرق بيتها و دفنه وأهله رمادا تحت التراب، لقد ضاع الأمان فجأة من بين يديها، وزلزل تحت قدميها المنزل.

يتهدم البيت، ويضيع منها الوطن، وتهرب بأخيها إلى العراق ومنه إلى اليمن، وكأنها القيامة، تنهض من رقدتهاعلى بلد جديد، ولكنها ولدت شابة فطيما من حضن الأم وأمان الأب، لتلعب هي كل الأدوار، حاولت أن تكون قديرة كأم وكأخت وأب، لكن أبدا لم تذق طعم النوم الهادئ، فلقد عانت كوابيس المجزرة والقصف لمدينتها، القتلى أطفال وعجائز وشيوخ وشباب.

لا وصايا محمد صلى الله عليه وسلم احترموها، ولا وصايا المسيح، كانت كما الفتنة الكبرى التي راح فيها أهل بيت الرسول على يد مسلمين، تتكرر بكامل فجورها، حرقوا الأشجار، وقصفوا الحمائم، وهدموا حضارتنا، هدموا كل قيم الأديان.

لم تنس خداعهم للرجال بالخبز، ومن يخرج يضربوه ليسقط قتيلا، رأت في أقل من خمس دقائق مقتل عدد

كبير من الأطفال خرجوا لإحضار الخبز من سيارة بطرف الشارع، ليعترض جنود النظام طريقهم ويطلبوا منهم الدخول الى مسجد مجاور، وهناك فتحوا عليهم النار، وقتلوا العشرات منهم، وفي دقائق كانت جثامينهم قد رفعت ليلقى بها في مقابر جماعية لتبقى منهم على الأرض أحذيتهم الغارقة بالدم، لم يفرق النظام بين مسيحي أو مسلم، كانت الكراهية هي المحرك لتلك المجزرة.

وفتنة كبرى أخرى أضاعت بسببها السلام، وتفرق كبير، أمسى من الصعب لم شتاته.

حاولت كثيرا أن تجمع ما تبقى من روحها، وتكمل حياتها، وهناك أمل في أن تلتقي بأخيها المعتقل، ربما هو السراب، ولكنه الأمل الذي يجعلها تواصل الحياة، أحيانا ينتابها هاجس بأنه لا محالة ميت، تستعيذ بالله، وتدعوه ألا يصيبها فيه، فقلبها يرفض ويأبى إلا أن ينتظره، وانتظار شقشقة النهار بعد ليل طويل.

ولأن "عدنان" صار كل أهلها ساعدته على أن يستكمل دراسته باليمن حتى حصل على بكالوريوس الهندسة، واكتفت هي بالمؤهل فوق المتوسط، وتفرغت للعمل حتى ينتهي "عدنان" من دراسته، وكان يساعدها في أوقات فراغه حتى أقاما مشروعهما الخاص، وبعد انتهائه من الدراسة تفرغ للمصنع، الذي

صار فيما بعد شركة كبيرة يعمل بها الكثيرون من السوريين والفلسطينين وجنسيات أخرى.

وبظهور "همت" عوضها القدر بها عن الأخت والابنة، لتحتضنها هي وأخاها وتبني بهما أسرة جديدة هنا.

حدثت نفسها بفكرة الزواج، و أن تقنع نفسها بالحب والزواج، ولكن من الذي سيتحمل كوابيسها؟!

من سيتحمل وجعها وألمها وبكاءها المستمر على أخيها المعتقل؟!

من مات عرف مكانه واطمأن القلب عليه، أما من اعتقل فناره لا تخمد، وألمه دائم، في الموت أحيانا راحة.

كانت تشعر بالسعادة حين ترى "عدنان" سعيدا، عندما لاحظت لهفته على رؤية "همت"، بدأ القلق يساورها، والوساوس تؤرق راحتها، فهي متزوجة، وليست سورية، كانت خطتها أن يلتزما بسوريتهما، ألا يتزوجا إلا من سوريين للحفاظ على بقاء دمائهما نقية، وكثرتهما، كجيش سيعود يوما ليحرر الوطن الذي اغتصبته عصابة، أما أن تختلط دماؤهما بدماء غريبة فهذا كان مرفوضا، وكأن سوريا تحولت إلى فلسطين أخرى، سيقيمان وطنهما بأي مكان، كشعب المهجر، إلى أن أفاقتها "همت"، ونزعت تلك النعرة

القبلية من قلبها، وخلصت أفكارها من تلك النبتة الضارة، فكيف تنادي كل الأديان بالمساواة والقضاء على العنصرية ونحن نبقيها بداخلنا حية، بل نسقيها تعصبا وعزلة.

لم تشعرها "همت" ولا مرة بفارق الجنسيات بينهما، كانت تحدثها كأختها الكبرى، تسر إليها بآلامها وأحلامها، ساندتها دائما، تستمتع بمجلسها ، فخفة دمها المصرية كانت تهون عليها أحزانها، كما وهبها الله كثيرا من الذكاء والمهارات، فكانت تلهم بالأفكار والاقتراحات، و"عنود" و"عدنان" وكذلك "هيلانة" يقننوها، ويدرسونها، ويضعون خطة التنفيذ،

هكذا،هي تحلم وهم يسعون هم في تحويل تلك الأحلام إلى واقع، أقامت مشروعا اسمه "هيلانة"، صعدت بها إلى القمة دون أن يشوب علاقتها بها أية مصلحة، وهاهي تعاني وحدها من زواج قائم على المقايضة، هي في مقابل الحياة، لتكتشف أنها أضاعت قلبها في صفقة خاسرة.

"شريف" رجل صالح، ولكنه كان مريضا بها، لا أعتقد أنه كان حبا، فالحب الذي يكون في مقابله الإهانة والرفض هو نوع من "المازوخية" كما تقول دكتورة "سهام"، التلذذ بتعذيب الذات، وبالفعل كان "شريف" مريضا، ولكن كان مرضه كامنا، إلى أن وجد الأرض التي تغذي ذلك المرض وتظهره.

تغلبت "عنود" على عنصريتها، وتمسكت بـ "همت"، خاصة بعد أن تأكدت من عشق "عدنان" لها، لقد وجد فيها قوة الأم واستماتتها لحماية أبنائها، ووجد فيها الطموح الذي لا يهدأ، والحلم الذي لا يخبو، كانت مزيجا من "كليوباترا" و "شجر الدر" على "أياحة"، ملكت عليه نفسه، فكان يراقبها بعد نزولها من بيتهما، عشق الأغاني المصرية والأطعمة المصرية، فطلب من "عنود" أن تطهو له الملوخية والمحشي والكشري، والفلافل أو الطعمية بالفول لا الحمص.

كل تصرفاته تعلن عن عشقه لها، كل ما خرجت به من توقعات هو من حوارات دارت بينها وبين "عدنان".

واحتفظت بأسراره، ولم تبُح بها لها، إلى أن اكتشفت أنها تهيم به حبا هي أيضا، ولأنها امرأة حرة كتمت حبها، ودفنت هذا الحب بين جنباتها واكتفت بالصمت، أما هو فكان يسترق رائحتها والسمع كلما هبطت على بيتهما كما طير الوروار!!

لم تلحظ "همت" ايا من تصرفات "عدنان"، ربما لأنها غارقة في محبسها وشجارها الدائم مع "شريف" ولعملها غير المحدد بساعات في السفارة وأسفارها المستمرة، أو ربما كان "عدنان" حريصا ألا تكتشف ضعفه وغرامه بها، وهي زوجة ولا يجوز له أن يتعدى على بيت غيره كما المحتل.

لم تتدخل "عنود" إلا بعد أن تأكدت من طلاق "همت" بعد محاولاتها المستميتة لإيجاد صيغة تفاهم مع "شريف" كما كانت تردد، فهي تستخدم مفردات خاصة بها، ثم نعتادها منها، ثم نرددها كما تفعل هي، يبدو أن عملها بالدبلوماسية صقل لغتها بمفردات أثرت عليها ثم علينا.

كأم خشيت "عنود" على "عدنان" من لوعته بحبها، ففاتحته في أمرها، حاول أن يتملص منها، وأن ينكر مشاعره، ولكن هيهات، هل يخفى أمر على أي أم ؟ وهل تكذب نظرات العاشقين؟!

كان ما جعل "همت" تتحمل "شريف" وتحاول إنجاح علاقتهما، الامتنان له، فيعود إليه الفضل في انه انتقل بها إلى حيث الأرض التي تصلح لغرس أحلامها وطموحاتها، ونجحت "همت" رغم سنها الصغيرة في النجاح، ولم تكن تكل في التخطيط لأحلام جديدة، فصارت كما الجلباب الفضفاض بمقاس أوسع لا يليق على "شريف" ،حيث فكره الجامد وسلفيته المثاليه الرافضة لأي تغيير.

كل أحلامه كانت فرصة عمل لادخار مبلغ من المال ليتزوج بفتاة جميلة ويصير أبا.

أما "همت" فكانت شخصية مطاطة، كما خلفاء الفتوحات، لن تهدأ حتى تتوسع بأحلامها لتشمل الفضاء، راقت للجميع شخصيتها فهي منسجمة مع

أفكارنا وأحلامنا، وتمكنت من أن تشغل أوقاتنا بمشاريعها، فكان ثلاثتنا لا نعرف معنى الراحة أو الهدوء أو السكون، والذي هو في تعريف "همت": الموت

طرقات على باب حجرة "عنود"

- من؟

- "همت".

- تعالي يا "همت".

دخلت "همت" كعادتها ممسكة بجبينها ويدها اليسرى ممسكة بخصرها لتسألني:

- ما رأيك في عرض أزياء عربي؟

- ماذا؟

- عرض أزياء للزي الشعبي بكل دولة عربية: زي المرأة اليمنية، وزي المرأة الفلسطينية، والمغربية والصومالية، هل تفهميني.. يا "عنود"؟!

زي منسوج بثقافتنا: الشرشف، والملس الصعيدي والشروال الشامي.

- اهدئي همت، أنت عروس، هل تركتِ "عدنان" لأجل هذه الفكرة؟

- اسمعي يا "عنود" كوني معي، "عدنان" نائم، سيكون مهرجانا سنويا، وسننتقل به لبلاد أخرى، وإن نجح إن شاء الله سيكون لك خط أزياء يحمل اسمك كما بيوت الأزياء العالمية.

- فكرة جميلة، ولكن أين سنقيم هذا "الديفليه" العرض؟

- دعي الأمر لي، فقط ابدئي في تصميم الأزياء، ونفذي التصميمات في المصنع، وأنا سأتولى الباقي، سنستغل "هيلانة" لتصمم لنا تلك الأزياء، وأنا سأتدبر التسويق والدعاية.

***

الصفحة الثالثة والخمسون

أسرعت إلى حجرتها، ورفعت الغطاء في هدوء، وأخذته في حضنها مرددة كلمة "حبيبي".

كانت تنطق الكلمة وكأنها تهدهد طفلها الأول، خرجت الكلمة من فيها بكامل جمالها، لم يسقط من شفتيها حرف بلا موسيقى، لم تكن لتنطق الباء إلا والتصقت بها الحاء في ألفة ويتبعهما لذة تسري بأنحاء جسدها، كانت الكلمة تخرج وكأنها طلقات رصاص تنتشر شظاياها بكل ذرة من جسدها، لتنزف حبا ورغبة، كان الحرف صغيرا، رقيقا ولكن كل حرف كان حبة زرقاء تلقي داخل جسدها رغبات النساء جميعا، فتشع خدودها حمرة ونشوة.

أحبت كلماته السورية التي كانت تمتعها وتتعامل معها كما قصيدة غزل، "دخيلو الغالي" "تؤبريني" "قلبي" "تع" خروج كلمة تعالي هنا سريعه وقد قضم منها المد لتختصر إلى "تع هون".

كانت تردد كلماته بلهجته وهي تعمل بالمطبخ،عوضا عن أية أغنية، كلماته صارت أغنيتها المفضلة.

الأيام الجميلة تنفد سريعا، ولكنها تظل كما مخزون سعادة يمدنا بطاقة هائلة للعمل ومواصلة الحياة.

قام "عدنان" بتوصيلها إلى عملها، ولكنه أنزلها بعيدا حتى لا يعرضها للقيل والقال.

- كان نفسي العالم كله يعرف أني زوجتك، كان نفسي أعرف أهلي بك لتكون أنت وفقط في حياتي.

بلهجته السورية التي تمتلئ بالفتحة والمد:

- شو يهمنا من الناس يا "همت"؟!

أقرب الصلوات إلى الله السرية "كما يقول أحسان عبد القدوس "، الصلاة بينك وبينه، العلاقات الجهرية أغلبها تمثيل وكذب، أنا مكتفي بك جمهوري، أنا أسعد مخلوقاته ، يا "همت".

قبلته على خده، وسرت دموعها بلا قصد منها، ودعوة منها إلى الله أن يحفظه لها.

تحقق حلم "همت"، وانتقلت إلى الجنة التي لطالما رجت الله أن تعيش فويها، ولكن ظل بقلبها غصة لطالما عكرت سعادتها، بل تآمرت على بسمتها لتنزوي وتنكمش وتتحول إلى شرود، لتفيق على يد "عدنان" تجذبها إلى أحضانه ليلفها بذراعيه، ويربت على رأسها في حنان وأبوة، كان يترجم ما بها، فهمه من شرودها وحزنها.

ليظل الهاجس بداخلها، واعتقادها أنها أجرمت في حق "شريف" وأسرته وظلمتهم، ورعب يتملكها من

قصاص القدر، استكثرت على نفسها السعادة ولم تصدق أن سعادتها ستدوم.

ولكن لماذا يقتص منها القدر، وماكان أمامها بدائل عدة، بل كل اختياراتها كانت بين بديلين فقط: إما المعاناة والفقر، أو أن تتشبث بـ "شريف" كقشة النجاة من الغرق في حياة فرضت عليها، كانت محاولة للهروب من الموت.

لم تحصل "همت" على إجازة شهر عسل، بل كانت ثلاثة أيام إجازةاعتيادية فقط، لتترك الجنة وتعود إلى عملها.

غرقت في عملها بالسفارة حتى المساء، عادت وكلها مجهد، ولكن في الوقت نفسه تتلهف على البيت الذي يعطره "عدنان" بوجوده.

كان يوم الخميس موعد الصالون الفني، فلقد مرت عدة أسابيع توقف فيها الصالون لظروف سفر "هيلانة"، ثم زواج "همت"، عاد الصالون، وكانت "همت" في كامل أناقتها وجمالها، ومعها "عنود" وتغيبت "هيلانة".

كانت "همت" في حالة مختلفة تتكلم في هدوء وبصوت مفعم بالسلام والسعادة،أحست بذلك د.سهام التي كانت تتأمل "همت" في حب وفرحة لأنها ولاول مرة تشاهدها سعيدة.

كان موعد الفاصل بين الفقرات لتنفرد د. "سهام" بهمت وتسألها:

ما بك يا "همت"؟ أنت الليلة مختلفة، شعاع ما يخرج مع كلماتك ونظراتك، هل عاد "شريف"؟

- "شريف"؟!

انقبضت "همت" من سماع اسم "شريف"، وكأن هناك من ألقى فوق رأسها دُلي من الماء الصاقع، لتستفيق، تصحو على حقيقة أنها مازالت زوجة "شريف" أمام دكتورة "سهام" والناس، وزوجة "عدنان" أمام الله ورسوله.

- "شريف" ! لا أعرف عنه شيئا، حاولت أن أصل إلى أي معلومات تطمئني ولكن لا شئ، من يعرف أخباره هو الدكتور "سرور" يا دكتورة "سهام".

هيا لنبدأ الفقرات، هناك مفاجأة سوف أذهلك بها الليلة.

بدأت الفقرات، وكانت المفاجأة فتاة هندية تتحدث العربية، لأنها تعيش باليمن لسنوات طويلة مع أسرتها التي تقيم هنا، حيث يعمل والدها في الترجمه معها بالسفارة، أحضرها يوما معه في حفل تعارف للموظفين الجدد وتقربت من "همت" وتعلقت بها.

كانت الفتاة تلقي شعرا باللغتين الهندية والفارسية.

ألقت بعضا من رباعيات الخيام بالفارسية، ثم قامت بإلقاء القصيدة نفسها بالعربية"

انظر العمر كيف يمضي حزينا

فابتدره فسوف يودي و يقضي

ما رأيت الهناء عمري فلهفي

لحياة كذا تمر وتمضي

إذا ما أتينا خاشعين لمسجد

فلم نأت نقضي للصلاة فروضها

ولكن سرقنا منه سجادة

ومذ عراها البلى جئنا لكي نستعيضها

ثم أبيات من أشعار "طاغور"، و "رافيندار برايهات"، "أتال بيهاري فاجباي".

كانت الليلة أدبية في أغلبها، إلا من أغنية بصوت فتاة يمنية من الفلكلور اليمني، أضفنا لصالون الحرائر كلمة ليالي ليصيرأسم الصالون "ليالي الحرائر".

انقضت الليلة بضحكاتها،وأحاديثها الشيقة في الفن والأدب والسياسة، وأحلام نسجت اشترك في غزلها ونسجها كل الحاضرات، ليتم تنسيق جدول الصالون في لياليه القادمة بمشاركة من الجميع.

حين مغادرة "همت" و "عنود"، شعرت "همت" بألم في معدتها وقئ لم يتوقف.

يغشى "عنود" القلق، ومخاوف أحتفظت بها في داخلها، أخذت د. "سهام" "همت" ومعها "عنود" إلى العيادة الملحقة بفيلتها، وأضاءت الأنوار، وطلبت منها النوم على السرير، وعملت لها كشف سونار، لتظهر علامات التعجب والدهشة على وجهها.

لم تتكلم، واكتفت بأن قالت لها: مجرد ميكروبات سوف أكتب لك بعض المطهرات وفيتامينات ستحتاجينها، لأنك ترهقين نفسك كثيرا.

طلبت د. "سهام" من "عنود" أن تقوم بعمل مشروب ساخن بنفسها لـ "همت"، لأن "أروى" مساعدتها اليمنية قد انصرفت باكرا اليوم لظروف خاصة بها.

طلبت من "عنود" ذلك لكي نتحدث معا، وسريعا قالت:

- "همت" أنت حامل !

- ماذا؟ حامل.. مستحيل، تملكها الارتباك والخجل، وسخونة تسربت بكامل جسدها لتسبح على وجهها.

- "همت" هل تخفين عني شيئا؟! أعتبر نفسي أختا كبرى لك، بل أما، هذا إحساسي تجاهك منذ تعرفت عليك، لاتخافي مني، سأكون لك سندا ومعينا.

الحمل تقريبا في شهره الثاني و"شريف" غادر منذ عدة أشهر .. ابن من هذا؟

إن كنت تبادلينني الشعور وتطمئنين لي أخبريني، كلي آذان مصغية.

طرقات على الباب، تدخل "عنود":

- سأخبرك أنا د. "سهام"، لا يأخذك الخيال لتصور ما يشين "همت".

لقد تزوجت من أخي "عدنان".

- تزوجت؟ تزوجت؟ وهل طلقت أولا لتتزوج؟

سألت في غضب.

- نعم د. "سهام" لقد طلقني "شريف" وأنت تعرفين ذلك، وها هي رسالة الفاكس التي أرسلها لي وأنا في ألمانيا.

- أعرف، وأعرف أيضا أنه لم يتمم أجراءات الطلاق يا "همت" ، أنت مازلت زوجته قانونا.

- هي مطلقة منه يا دكتور، ولقد مر على الطلاق أكثر من سنتين، لذا فلقد تزوجت شرعا، لم تخالف الشرع.

- ومن أفتى لك بذلك؟ من حرضك على ذلك الزواج؟

ألا تعلمين أن الطلاق أساسه النية؟ نحن لا نعرف نية شريف، ربما أعادك كما طلقك شفهيا.

- ماهذا التهريج يا د. "سهام"؟ هل حياة النساء لعبة؟! هل يفرض عليها أن تنتظر أن يتكرم عليها هذا " ال " "شريف" بأن يفصح لها عن نيته، وأنه لم يكن يقصد بيمين الطلاق أنه طلاق.. هل هذا هو ديننا؟

لقد طلقها "شريف"، وغادرها دون أن يدلها على الطريق إليه، إنه استخفاف من رجل لا يعرف عن الرجولة إلا التسلط والعنجهية والتفضيل الغير مبرر والذي هو بلا معنى.

- "عنود"، أنت لا تعرفين إلى أين تاخذين "همت" وإلى أي اتجاه، سوف يتم اتهام "همت" بتعدد الأزواج، سيضيع مستقبلها، وستسوء سمعتها في مجتمع لا تشغله تلك الصراعات الفقهية، فالزواج إشهار ووثيقة وعرس، إنكم تحطمون اسمها الذي بذلت الكثير في سبيل صنعه.

ألم تسألي نفسك كيف ستسجلين هذا المولود المسكين؟

تنظر "همت" في عين "عنود" في دهشة وصدمة لتسقط في إغماءة

***

الصفحة الرابعة والخمسون

- لم الخوف والحيرة يا "همت"؟ لا أزمة أراها، هل تفكرين في إجهاض حلمنا؟

إنه منحة من الله، لقد قلت لي ذات ليلة بأن هناك احتمالا كبيرًا أنك لن تكوني أما، ليكون القدر كريما ويمنحك طفلا دون سعي أو جهد منا، وأشعر أن هناك حكمة ما خلف تلك المنحة، هل تتخيلين عظمة الله المتمثلة في هذا الابن أو الابنة ؟!

- ابنة يا "عدنان"، إن شاء الله ابنة.

- أرجو من الله أن تكون كما تتمنين، إنه الابن الذي سيحمل اسمينا ودمنا معا، سيجمعنا بعد أن كنا شتيتين.

- لكن كيف؟ كيف "عدنان"؟ وعملي، وجواز سفري المختوم حكوميا بأني زوجة لـ "شريف" المسافر الآن إلى مكان مجهول.

- الحلول كثيرة.. لا تحملي هما.

اسمعي، لابد من تقديم طلب إجازة لنسافر معا إلى فرنسا أوألمانيا، أو حتى الدنمارك، لي معارف في هذه البلدان، سنستخرج شهادة ميلاد لابننا هناك .

- لكن الظروف والضغوطات بالسفارة لا تسمح بأن أتغيب أو أتقدم بطلب إجازة إلا بعد ستة أشهر، فلقد

أخذت إجازتي ولم يمر على عودتي من مصر إلا عدة أشهر، لا بد أن يكون هناك حل لطلب الإجازة، وإن لم تتمكني من ذلك فلا حل أمامنا إلا الاستقالة.

- لا.. أستقالة لا..

- لتختاري همت، أنا لن أفرض عليك أمرا ،إما عملك أو هذا الجنين؟

لقد صارت لك شركة وتجارة ولستِ في حاجة لعملك في السفارة.

إن كنت ترين أن عملك بها أهم فلتجهضيه، لن أجبرك على أمر لا تحبينه، فسبق وقلت لك إنك أهم عندي من العالم كله، لكن فكري في تلك المعجزة والمنحة الربانية التي قدمها لنا الله، له في ذلك - لاشك - حكمة. "جلست في حالة من الغياب عن الوعي، فالمفاجأة عظيمة وعقلها مشوش، كانت تقضم أظافرها وهي عادة لم تغِب عنها منذ كانت طفلة، كلما تعرضت لأزمة أو دخلت في امتحان، أو استغرقها التفكير في أمر ما، تعود إليها.

***

الصفحة الخامسة والخمسون

"الأمر كان سريعًا، والأخبار كثيفة ومتشابكة، والمصائب عادة لا تأتي فراد.

ولم تكتمل يومًا سعادة لأحد، فكلما ظهرت فهي كما القمر تتسع لتصير بدرا ثم تتناقص حتى تغادر، وكأن القدر يتربص بنا، يمنح بيد ويقطع بالأخرى، رنات على "البيجر" الذي منحته لها السفارة، يظهر رقم "عنود"، تغلق مكتبها وتتصل بـ "عنود"، تسمع صراخها وبكاءها الذي لم تتمكن من السيطرة عليه، كل ما جمعته من كلمات هي أن "عدنان" قد أصيب في عراك.

تجري من مكتبها وهي لا تكاد تعي كيف خرجت لتستقل إحدى سيارات الموجودة في ساحة المركز التابعة لعائلة الأحمر، والذي طلب من السائق ألا يتركها حتى يطمئن عليها.

تدخل أحد المشافي الحكومية، تجد "عنود" وقد غطاها الدم منهارة في ذهول وباكية، تسألها :

- أين "عدنان"؟ هل هو بخير؟ هل أصيب؟ هل جُرح؟

الكلمات تخرج من فمها بلا اتزان، وارتعاشات لم تتوقف وكأنه زلزال أصابهما معا.

- تعارك "عدنان" مع أحد رجال النظام الذي تعرف عليه أثناء وجوده بالبنك.

انتظره "عدنان" بالخارج، وسبه، ليمد الآخر يده بالسلاح مصوبا له، يدفعه "عدنان" أرضا ممسكا بحجر يضربه به ولكن تخرج الرصاصات لتصيب "عدنان"..

- انهارت "همت"، لتمسك بها "عنود"، وتحاول ان تستجمع أوصالها، وتتجه نحو غرفة العمليات لتسأل عن حبيبها وابنها ووالد ابنها.

يمنعها طاقم التمريض:

- تجرى له الآن جراحه خطيرة.. ممنوع الدخول..

كلمات الحزن ثقيلة، حبرها حالك، تنزلق قطراته على الورق بقعًا تحرق، لا تعبر عما يدور في قلوبنا، عاجزة عن التنسيق، صوتها مكتوم، دموعها من شوك وحجر.

كلمات الحزن لا يحملها اللسان، كاذب من ادعى أنها سوداء، فالسواد لون الليل الرطب لصيف سخونته لاسعة، ولا هي بيضاء، فالبياض لون الياسمين الناعم والفل وزنبقات العرس.

الحزن لا لون له، ولكن له رائحة، رائحة بلا اسم، كما رائحة الكبريت، تكتم الأنفاس.

كلمات الحزن تكبل الشفاه، تقطب الجبين بسلك ذي أشواك.

الحزن غياب أحبة، وانصهار ملامحهم في ذكريات تكوي القلب، تؤرق الروح، حتى تنخلع فارة إلى غيابهم، الحزن يرافق الأحلام حين تتخطى طريقنا منحرفة عنا إلى السراب.

تسمع خبر وفاة "عدنان"، وكأنه يوم" القارعة" وفناء العالم، لقد ماتت الحياة، وتوفى كل الأحبة، بل لقد خسفت الشمس، لم تع أيا مما حواليها، عاشت أياما رافضة الحياة، ورافضة العودة إلى هذا المسرح بعد غياب البطل، كانت تعيش على المنوم والمهدئات وكانت ترعاها د. "سهام" و"عنود" التي تحملت مصيبة قتل أخيها ومرض صديقتها وتحقيقات لم تتوقف معها، هي المكلومة بحرق (حماة) وقتل آخر عصب لها، رغم ذلك، ولأن القاتل شخصية حكومية فقد ضاع حق أخيها، وراح دمه، وتفرق بين ظالمين كثر.

وقعت تحت التهديد، وكان الأمر واضحًا، لابد أن تغادر اليمن، تلقت الأمر بنفس زاهدة، اعتادت الفراق، بل تذوقت الموت، واعتادت طعمه المر، واستساغت غياب الأحبة.

لكن ماذا عن "همت"؟ وبذرة من "عدنان" في رحمها؟ مازالت فسيلة أخيها مزروعة، وستطرح "عدنان"

آخر، لابد أن تتماسك وتستجمع شجاعتها، وتفكر كيف تحمي "همت" وجنينها.

باكية ومكلومة برحيل أخر جزء منها:

- "همت"، أرجوك حافظي على صحتك وعلى ابن "عدنان"، إياك أن تستسلمي وتقتلي "عدنان" مرة أخرى، كفاك مسكنات ومهدئات، كل ذلك قاتل لك ولابننا .. نعم هو ابننا أنت و"عدنان" وأنا.

بكت "همت" ولأول مرة تخرج من عينيها دموع، فلقد ظلت في حالة من الرفض ولم تتقبل الخبر إلا باعتباره كابوسا في نوم ثقيل، لم تتمكن من السيطرة على دموعها، لتحتضنها "عنود" باكية هي الآخرى.

- من هو قاتل "عدنان"؟

- الظلم "همت" قاتله، وقاتل شبابنا وأطفالنا، بل ومجهض لمستقبل هذا المجتمع المُبتلى بخونة.

- من قاتل "عدنان"؟ (قالتها صارخة)

- أحد رجال النظام.

- ما اسمه؟

- اسمعي همت، لاوقت لدي، لابد أن أرحل عن اليمن، وقد تواصلت مع إخوة لي في الدنمارك ولابد أن أستعد للسفر، ولن أغادر إلا بعد أن أطمئن عليك وعلى ابن أخي.

- تغادرين؟ ماذا يحدث؟ إنه كابوس.. لا شك أنني في كابوس، قولي لي إنني أحلم، أخبريني أنني أتوهم.. لا تقولي إن ما أعيشه هو الواقع.. لا أتحمل.. لا أتحمل لا أصدق أن "عدنان" الذي كان في حضني منذ لحظات راح من يدي، بل مرت أسابيع على فراقه! وأنت الآن تخبرينني بأنك لا بد أنك مغادرة.

- همت.. ما رأيك أن ترحلي معي إلى الدنمارك حماية لك وللجنين؟

فكري بسرعة الوقت ينفد من بين يدي ولابد من قرار سريع، لا مستقبل لابن "عدنان" هنا، فلا قانون سيعترف به وستتعرضين للقذف في شرفك، لامفر من المغادرة.

- كيف أترك أرضا جمعتني بـ "عدنان"، وفيها جثمانه؟! ما هذا العذاب؟! لماذا تستكثر علي الحياة أن تضمني مع حبيبي بالقبر؟!

- "همت"، لا وقت لدي، قد يكون هناك من يتربص بي، وقد أتعرض للقتل وأنت أيضا في خطر لو توصلوا إلى أي معلومة تربطك بي وبـ "عدنان"، كل المهجرين من فلسطين وسوريا تعرضوا للتحقيق وتضييق الخناق عليهم هنا، لولا وسطية الرئيس اليمني وتدخل بعض القبائل التي تكن عداوة للنصيرين لتم طردنا أو اعتقالنا.

- أعطيني فرصة لأستجمع قوتي وأجمع شتات فكري، أحتاج أن أعرف من هو قاتل "عدنان"، بعدها سأقرر إن كنت سأغادر معك.

- أنا أعرفه همت، لكن هذا الرجل لا يعرف ربنا والقتل عنده أمر يرتكبه كل يوم حتى صار بلا قلب.

- من هو؟

- أحد رجال حزب البعث، اسمه حيدر، هو مَن شارك في قتل أسرتي وأهل بلدتنا ومن اعتقل أخي.

الحياة صارت مخيفة، ليت الموت اختارني وترك "عدنان"..

تهطل دموع "عنود" وتعود ذاكرة تلك المجزرة حية وكأنها حدثت الآن، تبكي وتلقي بنفسها في حضن "همت"، التي تبكي هي الأخرى حبيبها وأخته، وكأن ذاكرة "عنود" انتقلت إلى "همت" وعاشت بجسدها وروحها المذبحة.

- لن تمر تلك الجريمة بلا عقاب يا "عنود"، إنه "عدنان".

الصفحة السادسة والخمسون

نهضت "همت" بعد أسابيع من الغرق في بحرالحزن الميت كما عادتها، فلقد اعتادت أن تتلقى الصفعات فما تلبث تستجمع شتات فكرها ثم تنهض واقفة، فلابد أن تقطع إجازتها حتى لا تثير الشكوك، ولكي توجد في الساحة، حيث "حيدر" قاتل زوجها.

كانت السفارة تستعد للاحتفال بثورة السادس والعشرين من سبتمير، وتتم دعوة السفراء لحفل كبير، وعلمت "همت" باسم ذلك المسؤول الذي مد يده بإنهاء حياة "عدنان".

عادت إلى البيت، وقد برزت في بؤرة تفكيرها فكرة الانتقام من قاتل زوجها، ومن تلوثت يده بذبح عائلته، وأخذت عهدًا على نفسها ألا يمر الأمر هكذا دون قصاص.

تصال من د. "سهام" وزوجها د."سرور" تذهب لتلبي الدعوة.

لأول مرة يدور الحديث بينهم بشكل رسمي وجاد:

د. "سرور": أتعلمين أن اسمي مدرج على قائمة المطلوب القبض عليهم في قتل السادات؟

- ماذا؟ أنت شاركت في قتل الرئيس؟

- لا، هل تصدقينني؟

صمت

- لم لا تجيبين؟ تصدقين أني قاتله؟ أليس كذلك؟

- ربما

- ماذا؟

- ربما تكون قاتله، نحن لا نتوقع كيف سنكون بعد لحظات، أمامك أنا كمثال، لم أكن أتصور أن فكرة قتل إنسان تتحول إلى أمنية وحلم، وأسعى إلى تحقيقها، بل أشعر لمجرد رؤية الدم يسيل منه براحة، كيف تحولت إلى تلك الشخصية؟! لاشك أنه الظلم، أنت حين تدافع عن حقك في الوطن، في الحفاظ على بيتك، في الدفاع عما تؤمن به نقول إنك بطل، وإن قتلت فانت شهيد، ليس كل قاتل إرهابيا، الإرهاب أن تسلبني إنسانيتي وحريتي .... ربما كنت تدافع عن قيمة حين قتلته..

- كلامك به الكثير من الحكمة والصدق، ولكن بالفعل يا ابنتي، أنا لم أقتله ولم أشارك في قتله، ربما تمنيت أن اقتله، لأنه وضع يده في يد من قتلوا أبناءنا، وسلبونا أرضنا المقدسة، مدعيا أنه السلم الذي تنادي به الأديان، ونحن نرى أنها خيانة، كرهته لأنه شبه نفسه بأتاتورك محارب الإسلام في تركيا، إلا أنني لم أقتله، كيف أشارك في قتله وأنا كنت هنا باليمن أنا وعائلتي؟!

لكن ما زلنا نؤمن أن مجابهة الظلم فرض، وهناك أفراد عاثوا في الأرض فسادا، وأنت بنفسك شاهدت ذلك، وقتل صديق لنا، مسالم، كان يجاهد لأجل لقمة العيش، ولتأجير وطن له، فإذا باليد التي غدرت بأسرته وبمحافظته تستكثر عليه الحياة، تمتد لتغتاله هنا، ونحن نسعى للقصاص لكل سوري تم قتله او سحله أو"اعتقاله" ، لديك الفرصة لمساعدتنا ومساعدة نفسك، إن كنت تتفقين معي، أما إن كان لديك مانع فأنا سأحترم ذلك منك، ولننس مادار بيننا من حوار، أنا وضعتك تحت الدراسة، وتابعتك بنفسي، وساعدتني د. "سهام" في ذلك، وهي تثق بك ثقة بصيرة.

- كيف أنتقم لـ"عدنان"؟

- جميل، اتفقنا على المبدأ تبقى الطريقة، أريدك كما تعودت أن تقيمي معرض للوحات عربية سورية، لا يحضرها إلا رجال البعثة السورية ومعهم ذلك القاتل واتركي ما تبقى لنا..

- تمام، سهل جدا.

- لن أطلب منك طبعا أن تنسي مادار بينا كأنه لم يحدث !

- لم يحدث.

- كما أنك لابد أن توجدي بعيدا عن المعرض وفي مكان يوثق حضورك، حماية لك ودليل براءة مما

سيحدث.

- سأكون موجودة في المركز الثقافي اليمني.

قمت بترتيب زيارة للوفد السوري لذلك المعرض، ولكن لظروف دعوة السفي وبعض رجالاته على العشاء مع الرئيس علي "عبد الله صالح" ونائبه "علي سالم البيض" لم يحضر قاتل "عدنان" المعرض، بل وجد في الاحتفال ومعه مجموعة من حزب البعث السوري، فشلت خطة د. "سرور"، والتي لم أعلم عنها شيئا، ولكن سأوجد حيث قاتل حبيبي في الحفل.

ارتديت فستان سهرة باللون الزهري، ووضعت المساحيق، وخلعت عن رأسي الطرحة، وذهبت إلى الحفل، تعمدت أن ألفت أنتباه ذلك الـ "حيدر" الذي جذبه كوني مصرية، يدور حوار بيننا عن أحداث سياسية في مصر وما يحدث في الكويت والعراق وماهي إلا حوارات مسرحية لاموقع لها منطقي أثناء الحفل..سايرته فيما يطرح من نقاشات والتي تخللها غزل يتوارى خلف جمل سياسية مثل

- مصر بلد ملهم، بلد يستولد الجمال إن لم يولد وحده، هي بلد مزيج من الجمال التركي والعراقة الفرعونية..

مصر بلد مثير، لاينام.. بلد عاشق للحب وللمرأة.

"لا أجد تفسيرا، فكيف لشخصية تتذوق الفن أن تمسك بندقية وتقتل.. كيف يجتمع داخل هذا ال حيدر ذائقة فنان وسادية قاتل".

- كنت أتمتم ببعض الكلمات موافقة لأغلب جمله، التي كانت تنزل كما حجارة من سجيل فوق رأسي، لترتفع سخونة جسدي كرها له، وللحظة التي أعيشها معه والتي جمعتني به.

مدحت ذوقه وثقافته الفنية ودعوته بشكل شخصي للمعرض المقام بصنعاء لمجموعة من الفنانين اليمنين والمصريين بل والسوريين، ووعدني بحتمية حضوره ما دمت أنا من نظمت ذلك المعرض، بل وأنه سيشتري أية لوحة تروق لي، ثم تطرق الحوار حول عشقه للفودكا، فدعوته إلى كأس في حجرة مكتبي ليستريح قليلا من زحمة البروتوكولات، ولكي أتمكن من إقناعه بضرورة حضور المعرض.

كانت كاميرات المراقبة كبيرة، وغير حديثة، وسهل تجنبها، فاليمن بلد بسيط وفقير.

صببت كأسين، وتجرعت القليل من كأسه حتى يطمئن إلى أنه يخلو من أي سم، فهي إجراءات روتينيه حين تشغل منصبا حساسا كمنصبي، ثم ناولته الكأس، كانت الرغبة تتأجج في رأسه، وضع مكعبات الثلج في كأسه، حاول وضع البعض في كأسي، ولكنني تحججت بأني أفضل الفودكا دافئة، تجرع عدة كئوس

ليتلقى نداءً على البيجر الخاص به، يستأذنني في الخروج للضيوف لينصرف، أقوم بغسل الكؤوس، ومسح البصمات عن القارورة، وأية بصمات له أو لي في المكان، وألحق بالضيوف، حاولت أن أتجنب الكاميرات، وبالفعل لم تسجل الكاميرات دخولي أو خروجي.

- اتصلت بدكتور "سرور"، وأخبرته بتغيير موعد حضور "حيدر" ومن معه، ليطلب مني في عصبية لم أتوقعها عدم الاتصال به فهو على علم بكل ماحدث.

بالفعل أرى "حيدر" للمرة الثانية بالمعرض، أصحبه في جولة حول المعرض، ويقوم بشراء كل لوحة أقف أمامها، أو أمدح من قام برسمها.

حجز أكثر من عشرين لوحة، دفع فيها مبلغا كبيرا، كل تلك الأموال كانت من خزينة أهل سوريا.

فجأة أصاب بالغثيان، أستأذن منه للتوجه إلى الحمام، يرسل معي أحد حراسه ليطمئن على حالتي الصحية، أطلب من الحارس أن يعود إلى رئيسه وأن يعتذر له عن غيابي، وأنني اضطررت إلى أن أنصرف.

عدت إلى البيت، ولم أعلم ماحدث إلا من الإعلام..

ينتهي المعرض، وتغادر سيارات الضيوف.

في اليوم التالي نسمع عن إنفجار إرهابي في سيارة أحد موظفي السفارة السورية ومن معه، وأن هناك

تحقيقا، وحملة للقبض على كل من التقى بهم حيدر ويأتي دوري.

لم يمت "حيدر" بالسم الذي أذبته له في الفودكا ومات منفجرا.

الصفحة السابعة والخمسون

لم أرتعش، ولم أشعر بالخوف، كنت قد هيأت نفسي للموت، فلقد سئمت الفراق وسرقة تلك الحكومات الفاسدة لسعادتي، تذكرت أخي الذي تم اغتياله في بلد لجأ إليه بحثا عن هواء نظيف، ليعود جثمانا مسجى داخل تابوت، واسما مكتوبا على جانب التابوت وكأنه لا شئ، والآن "عدنان" الذي لم يرتكب جرما سوى أنه معارض سلمي للنظام، سيرتي وسمعتي الطيبة منحتني صلاحيات لم يسمح بها لغيري، تمت معاملتي بلطف، مجرد تحقيق سؤال وجواب، علمت أنه تم تفتيش بيتي، ولم يسفر عن أية أدلة قد تدينني، كذلك مكتبي الذي قال أحد الضيوف إنه دخله بمفرده، بالفعل لم يلحظ أحد دخولي مع "حيدر"، كنت قد سبقته إليه، وخرجت بعده دون أن يلاحظني أحد.

كنت أشعر بأن يدا بل أيادي تساندني من بعيد، وتفسد أية محاولة لإدانتي، فكيف لم تعثر الشرطة على عقد زواجي من "عدنان"؟ بل كيف اختفت صوري وعقود الشراكة مع "عنود"؟ بل كيف غادرت "عنود" بتلك السرعة؟

كل ما حام حولي هي شبهات، ولم يتم إيجاد أدلة دامغة تثبت تورطي في شرف قتل هذا الباغي، ولكن كانت التحقيقات طويلة، ويحضرها بعض رجال الحزب

السوري الحاكم، مما ضغط على أعصابي، كنت كلما رأيتهم ترتفع حرارة جسدي، ويزداد غضبي، وتظهر ملامح البغض في نظراتي

- ماذا كان "يفعل" حيدر بيك في مكتبك؟

- لا أدري.

- كيف لاتدرين؟ هل اعتدت ترك مكتبك مفتوحا هكذا لأي مار؟

- لا، ربما نسيته لأنني كنت منشغلة بالضيوف، وغارقة في متابعة السرفيس، واستغرقني الامر تماما.

- لوحظ أن "حيدر بيك" كان يقف معك، ويسامرك في تلك الليلة، عم كنتما تتحدثان؟

- مجرد أحاديث عادية حميمية، وعن حبه للفن التشكيلي، ورغبته في حضور المعرض .

- هل دعوته لمكتبك؟

- لا.

هل كنت تستدرجينه لحضور المعرض والتآمر ضده لقتله انتقاما لشقيق صديقتك.

- هل أضيع مستقبلي لأجل صديقة لي؟

يتدخل أحد السوريين المسؤوليين:

- قتلت رجلا له بطولات في محاربة الإرهاب، هي واحدة منهم، من هؤلاء المتآمرين ضد الزعيم الخالد.

حاولت أن أتماسك، وألا أستمع إلى تلك الخطب الكاذبة التي تصب في عقولنا، ولكن رغما عني لم أتمكن من أن أدعي اللامبالاة :

- هل المجازر التي ارتكبتموها صارت بطولات؟

ذبحتم أطفالا وشيوخا ونساء ورجالا مسالمين بسلاح تم شراؤه من أموال شعبكم، رفعتم السلاح في وجه أبنائكم وإخوتكم، ولم ترفعوا حتى سكينا في وجه العدو الحقيقي، عن أي بطولات تتحدثون؟!

أنتم مجرمون سفاحون قتلة، قتلة، دمرتم سوريا، ويدكم ملطخة بدماء أهلها، الله ينتقم منكم.. قتلة! قتلة!!

تنهار "همت"، وتسقط مغشيا عليها، يتم نقلها إلى مستشفى العاصمة تحت الحراسة.

الصفحة الثامنة والخمسون "

تجمعات أمام باب المستشفى من جنسيات مختلفة: فلسطينيون، سوريون، سودانيون، صوماليون ومصريون، يهتفون باسم "همت" المصرية، ويطالبون بالإفراج عنها، سرت شائعات في صنعاء مختلفة حول "همت" و"عدنان".

هناك من نشر شائعة أن "همت" مترجمة جميلة، وزوجة مصرية مخلصة، حاول "حيدر" أن يغويها، فدافعت عن شرفها بالتخطيط لقتله.

وهناك شائعة أن "همت" من أصول سورية، انتقمت للمذابح التي حدثت لأهلها في سوريا.

وهناك من أشاع أن خلافا بين الرئاسة المصرية والسورية كانت وراء اتهام "همت" بتلك الجريمة نكاية في "مبارك".

وأسهم في بطولة "همت" الأجواء المحافظة في اليمن، وحداثة خروج المرأة إلى التعليم والعمل، والمناشدة باحترام المرأة، كما أن القبلية التي تسيطر على الأوضاع هناك كانت حامية لـ "همت"، لما لها من علاقات مع ذوي أبناء كانت تعلمهم يوما.

ومرتادات الصالون الأدبي اللاتي تعلقن بها، واتخذن منها نصيرة للعلم وتحرير المرأة، كل ذلك أثار الكثير من التعاطف معها ومناصرتها.

تم توجية تهمة التآمر، والمشاركة في قتل حيدر ومن معه لـ "همت"، وبدأت محاكمتها في محكمة صغيرة في أطراف العاصمة منعا للفوضى.

القاضي :

- "همت"، أنت متهمة بالتآمر والمشاركة في عملية إرهابية راح ضحيتها "حيدر المهمزاني" وسائقه وإصابة أبرياء ، ما قولك؟

- غير حقيقي أنا لم أقتل السيد "حيدر"، ولكن تمنيت أن تتاح لي الفرصة لقتله، كيف اتآمر لقتله بالتفجير وكنت سأتعرض للقتل مثله، فلقد كنت أصحبه في جولته داخل المعرض.

ليت كان لي شرف قتله قبل مذبحة (حماة)، ربما كنت منعته من ذبح الآلاف من الأبرياء.

سيدي أمنحني فرصة للكلام..

- تفضلي

- تعلمنا في كتب التاريخ والفلسفة منذ نشأة المدنية أن هناك عقدا اجتماعيا بين البشر، يخول لي أن أمارس

حريتي في الاعتقاد، في تملك بيت، في العيش بحرية على ألا أتعدى على حرية الآخر.

هذا هوالعدل الذي لم نلحظ له ملامح في تلك الأرض الموبوءة بالظلم، ننتخب ولي الأمر ليطبق القانون، ويحترم الدستور، ويحافظ على حريتنا في العيش في ظل حقوق كفلها الله والقوانين للإنسان.

حين يكون القائم على تنفيذ القانون، ضاربا له عرض الحائط، بل متعسفا في الظلم فلاشك أنه يخلق الإرهاب ويصنع أجيالا من الإرهابيين الذين يؤمنون بأن من حقهم القصاص لأنفسهم، ما دام قاضيهم ظالما بل هو قاتلهم، مادمنا قد رجعنا إلى زمن "قانون ساكسونيا"، حيث تطبق العدالة على الفقراء فقط، ويجري القصاص من ظل الغني، ولا احترام لعقد ولا دستور، بل هو الطمع في الكرسي، واعتقاد الحاكم أنه من نسل الألهة، وكأننا في بلاد الإغريق، فلا يحق لنا الاعتراض أو المناداة بالعدل والمساواة، فأين نحن من ابن الإله؟!

أنا لم اقتل "حيدر بيك"، ولا أعرفه، ولكني تمنيت أن أقتص لكل مظلوم، ولكل أم مكلومة بقتل وليدها، وكل طفل أريقت دماؤه وهو لم يرتكب ما يستحق عليه القتل، ولم يستطعم الحياة بعد.

سيدي أنا غير نادمة على كلامي، وأعترف بكل كلمة قلتها، وكل سب ألقيته في حق هذا الخائن.

كان هناك من يسجل كلمات "همت" كتابة ليتم تداولها بعد ذلك.

استمع القاضي إلى كلمة "همت" في حماس، ولم يقاطعها، وكأنه كان معجبا بها وبشجاعتها، وقدعرف عنه رفضه للنظام السوري، ولكن القانون والضغط السياسي كان هو الذي يدير تلك المحاكمة.

بدأ الدفاع يسرد ضعف الأدلة التي تم جمعها في تلك القضية، إلا من شهادة الضيوف بأنه دخل إلى مكتبها، كما أنها كانت ترافقه، وتتحدث إليه في المعرض.

صدرالحكم على "همت" بالإعدام.

الصفحة التاسعة والخمسون

كان الحكم صادما للجميع، وخرجت الصحف تشجب الحكم والظلم الذي تتعرض إليه امرأة كان لها إسهامات طيبة لليمنين، وأن إعدامها إهانة لشرف الرجل اليمني، فكيف يتم إعدام امرأة رغم ضعف الأدلة، واستنادا لضغوط سياسية.

تم نقل "همت" إلى أحد المراكز بصنعاء إلى حين ترحيلها إلى السجن، لتفاجأ بزيارة من والد "عائشة"، تلك الطالبة التي حاولت تزوجيها لـ "شريف"، وكان رجلا له هيبته وعلاقاته التي تمتد إلى بيت آل سعود بالمملكة.

دخلت "همت"، تصحبها امرأة من اليمن الجنوبي، سمراء، تمسك بها من ذراعها، أجلستها أمام مأمور المركز، الذي أخبرها بزيارة السيد "حمزة باكثير":

- السلام عليكم أستاذة

- السلام عليكم شيخ "حمزة"، أهلا بك، رغم أنه مكان غير لائق بالترحيب بك.

- يكفي أنك فيه أستاذة، نحن نعتز بيش والله، وكذلك ابنتنا التي لم تنم جلجا عليش وحزنا، وعدتها أنني سازورش وأطمئن عليش.

كان الشيخ "حمزة" يتحدث باللهجة اليمنية، حيث ينهي الخطاب إليها بإضافة حرف ال شين بدلا من الكاف في أخر الكلام، وتقلب القاف إلى جيم.

- الوقت ضيق يا أستاذة، لكن حبيت اطمنش لاتجلجين، لن ندع أحدا يؤذيش، أستودعش الله.

يتقدم عدد من المحامين من بلدان مختلفة بطلب الدفاع عن "همت" في الاستئناف، ويتقدم أحدهم بطلب تأجيل حكم الإعدام لأن المتهمة حامل، يقبل الطلب ويتم إيداع "همت" بأحد المستشفيات التابعة لوزارة الداخلية تحت الرقابة.

تستيقظ "همت" على أصوات تنادي باسمها امام نافذة غرفتها، تطلب من الحارسة الخاصة أن تشاهد ما يحدث من النافذة، تلبي طلبها، ولكن تطلب منها سرعة النظر والعودة إلى السرير حتى لا تتعرض للعقاب.

كان تحت النافذة عشرات من النساء والأطفال ينادون باسمها ويطالبون بإطلاق سراحها.

"همت همت، نحن فداش"

"بالروح بالدم نفديش يا غالية".

أحيانا هتافات يمنية، وأخرى عربية بلهجات شتى.

هل هي الصدفة التي جمعت كل نساء هذه الجنسيات ليجتمعن أسفل نافذتها؟

هل يعقل أن صدى محاكمتها وصل إلى كل هؤلاء ببساطة هكذا؟

أم أن هناك من يحرك تلك الجموع لتحريرها؟!

أم أن هناك غضبا بداخل كل عربي، وأملا في أن ينهض كل فرد للقصاص من الظالم، وقد وجدوا في "همت" ذلك البطل والأمل في أن يتحول كل مظلوم إلى خنجر في صدر كل لص يسرق سعادتنا؟!

سألت "همت" نفسها ":

- كيف لم تحضر د. "سهام" ود. "سرور" محاكمتها؟ هل هو الخوف؟ هل دفعتهم المصالح إلى التخلي عنها؟

لكن كيف حضر كل طاقم المحامين معا؟

لو كان عصر الرسل لقلت إن هناك جنودا من السماء قد بعث بهم الله إلي، ولكن من أنا حتى يحرك الله ملائكته لأجلي؟

أنا لا أخاف الموت، ولكني أخاف على ابن "عدنان" الساكن بطني وقلبي، أريد أن أراه، وأن يرى الدنيا، حتى لو مت بعدها، فأنا أعرف أن له أما أخرى، "عنود".

***

الصفحة الستون

ارفع أقدامي قليلا، فترابها يشوكني
معجون هو بالثلج وعظام الأهل والدم
حافية أنا من الضحكة، عارية من أمي
سلبوني صدرك، أعاروني خيمة
وبقايا يوسف ونفحة من اليم
ارفع أقدامي عن الأرض قليلا
راقصني، دعني أهذي بوطن
مغتم.
انقر طبول الحرب
فلقد أدمنت البارود
وتشييع الحلم
ارفعني عن الأرض.. حبيبي
راقصني قليلا.. ابعثني قليلا
دعني إلى عينيك أثرثر
فلقد أعياني الصمت

***

في لقاء مع المحامين الذين طالبوا بالدفاع عني، أول ما طلبته هو محاولة منع النشر في أية جريدة تباع في مصر، حتى لا يصل الخبر إلى أبي، فهو لم يبرأ بعد من مقتل ابنه الأكبر.

ثم طلبت أن يسلم ابني إلى دكتورة "سهام" بعد تنفيذ الإعدام.

أنا سعيدة لأني ساجتمع بـ "عدنان" هناك، في عالم يخلو من الظلم ومن القهر والدم، أراه دوما أمامي، وأتحدث إليه وأراقصه، وحين أستيقظ أشعر بلمساته بل رائحته تظل معلقة بأنفي، أتنفس زفير صدره النقي.

لم يكن من السهل الحفاظ على سرية المحاكمة، ولا منع دور النشر من تغطيتها، ليصل الخبر إلى مصر، والإعلام المصري، وتصير قضيتي ما بين مؤيد ومعارض، لاكت الألسنة أخباري، انتفض أبي وإخوتي يحاولون السفر إلى اليمن، لكن نظرا لظروف حرب تحرير الكويت لم يتمكنوامن المجئ ولا حضور المحاكمة، ولكن كانت تصلهم أخباري عن طريق أصدقاء لدكتور "سرور"، وجرى وإقناعم بالإطمئنان إلى أنني سأكون بخير.

صحوت ذات يوم لأجد نفسي في فراش وثير، ببيت واسع، ستائر نوافذه مسدلة، رأيت القمرية اليمنية بألوانها اللطيفة، ورائحة البخور العربي، والقهوة

اليمنية تعبق أنفي، نهضت أتحسس جسدي، فربما تم تنفيذ الحكم بإعدامي بعد أن تم تخديري، وأنا الآن بالجنة، إذن فهنا "عدنان"، ناديت: "عدنان"، "عدنان".

يفتح الباب لأجد أمامي عائشة.

- عائشة ! أين أنا؟

- أنت في بيتنا بقرية بعيدة عن العاصمة اطمئني أنت بخير.

- كيف حدث هذا؟

في ابتسامة طيبة أجابت:

- المهم أنش بخير.. لم يمس أحدهم شعرة منش.

دبر أبي كل شئ وجهز ليش جواز السفر لتلحجين باستاذة "عنود".

علمت بعدها أن الشرطة تلقت تهديدات بإجراء عمليات إرهابية من بعض اللاجئين العرب، سواء من مصر أو فلسطين أو سوريا، فكلهم لهم ثارات مع حزب البعث، ورجالاته الذين قاموا هم والمليشيات المارونية بمجازر راح ضحيتها عشرات من الفلسطينين في مجزرة "تل زعتر"، وآلاف من السوريين المعارضين الذين تم اتهامهم بالانتماء إلى جماعة إرهابية، وراحوا في مجزرة قتل بها الآلاف

في "جسر شغور" و"سجن تدمر" ومجزرة حلب وحماة."

تم الاستغناء عني، وفسخ عقد عملي بالسفارة، ومنحت مكافأة عن فترة خدمتي، علمت بعدها أن تلك المكافأة كانت من جيب السيد الأحمر، ففصلي لجريمة خطيرة كالقتل تحرمني من كامل حقوقي المادية، مع نصيحة بوجوب مغادرتي اليمن، فلقد رتبوا مراسم إعدامي، وقدموا أدلة تنفيذ الحكم، ودبروا هروبي إلى بيت الشيخ "حمزة باكثير"، ومنه يتم خروجي من اليمن، اخترت أنا الرحيل إلى الدنمارك حيث عنود.

فيما بعد اتضح لي الكثير من الأمور التي كانت في وقت عصية على أن أفهمها، فلقد علمت بعد أن أمسكت بيدي كل الخطوط أن من كانت في ظهري دوما، تساندني وترفع من أمام قدمي العوائق وتذلل العقبات التي تحول دون تحقيق أحلامي، بل وكانت المانع الذي منع عني تعسف "شريف" ومحاولاته لإيذائي هي دكتورة "سهام"، بل سعت هي وزوجها لاستخراج جواز سفر جديد، بميلاد جديد، وجنسية لطالما تمنيت أن أحملها، هكذا منحني القدر الفرصة للعودة إلى اليمن وقتما أريد، فهنا يرقد الحبيب، وهنا التقيت بأهلي الجدد.

كان في وداعي عدد من شرفاء اليمن وسوريا وفلسطين وبلاد عربية أخرى، وقفوا صامتين إلا من

نظرات يملؤها الامتنان والاحترم والحب، كانوا يعلمون أن أي تلويحة قد تخلق الكثير من التساؤلات، وقد تتسبب في تسليمي للإعدام، اكتفوا بوداعي بالعيون، وألسنتهم تلهج بالدعاء لي ولابني الذي أوشك أن يخرج إلى الدنيا.

لن أنسى أنهم لم يتخلوا عني لحظة، ولم ينم لهم جفن وأنا في سجني، وكانوا ينفقون من أموالهم الخاصة لحمايتي ومعاملتي معاملة طيبة، وأحاطوني برعايتهم، حتى سنحت الفرصة، الحكومات وإعلامهم في واد والشعوب التي تنشد الوحدة في واد آخر.

تولى إجراءات المغادرة د. "سهام" وزوجها، ومعهما أفراد من عائلة الأحمر، وعائلات أخرى، آثروا أن يظل اسمهم سرا.

كانت لحظة مغادرتي اليمن لحظات قاسية، رأيت دموع د. "سهام" وبناتها، وتوافد عدد من مرتادات الصالون من فئات مختلفة بالمطار، وهدايا عينية تصحبني للذكرى، والأجمل والذي أثار دهشتي حقائب صغيرة مغلقة بإحكام، تم إرسالها مع حقائبي، والتي لم يتم تفتيشها بإيعاز من كبار الحكومة اليمنية.

احتضنت د. "سهام"، وودعتها بدموع لم أتمكن من كتمها، وهمست في أذنها:

- لك كل الشكر وجزاك الله عني كل الخير يا أمي.

رفعت رأسها ونظرت في عيني نظرات كلها حب وحزن لفراقي، ربتت على خدي وقبلته وغادرت باكية.

وكذلك "عائشة"، التي همست في أذني أنها لن تتركني، وسوف تأتي يوما إلي إما بمصر أو الدنمارك.

ودعت وطنا عشت على أرضه أسعد أيام حياتي، فلقد كانت علاقتي بالحزن والألم هنا لحظات قليلة.

كان جواز سفري باسم سيدة يمنية تدعى "نجوى علي موسى".

"عسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا ".. بهذا الاسم صرت امرأة أخرى، لاعلاقة لها بشريف ولا تنتمي إليه.

لذا كانت دكتورة "سهام" تبتسم حين قبلتني، وهمست في أذني: اليوم ميلادك "نجوى".

***

الصفحة الحادية والستون

كانت الأوضاع في القاهرة أيضا غير عادية، تحولات أقتصادية سريعة، بيع القطاع العام وتصفيته، لنتحول إلى رأسمالية غير مقننة، عشوائية، وارتفاع في الأسعار، وقد أثر ذلك بشكل ملحوظ على الطبقات الفقيرة.

تم بيع الكثير من المصانع، وتم تسريح الكثير من العمال، تمت تصفية العاملين بالمطعم الذي يعمل به الحاج "حسان" والد "شريف" للمرة الثانية، المرة الأولي بعد فصل السودان عن مصر، ومغادرة صاحب المطعم السوداني إلى السودان، وها هو يتم الاستغناء عنه للمرة الثانية.

وفي هذه المرة وجد فرصة العمل في أحد المطاعم عن طريق زبون اعتاد أن يتناول الكفتة على العربة التي يعمل بها "حسان" مع صديقه، رأف بحاله، واستخدم معارفه لإيجاد فرصة عمل لـ "حسان" في مطعم، يقوم بغسل الصحون، وأحيانا عمل السلاطة فقط، فمعاشه يبتلعه الغلاء وارتفاع الأسعار.

ظل هاجس الخوف من الفقر والجوع هو الصوت الذي يطارد عم "حسان" في شكل انفصامي، مرضي.

تقوقع عم "حسان" في بقعته على تلك الكنبة، شاردا أغلب الوقت، سريع البكاء، يتوهم المرض والعجز، وتوقف عن الزيارات والخروج إلا لصلاة الجمعة، ثم يمتنع بعدها عن الصلاة في الجامع، خشية الموت بعيدا عن بيته.

لم ينس عم "حسان" معاناته في بلدته الصغيرة التي يجري بأرضها النيل، وكيف عانى هو وأسرته الجوع بعد أن أبتلع فيضان النيل أرض أبيه، وراح في أثرها الأب حسرة، تاركا أسرة كبيرة من أربعة صبية وبنتين، ليضطر الأبناء إلى ترك الفلاحة، والعمل في السخرة في البلاد المجاورة، أو في عاصمة المحافظة، ثم يفرون إلى القاهرة بحثا عن فرص لكسب الرزق، فما يحصلون عليه من السخرة غير كافٍ، فمنهم من عمل كساعٍ بشركة حكومية، ومنهم من عمل في أحد مصانع الحلوى، ووجد "حسان" فرصة العمل كمساعد طباخ بأحد المطاعم، وكانت أجرته تكفي بيته، ويفيض منها القليل، والذي كانت تدخره زوجته، لا يتصور أن يعود إلى تلك الأيام الحالكة، وإن عادت فكيف سيكفي أسرته، وقد غادره الشباب والصحة؟

حياة عم "حسان" خلت من المتعة، قضى عمره ما بين عمله وبيته وإقامة الفروض بالمسجد المجاور لبيته، لا يختلط بأحد فيما عدا أخوته، لا يفوته عزاء لمن يغادر من أفراد بلدته أوعائلته، لكنه يمتنع عن

حضور الأفراح، جل همه ألا يخلو بيته من الخبر والأرز والسكر والدقيق الذي كانت تخبزه زوجته، إلى أن ارتفع سعر الدقيق، واعتادوا كباقي القاهريين شراء الخبز من الفرن، وعانوا في عصر السادات من أزمة ارتفاع أسعار اللحوم والدواجن وقلة البيض، فكان يقف بالساعات أمام الجمعية لكي يحصل على دجاجة أو بعض اللحم المجمد والأرز.

كان يسأل زوجته ونفسه: هل ستعود تلك الأيام ثانية؟ هل ستختفي اللحوم والدجاج ويعودون إلى العراك حول دجاجة بالجمعية؟ هل ستمنع أمريكا القمح انتقاما من مصر لإلحاقها الهزيمة بإسرائيل؟

أسئلة يطرحها عم "حسان" على زوجته التي لا تفهم أيا منها، ولكنها تردد كلمات حفظتها عن شيخ الجامع الذي اعتادت أن تحفظ به القرآن:

- اطمئن لن يضيعنا الله.

فيرد: ونعم بالله.

وتهتز الكلمات تحت جائحة بكائه كما الأطفال.

- أنت عارفة يا بت يا "سميحة"، أنت فيك شئ لله، وطيبة، وربنا هيكرمك، "شريف" هيبقى غني وهيخلي باله منك، هو غلبان بس عصبي شوية، لكن هو بيخاف ربنا، وهيبعت لك فلوس، واحنا مش هنحتاج لشغلي تاني، ربنا يحميه ويغنيه من فضله.

- أيوة يا حاج ادعي له، لأني شايفه كدة منامات مش مطمناني، مفيش رسالة واحدة منه تطمنا، حتى "همت" بطلت تبعت رسايل.

- والنبي ما تنكدي علي، أنا مش ناقص، اتكلمي عن أي حاجة تفرح..

- في .. ، مراة اخوك كلمتني عن "سناء" تاني.. عاوزاها لابن أخوك، وخايفه أكلم "سناء" لأنها بتقول أنها مش بتفكر في الجواز، صوتها تملي عالي، مش عارفه عيالك طالعين عصبيين لمين؟!

- ليك، ولا أنت مش واخدة بالك أنك عصبيه وشديدة.. ده أنا بخاف منك.

تبتسم "سميحة"، وتقدم كوب عصير الليمون لزوجها، وتطلب منه أن يتركها تشاهد المسلسل العربي.

بقدر فهمها البسيط كانت "سميحة" تقدم مشورتها لعم "حسان"، وتحاول الترويح عنه بتكرار كلمات الوعظ التي كانت تتلقاها من المسجد في درس الجمعة، وتذكره بأن فضل الله عظيم وأنهم تمكنوا، رغم بساطة دخلهم، وبالقليل الذي كان يرسله لهم "شريف"، من بناء بيتهم في منطقة دار السلام، وقد أتما مهمتهما في تربية "سناء" و"شريف"، فهم ليسوا في حاجة إلى عمله، وأن من حقه الراحة، فلقد شقي طوال شبابه، وأنه الآن دور أولادهما في أن يردوا لهما الجميل.

كانت نصائحها رغم بساطتها تحمل من الحكمة الكثير، تهدئ عم "حسان"، ويشعر بالأمان لساعات، ثم تعود إليه الوساوس والكوابيس، ليصحو باكرا ليلحق بالفرن لشراء الأرغفة وتكديسها في الثلاجة، أو يطلب من زوجته لفها بقماش أو جلابية قديمة للزمن، تسوء حالته يوما بعد يوم، تلاحظ "سميحة" بكاءه فوق السجادة متوسلا لله ألا يعيدها أياما، صار يلقي بتهمة البذخ والإسراف وعدم تحمل المسؤولية على زوجته وعلى "سناء".. لتتعرض "سناء" من حين إلى آخر للانهيار، وتلقي بالدعاء على نفسها بالموت حتى تستريح مما تتعرض له من ضغط نفسي من أبيها وخلافاته مع أمها ومعها.

قنن "شريف" علاقته بأبيه وأمه، بأن اكتفي بأن تكون مادية فقط، هكذا تعاملت أمه وأبوه معه وهو صغير، كانت مجرد احتياج للمصروف، فلم يداعبه وهو طفل، ولا ربت أو تحسس رأسه لحظة مرض أو هكذا رأى "شريف" الأمر، وازداد الجفاء بعد أن سمع أنه كان قد حجز لفترة بمستشفى للأمراض النفسية والعصبية، لم يلطف ذلك الخبر حدة العلاقة بينه وبين أبيه، بل صارت وصمة عار يهرب منها "شريف"، بل زادت من نقمته على تلك الأسرة التي نشأ بين جدران شقتها.

لم يشعر "شريف" بتأنيب الضمير حين انقطع عن مراسلتهم، وحين اكتفي بإرسال مبلغ من المال مع أصحابه أو بإرسال حوالة بريدية باسم أخته، وكأنه يسدد دينا ماديا لأبيه.

هكذا صارت "سناء" هي العائل لأسرتها ولنفسها، تستثمر ما يرسله أخوها وجزءا من راتبها في البنك أو في بناء البيت الذي اشترى أرضه الأب.

ذات صباح استيقظت "سناء" على صرخات من غرفة نوم أمها، وتهليل وتكبيرمن أبيها، وبكاء أمها بصوت يعلو كلما ارتفع صوت الأب بالتكبير.

تهرول "سناء" إلى غرفة نوم أمها وأبيها، تطرق الباب، ولأنها لم تسمع صوتا يسمح لها بالدخول وما زالت أصوات الأم والأب في ارتفاع، تقتحم الغرفة، وتجد أمها تحاول أن تمسك بوالدها في محاولة لتهدئته، وقد أنهكت حتى ارتمت على الأرض، وقد وضعت رأسها بين يديها باكية:

- كان مخبي لنا فين يارب، الواد وضاع مني، وما اعرفش عنه حاجة ودلوقت الراجل بيقع مني وبيضيع

- في إيه يا ماما؟

الأب يجري، وقد فتح حافظة نقوده، وأمسك بجنيهات ورقية، وألقى بها من النافذة.

تحاول "سناء" الإمساك بيده، تفلت منها الجنيهات وتسقط في الحارة، تصرخ الأم، وتجري "سناء" هبوطا إلى الحارة، وتأخذ ما تم جمعه من جنيهات، قام الجيران بلمها، وإعطائها لها.

يسألها أحد الجيران:

- هو الحاج زعلان من حاجة؟

أنتم زعلتوه وطلبتوا منه حاجات مش قادر يشتريها؟

معلش يابنتي الاسعار جننت الناس.

لاترد "سناء"، وتكتفي بلم الجنيهات، والإسراع بالصعود للحاق بامها وأبيها.

تتصل "سناء" بعمها، الذي يحضر مساء، ومعه شيخ يثقون في قدراته على صرف الجن.

تسمع من الشيخ المصاحب لعمها أن أباها ملبوس من جن عفي، ويقوم بقراءة القرآن على زجاجة ماء، ثم يشرب منها، وبقراءة القرآن على ماء الاستحمام أيضا، ويقول إنه سوف يتحسن وتهدأ ثورته.

تسمع من أبيها كلمات دفعتها إلى البكاء:

- أنا باموت، أنا شفت الرسول، وأبويا وأمي بينادوني وأنا رحت لهم .

ساءت حالة الحاج "حسان"، وصار كثير البكاء والشكوى.

تصحبه "سناء" إلى طبيب باطنة لعمل التحاليل وفحص قلبه، ليؤكد الطبيب أن أباها لا يعاني من أي مرض جسدي، بل إن صحته في صحة شاب عشريني، لايعاني من ضغط ولا سكر، حتى رسم القلب يقول إنه قوي كما قلب الرياضيين.

تعرضت "سناء" وأمها لمعاناة طويلة لشهور طويلة لتستيقظ ذات يوم على صوت بكاء أمها وصوت ترحمها عليه والدعاء له بالثبات والرحمة.

مات الحاج "حسان".

***

الصفحة الثانية والستون

كانت الظروف طاردة لـ "عنود" و"همت"، ولفظتهما من اليمن، وكان لابد من الخروج سريعا،غادرت "عنود" إلى الدنمارك، وتلحق بها "همت" بعد أن تعرضتا ومعهما د. "سهام" وأسرتها للكثير من التحقيقات.

تمكنت د. "سهام" من النجاة من التحقيقات التي كانت ستطولها لدعم جماعة إرهابية، فلقد تم إلصاق تهمة الإرهاب بـ "عدنان" وأخته، ونظرا للعلاقة بينها وبين الصالون الأدبي ودكتورة "سهام" فقد طالتها التهمة، ولولا أعمالها الخيرية باليمن، وأهمية دورها كطبيبة نساء لا غنى عن وجودها بالعاصمة، لما تم غلق باب التحقيقات معها هي وزوجها، والاكتفاء بتحذيرهما بالطرد من اليمن إذا رافق اسمهما أية مشاكل سياسية مرة أخرى، لكنها لم تبعد عنهما، وقامت بتوصيل كل منهما إلى المطار، ولم تتوقف دموعها عن الهطول، والعجيب كان المودعات الكثيرات من ضيفات الصالون.

نظرت "همت" إلى المطار، وإلى البلد، وكأنها تحرم من وطنها الثاني، والذي عاشت على أرضه، ونعمت فيه بأوقات سعيدة مع "عدنان"، وصديقاتها، والكثير من معارفها.

كان الفراق قاسيا، تمنت أن تبقى حتى تبركا بأماكن جمعتها و"عدنان"، وأحلام نجحت في تحقيق الكثير منها، كان بلدا واعدا بأهله الطيبين، لكنه الفراق:

"أحبب من شئت فانك مفارق "

***

الصفحة الثالثة والستون

بعد أن استقرت أوضاع "همت" و"عنود" قامت "همت" بالاتصال بأسرتها، ليرد عليها "عبد الله"، وتسمع خبر موت أبيها.

تشعر "همت" بالكمد، فلقد انفض أحبتها من حولها واحدا تلو الآخر.

تمر الأيام، لتخرج "عاليا " إلى الحياة، حاملة جينات أبيها السورية وأمها المصرية، واسمها وجنسيتها اليمنية، والتي اعتزت بها، ولم تتأفف منها، بل شعرت بأنها الجنسية التي كان يجب أن تحملها مع جنسيتها المصرية، فلطالما شعرت بأن اليمن وطنها الثاني، وسوريا أيضا بلد زوجها الحبيب، وما كان يجب أن نعبر حدودا عربية بجواز سفر، ولا كان يجب أن يكتب في بطاقات الهوية اسم بلد، كان يكفي أن يكتب "عربي".

حاولت أن تغرس في ابنتها تلك الروح، وكانت تحدثها دوما عن كونها طفلة مميزة ،بل ومتفردة في تكوينها وتاريخها، حتى وهي رضيعة، كانت تتحدث معها وكأنها تفهمها، أردات أن تنمو أذناها على كلماتها العربية، وحواديتها التي أخفت منها الحدود.

- نجوى!

- أفضل "همت"

- لتعتادي على الاسم الجديد، ما رأيك في عمليات التجميل؟!

- لا أعترض عليها.

- أقصد ما رأيك أن نذهب لعمل بعض التغييرات البسيطة لك ولي؟!

- أنا راضية عن شكلي، يمكن وزني زاد شوية بسب الولادة، لكن إن شاء الله سأتبع حمية لإنزال الكيلووات الزائدة

- نجوى؟!

- ماذا؟ أتلمحين لشئ ما وأنا لا أفهم؟!

- أنت و أنا ما زلنا في خطر، موضوع هروبك سهل أن يعرف، وأعتقد للأمان لابد من أن نجري بعض التغييرات البسيطة في ملامحنا، وهذه الجراحة بسيطة وغير مكلفة هنا.

- ننسق بيننا، واحدة تعمل جراحة، وواحدة تقعد مع عاليا.

- سأقوم بالحجز بالهاتف، وأحدد موعدا مع الطبيب.

نصحو في يوم على خبر موت الرئيس السوري حافظ الاسد وتشييع جثمانه، تتلقي "عنود" خبر موته لتصرخ ودموعها تنهمر وتنشب أظافرها في وجهها

وتنخرط في بكاء لا ينقطع لساعات، وتوجه حديثها إلى الله: كيف يموت في سلام؟ كان لابد أن يتم تمزيقه كما مزق (حماة) ومعها الآلاف من السوريين، كان لابد أن تذيقه يا الله من عذابك ما أذاقه لنا، كيف يموت دون قصاص؟

حاولت أن أهون عليها وأنا المكلومة بمقتل زوجي وأبي، ولكنها كل أهلي وأهل ابنتي الآن، تركتها تفرغ شحنة غضبها لعلها تجد السلام.

- هل تعتقدين أن هناك فرصة الآن أن ألتقي بأخي المعتقل؟ هل سأراه؟ هل هناك أمل أن أجد أخي ليعوضني عن "عدنان"؟

آه يا الله..لم نحن؟

لم ابتليتنا بسوريتنا؟

لم خلقتنا في هذا الزمن؟

هل يصدق إنسان أننا تمنينا ظلم الاحتلال بديلا عن ظلم أخوتي السوريين؟

عذاب الاحتلال كان أخف وأرحم من قسوة قلوب أهلنا، خيانتهم كانت أخف من خيانة بني جلدي.

لم تمر إلا أيام قليلة حتى يصفعنا خبر تولي"بشار الأسد" الحكم، حيث تم تعديل الدستور، وتغيير سن المرشح للرئاسة، حتى تتاح الفرصة لترشح "بشار"،

الذي لم يتعد سنه الرابعة والثلاثين، هكذا تتم الأمور في بلاد قهرها الفقر والجهل والسلاح.

تلقت "عنود" الخبر في صمت وصدمة اعتادتها وكأنه تحصيل حاصل، ورردت جملة مصرية تنسب لسعد زغلول "لافائدة".

أحيانا يكون اليأس من التغيير مسكنا لآلام لا يتحملها العقل الإنساني، وتسليم المشيئة لله، والاستسلام لقضائه الذي لارد له إلا هو.

الآن يسقط "صدام"، وتسقط معه العراق.

في ٢٠٠٣ خرج علينا الإعلام بخبر غزو الولايات المتحدة للعراق، وشاهدنا سقوط العراق بيد الأمريكان، وتجوالهم بأرض العراق بلا مقاومة تذكر، هل من المعقول أن يختفي أكبر جيش في المنطقة هكذا بين يوم وليلة؟!

هل من المعقول أن يسقط صدام هكذا ويسحل كما خروف من تحت الأرض؟!

ماذا حدث هناك؟

وكيف فتحت كل الأبواب لهم بتلك السهولة؟!

ذهب العراق وأثاره الحضارية وبتروله وشعبه، كل ذلك أضحى تحت سيطرتهم وتحت أيديهم، وها ه وذا "صدام" يحاكم، ومن يحاكمه عراقي!

أظهر صدام شجاعة وصمودا يذكرهما له التاريخ، ويذكر للعراق تلك الخيانة التي فتحت بها أبواب هذه الدولة العظيمة.

إعلام ذو وجه متجمد بلا مشاعر يسرد آخر الأخبار، وغضب بداخل الجميع، ولكنه كما ثورة بركان داخلية تبحث عن منفذ للانفجار، الانفجار في وجه حكومات بلا انتماء أو هوية تنتمي لتلك الحضارات.

ينهار بلد كان قوة يحسب لها ألف حساب، الساحة الآن ممهدة لسقوط الجميع.

- يبدو أنه لا عودة لي إلى سوريا يا "نجوى"، لن أزور رفات أسرتي ولن أرى أخي ثانية.

لن أحلم ثانية، لا بالزيتون، ولا رائحة الياسمين ببستان ضيعتنا، لن ألمس ثلج الشتاء، ولن أسمع لهجتنا، كتب علي أن أتحدث لغة لا تروق لذاكرتي، وأن أرى وجوها لا تحمل قسمات شعبي، آه يا ربي آه كنت أرجو الله أن أمسك بيد "عاليا"، وأتجول بها في سوريا كلها، أريدها أن تدوس أرضا كانت مسجدا لرأس إخوتي وأهلي.

لم أر "عنود" بمثل هذا الضعف، ولأول مرة منذ موت "عدنان" أسمع نحيبها وأرى دموعها الغالية.

أخذتها في حضني، وتركتها تبكي، وبكيت غربتي أنا أيضا، وعشت القهر، أن يغرس أحدهم سيفا في صدرك، ويأمروك بألا تتألم أو تشتكي.

خرجت "عاليا" لتسأل عمتها عن عيد ميلادها باللغة الدنماركية، لتنهرها بأنها يجب ان تتحدث العربية، وأنا أجلس مبتسمة أمام التلفاز، أتابع أخبار مصر في قناة الجزيرة التي جذبت أنظار أغلب العرب المهاجرين، أبتسم، فلقد وهب الله "عاليا" أما ثانية..

تعدها "عنود" أن عيد ميلادها سيكون كما تحب، وأن هديتها موبايل حديث، تخرج "عاليا" للعب في حديقة المنزل مع جيران لنا من لبنان.

- "عنود"، لم أعد أتحمل الحياة هنا،نعم فرص العمل كثيرة، وأنت تجارتك اتسعت، لكني أشعر بالغربة، ويقتلني الحنين إلى مصر واليمن، أشعر أنه وقت العودة إلى مصر، إخوتي يحتاجونني، الغربة ستأخذ منا أحبتنا.

- و"عاليا" ؟! ستكون بصحبة من؟ أنت تعرفين أنني تعودت عليها، وتعلقت بها بشدة، وصعب أن أتخلى عنها، بها رائحة أخي وملامحه، لاتحرميني منها "همت".

- لنسافر معا إلى مصر، لاشئ يجعلنا نستمر هنا، لا لغة تربطنا ولا تاريخ، اللهم إلا المال، ونحن قد

اكتسبنا خبرة طويلة، وصار لشركتنا اسم متداول عالميا، لنفتح فرعا للشركة في مصر، وإذا نجح نستقر هناك، فمصر أولى، لا تنسي أن "عاليا" بنت، والعادات والتقاليد والثقافة هنا مختلفة، وسيأتي يوم لن نتمكن من أن تواجه ثقافتنا ما ستكتسبه من قيم غربية تناقض ديننا وعادتنا، أخشى على ابنتي أن تضيع من يدي هنا.

- دعينا نخطط للرجوع جيدا حتى لا نندم.

لا تنسي أنك يمنية الآن، وأستقرارك في مصر صعب، والأمن المصري لن يقبل باسمك المصري، لانه ارتبط في سجلاتهم بالجريمة التي ألصقت باسمك كإرهابية، لم أعتد التسرع في اتخاذ القرار، لابد من التريث والتفكير جيدا، الأمور معقدة جدا، خاصة لك، ألا تدركين خطورة العودة إلى هناك، وعلاقتك بـ "شريف" لم تنته قانونيا، و"عاليا" ما موقفها هناك؟ هي مازالت سورية يمنية، لاحق لها في مصر، ستظل ضيفا، وسوف تعانين الأمرين لأجلها، إلا لو تركتها معي، فهي معي في أمان، كما أن نزولها معك سيعرضك لمصائب، وربما يعرضها هي أيضا لمشاكل نفسية.

أنا لن أمنعك من السفر إلى مصر، وسألحق بك ومعي "عاليا"، ولكن بعد أن ترسلي لي برسالة أن الأمور بخير.

- أنا تعبت يا "عنود"، تعبت ولا أشعر بالسعادة، وموجوعة بابنتي، أعيش حياة ليست لي وكأنها حياة إنسانة أخرى، وكأني أؤدي دورا على مسرح، وأرتدي شخصية لا تروق لي.

- ما قيمة الأسماء يا "همت"، ما أهمية الجنسية أو النوع؟ أنت هي "همت" حتى لو حملت اسما آخر، بل هناك من يغير اسمه لأنه لايروق له، لا تصعبي الأمور على نفسك.

تبكي، وقد تغيرت ملامحها إلى ملامح سيدة حزينة أغلب الوقت، كانت تخفي الاسمرار تحت عينيها بالكونسيلر، وتحاول أن تدعي الابتسام، فصارت بسمتها وكأنها ملتصقة اصطناعيا على شفتيها، لم تتصور يوما أن تصل إلى هذة المرحلة من الحياة، أن تلد ابنة تمنتها طوال عمرها من حبيبها وتخفيها عن مجتمع سيتهمها بالزنا والخيانة.

- "همت"، نحن أسرة واحدة، لم يعد سهلا أن ننقسم أو نفترق، فلقد امتزج الدم بيننا، يجمعنا "عدنان" و"عاليا"، سأناقش الأمر مع "غسان"، ونصل إلى حل إن شاء الله.

الصفحة الرابعة والستون

دخلت "آمنة" على "هيلانة":

- كيف أنت حبيبتي؟

- "آمنة" لقد مللت الحبس هنا وكأني معتقلة، متى سيتم إجراء الجراحة لي؟

- كنا في حاجة إلى تنظيم الضغط والسكر، والتأكد من أن كل شئ آمن حتى ندخلك الجراحة.

تنتظر "هيلانة" أملاً لاح في الأفق بأن تستعيد ساقها، وأن تمشي كما الجميع، و"آمنة" هي من أعادت إليها هذا الأمل، فبعد زواجها انتقلت مع زوجها إلى لندن لاستكمال رسالة الدكتوراه الخاصة به واستكمال دراستها العليا هي أيضا، وعملت في مستشفى له اسم عظيم في جراحات العظام مستشفى "هامر سميث" بـ "وايت سيتي" غرب لندن.

دخلت "هيلانة" غرفة العمليات بعد أن تركت لأختها رسالة ولوحة لها، طلبت منها ألا تكشف عن الرسالة أو اللوحة التي أتمتها على ورق أبيض حتى تخرج من غرفة العمليات، كان مرفقا باللوحة عنوان في محافظة صنعاء باليمن باسم "همت".

والرسالة إلى زوجها الذي غاب أغلب الوقت عن متابعتها، واكتفى بالاطمئنان عليها تليفونيا، متحججا بانشغاله ببرنامج مكثف بالمنظمة.

حاولت "هيلانة" استدعاء الرؤية لعلها تخبرها بمصير ساقها، أو حتى مصير علاقتها بمظهر، أو حتى تنبئها بما يفعله بعيدًا عنها، كان كل ما تراه مجرد هواجس وأحلام هي من أملتها على نفسها، غير صادقة.

كانت تهرب إلى النوم لتتعجل اللقاء مع الأحلام، لتفك لغز الغد.. ولكن لاحياة لما تستحضره!!

***

الصفحة الخامسة والستون

همت

لا شئ يضاهي الحب أويتساوى معه، حتى الشبع، أبدا لا يتساوى مع أن تحيا مع من تحب.

لم أكن قد أدرجت في صفحات أحلامي أن اعيش قصة حب، كانت خطتي العشوائية أن أعيش حياة بلا فقر أو خوف من الفقر، ألا أخاف من أن تفرغ ثلاجتي من خزين الطعام والفاكهة، ألا أضطر إلى إعادة ترميم ملابسي لقصر ذات اليد، ألا أقف خجلة من مظهري وخلو حقيبة يدي من ثمن مشروبي مع أصحابي، هذه كانت أعظم أحلامي، رغم أنها حاجات طبيعية لأي إنسان، أن يتوفر غذاؤه ومسكنه وملبسه، لكني وعيت على مجتمع وعصر متخبط في الأيدلوجية التي يتبناها سياسيا واقتصاديا، لتظهر طبقة المنتفعين والسماسرة التي تتشابه بالإقطاع في عصر أوسط وطبقة وسطى تاهت، فلا هي ارتفعت، ولا حتى بقيت على مكانتها، بل هي تزداد هبوطا وسقوطا ماديا، وطبقة كانت ومازالت تعاني الفقر والتهميش، عشوائية.

هناك بالأعلى طبقة تستمتع، تضارب بالبورصة، وتسيطر على الأرض المصرية، ترث وتبيع وتشتري

وتمتلك، وطبقة تحارب لأجل أن تعيش حياة يغلفها الاحترام، وطبقات عشوائية تسعى وتحارب لأن تتلقى رغيف الخبز، أما الملبس فرفاهية لا تشغل حيزا واسعا من الاهتمام.

إلى أن منحني القدر الفرصة، وهيأ لي الأسباب كي أرتقي درجات السلم الاجتماعي، فاجتزت الفقر، فكان "شريف" الدرجة الأولى في سلم الخروج من القاع لأتنفس الهواء، ثم "عنود"، ثم عائلة الأحمر، ثم "سهام"، وأصحاب أعانوني أن أنجح وأثبت ذاتي.

هنا طفت على سطح فكري حاجتي إلى الحب، البحث عن ذاتي وأنوثتي، غذاء للروح والجسد الذي لم يستمتع مع "شريف" ولم أشعر بما عاشته "هيلانة" ولا "سهام"، إلى أن ألقى القدر في طريقي "عدنان"، فانتعش قلبي، وعادت إليه الحياة، شعرت لأول مرة بالأغاني الرومانسية التي لامست قلبي، أدركت أن لي قلبا كان غائبا في غفوة، أفاق على طرقات على صدري من عيون "عدنان"، وصوته، وأحزانه التي شلت الحكمة لدي، لأعيش غارقة في عالمه وأحلامه، حين نبض وبعث في يسراي حيا.

كان في جعبة القدر "صندوق بندورا " في أول فتحاته سعادة، تلتها في الطبقات الأخرى أوجاع وصفعات، مد يدا بالمنح، ويدا أخرى بالمنع، كانت يده قاسية أشد القسوة، حين سلب مني "عدنان"، نعم

عوضني بـ "عاليا"، ولكن أمومتي ناقصة، والبيئة التي خرجت فيها ابنتي غير ممهدة لها، كلها أشواك وكوارث، يبدو أن المجتمع لا يرحب بالحب ولا يصدق في طرحه، سأعيش عمري أما لا يعترف بها القانون، ولا العرف، وستعيش ابنتي طريدة البغض والمصالح.

طاردتني الهواجس وفوبيا من المجتمع وما سأواجهه في الغد، وأنا التي حسدها الجميع على العقل الحاسوبي، أعاني الأن من "النوستالجيا" الحنين لحضن "عدنان"، لأنفاسه، لرائحته التي مازالت عالقة بأنفي، والتي أشتمها كلما ارتمت "عاليا" بحضني.

كنت أرجو من القدر أن يترك لي فرصة أن أجرب معنى الأسرة: "عدنان" وأنا وابنتنا.

ليته أمد قليلا في عمر "عدنان" ليستمتع بحضن قطعة منه اسمها "عاليا"!

ليته منحه قليلا من الساعات ليختبر معنى الامتداد، وأن تكون هناك نسخة منه صغيرة، تتحرك، وتحمل اسمه وفصيلة دمه، بل هي مزيج مني ومنه، هي مخلوق يمتد بصفاته إلى أجدادي وأجداده، فينيقي مصري، لتعكر صفو أحلامنا السياسة.

الغربة قاتلة، أنظر إلى نفسي في المرآة، لأرى ملامح امرأة لم أعتدها، تحمل اسما وجنسية وملامح تغيرت،

"همت" تميزت بشعرها الليلي، والأنف الطويل، ليصغر الأنف، وتتغير ملامح الشفاه لتصير أكثر أمتلاء، وتمتد الذقن كما كليوباترا، وصار شعري أشقر قصبيا .. وتم نحت منطقة الخصر فصارت بطني كما فتاة لم تمر بحمل أو ولادة

جميلة "نجوى"، استولت على "همت"، وحلت محلها، هكذا أراد القدر، لكن "عنود" لم تجرِ أية عمليات، فلقد كانت جميلة بتنسيق لن يتمكن العلم من خلق مثله، فأشار عليها الطبيب بعدم إجراء أية جراحة، كما أن خطيبها رفض أيضا، فاكتفت بارتداء الشعر المستعار أغلب الاوقات حتى تنتهي فترة الخوف مما قد يحدث من رجال النظام.

أما أنا فلقد صارت الكوابيس لا تفارقني، فالقتل فعل كريه، يحولنا إلى مخلوقات مفترسة لمن مات ضميره، وإلى كائنات غير سوية لمن مازال بداخله بعض ضمير.

لم يكن سهلا أن تمر جريمتي هكذا رغم حقي في القصاص، حين تمزق "حيدر" إلى أشلاء لم أكن أعلم أنني سأعاني وجع الضمير وأسواطه التي تلهب جسدي كلما استسلمت للنوم، فرحت للحظات أني انتقمت ل"عدنان" ولكل مظلوم، ولكن راحت زهوة القصاص وبقي الألم، ارتدت العيادة النفسية عند أحد الأطباء، تناولت المهدئات لفترات طويلة حتى أتمكن

من التأقلم مع الأجواء الجديدة ومع صورة ذلك المخلوق الذي تعثر في حياتي ليقتل حبيبي ويقتل راحتي.

***

الصفحة السادسة والستون

خرجت "هيلانة" من الجراحة التي تمت بنجاح، وها هي تسير على قدمين سليمتين تماما، كانت كما الطفل الذي تعلم المشي حديثا، كانت تتباهى بساقيها في دلال الملكات، تسير مرفوعة الرأس، ترتدي الحذاء ذا الكعب العالي، والذي لأول مرة ترتديه كما نساء الطبقة العليا، وتدربت على السير به، وكيف تخرج من السيارة، وكيف تضع ساقا على ساق، وارتدت الجيب القصير لأول مرة، تمنت أن ترى "مظهر"، أن يراها كامرأة مكتملة الأنوثة لأول مرة، فها هي ذي تخطو كما النساء بساقين عفيتين، لن يكون هناك أي مبرر لخيانته لها بعد الآن، تسأل "آمنة" عن "مظهر".

حمدت غياب الرؤية والتنبؤ بالشفاء، فالمفاجأة تحمل بداخلها معنى السعادة كاملة، جميل أن يفاجئك القدر بخبر سعيد لا تتوقعه.

هنا تمنيت ألا تزورني الأحلام ثانية، وأن تكف عن قتل متعة عدم التوقع، يبدو أنها سمعت طلبي، وكفت عني لشهور.

- أين "مظهر"؟ ألم تخبريه عن خروجي من غرفة العمليات؟

سكتت "آمنة"، واكتفت بأن تبارك لها على سلامتها ونجاح الجراحة، واقترحت عليها أن تفاجئ "مظهر" لكي تكون السعادة ذات معنى، وأن غيابه عن الجراحة أفضل حتى يراها بصحة لتكون مفاجأة طيبة، وأن تتحمل قليلا، فهناك جلسات علاج طبيعي لابد أن تحافظ عليها حتى يتم شفاؤها تماما.

اتصلت بمكتبه بالقاهرة، لتعلم أنه في مهمة في اليمن، تهب من الفرحة، فهكذا أفضل، ستسافر إلى اليمن، لتلتقي بحبيبها وصديقاتها، لترى وقع المفاجأة عليهم جميعا، فلقد مرت أشهر طويلة توقف الأتصال بينها وبينهم خلالها.

لم تكن على علم بكل ماحدث لـ "همت" ولا لـ "عنود"، وما مرت به كلتاهما من تقلبات الدهر، أنستهما "هيلانة"، بل والأهل في القاهرة.

فهنا في لندن لا أخبار تصل عن اليمن، اللهم إلا أخبار مساندة الرئيس اليمني لصدام، وأخبار عن الوحدة، لتتصدر أخبار الغزو الأمريكي للعراق كل القنوات العالمية، وتشغل الجميع، وتتألم "هيلانة" لألم "عنود" حين يصل إلى أسماعها تولي "بشار" الحكم، كانت قد ابتسمت اطمئنانا حين قرأت خبر وفاة الرئيس السوري، معتقدة أنها انفراجة لعصر جديد، ينعم فيه السوريون بأجواء الديمقراطية، لتصدم بتولي ابنه الحكم.

تتصل "هيلانة" بمجرد وصولها لمطار صنعاء بـ "همت"، دون رد، ثم تتصل بـ "عنود" ولا رد، لتتصل بـ د. "سهام"، والتي ردت عليها، وأرسلت من يأتي بها من المطار، لأنها كانت منشغلة مع مريضاتها بالعيادة.

وصلت "هيلانة" إلى فيلا د. "سهام" التي خرجت من عيادتها للترحيب بها، وطلبت من "أروى" المساعدة لها أن ترتب لها غرفة النوم، وتدعها تستريح إلى أن تنتهي من العيادة.

دخلتا الديوان الذي كان الصالون ينعقد به، كان خاويا، يتعارك الهواء بين جدرانه، يفتش عن أنفاس كانت ذات رائحة لطيفة، وعن أصوات كانت تصدح من الجنة، نظرت حولها قبل أن تتخذ متكأها على أحد الوسادات العربية، دخلت د. "سهام" وقد علت وجهها بسمة، تسبقها دمعات، احتضنت "هيلانة" وبكت.

- ما الأمر؟ اين "همت" و"عنود"؟

اتصلت بهما فلم تجب أي منهما، هل انتقلتا من صنعاء؟

أم أن "همت" في رحلة عمل؟

- اجلسي نتناول الغداء أولا، ثم نحتسي كوبين من القهوة، ونتسامر، أفتقدكن جميعا، لقد رحلت الضحكات منذ رحلتن، أنت أولا ثم "همت" و"عنود".

سنوات طويلة "هيلانة" مرت، لقد تغيرت وصرت أجمل..

تقاطعها "هيلانة" وتسأل:

- أين "همت"؟ أين "عنود"؟

قصت "سهام" ماحدث بالتفصيل على "هيلانة"، والتي كانت تنصت في صمت وذهول، ولا رد من لسانها، بل هي دموع تذرف بلا توقف، وكأنه موسم المطر الصيفي باليمن هطل على خديها هي و"سهام".

- لكن لم لم تتصل إحداكن بي؟

هل هذه هي الصداقة؟

إن لم أكن بجانبكن في تلك الأزمة فما فائدة الصداقة إذن؟!

مابيننا لم يكن مشاريع عمل، بل كانت أسرة، صداقة، أخوة.

الأحداث كانت سريعة وكارثية، ولم يكن هناك رفاهية التواصل، وأيضا خشينا عليك من أن يمس اسمك أو تتعرضي لأي أزمة أو مشكلة تعكر حياتك احتراما لمركز زوجك، كما أنك كنت بلندن، ولا نعرف عنوانك أو أخباراً دقيقة عنك، مجرد خبر أنك في رحلة سياحية مع زوجك.

لقد تحملتا الكوارث، ولم يتح لهما الفرصة حتى للحزن. هل تتصورين؟

لم يتح لـ "همت" أو "عنود" الفرصة أن يحزنا على "عدنان" أو أن يبكياه، غادرا الأرض الطيبة إلى بلد غريب وعالم غريب، وكل منهما تحمل بداخلها مرارة الفقد والحزن ومستقبلا مبهما لا ملامح له ولا خارطة ترشدهما إلى بر آمان.

- هل تواصلتِ معهما بعد أن سافرا؟

- منذ عدة أسابيع، نعم، لم أكن أعلم لهما عنوانا وأجهل أي وسيلة للتواصل معهما لسنوات.

إلى أن وصلتني مكالمة تليفونية من "عنود" تطمئني عليها وعلى "همت" وأعطتني عنوانا للمراسلة، وهكذا كان التواصل بيننا مجرد كلمات من وقت إلى آخر، ونادرا ما نتواصل هاتفيا، كما أنني أخشى أن تكون هواتفنا تحت المراقبة، ويتم التوصل إلى "عنود" وهمت ليثأر منهما النظام السوري.

نحمد الله أنهما بخير، ومرت الأزمة بخير، وأنهما قد استقرتا، وأقامتا حياة هناك، فلقد تزوجت "عنود" برجل أعمال لبناني، كان عميلا لديها، وأقاما تجارة مشتركة، والآن لديهما شركة كبيرة للاستيراد والتصدير، سيؤسس لها فرع هنا باليمن، وبعد أن تهدأ الأحوال ربما ستتمكنان من زيارة اليمن.

هذا ما وعدتني به "عنود" أو قد تتحسن ظروفي المادية، وأسافر لهما، أو قد يكون القدر حانيا ونجتمع كلنا في مصر.

أبارك لك شفاءك، وسعيدة أنك حققتِ واحدا من أحلامك، ألا وهو السير بشكل طبيعي.

لقد أصبحت أجمل "هيلانة"، مكتملة أنت الآن "هيلانة"؟!

ضحكت، وأردفت قائلة: ما كامل إلا محمد عليه الصلاة والسلام، نعم، الحمد لله، ولكن صدقيني، لقد نسيت فرحتي شفائي في خضم تلك الأمواج من المصائب التي تلطم وجهي، فأنا كنت في شوق كبير إليكن، وتمنيت أن أجتمع معكن في سهرة بصالون الحرائر، فإذا بي أجد كل واحدة في اتجاه وفرقة.

ليتنا نجتمع يوما ونعيد حلمنا إلى الحياة.

- سيحدث يوما "هيلانة"، لأن ما بيننا من قواسم مشتركة أكثر بكثير مما بيننا من اختلافات.

- لقد تمنيت أن تكوني أول من يشاركني فرحتي في السير بساقين سليمتين، حتى أنني لم أتصل بـ "مظهر" حتى الآن، أستأذنك، لابد أن اذهب لأطمئنه، وأراه، فلقد انشغلت عنه بالجراحة، ولم تتح له مهامه أن يطمئن علي.

رددت تلك الجملة، وفي داخلها غصة، فـ "مظهر" لم يحاول أن يزورها بلندن، كان يكتفي بمكالمة لا تتعدى الدقيقة، وكأنه يؤدي واجبا حتى لا يلومه أحد وكان يتحجج بمشاغله في المنظمة.

- سأتواصل معك.

- أنا عائدة إلى القاهرة بعد غد، ترى هل سهل أن أتصل بهما لكي أسمع صوتهما قبل أن أغادر؟

الأفضل أن تتصلي بهما من هاتفك المنزلي، لأن هاتفي قد يكون مراقبا.

- أحمد الله أنك نبهتني حتى أتخذ الاحتياطات فلا اسبب لهما مشاكل.

عادت "هيلانة" إلى بيتهما المؤقت في اليمن سريعا لكي تلتقي بـ "مظهر"، وتتصل بـ "عنود" و"همت" أو "نجوى" كما علمت من دكتورة سهام.

فتحت الباب، لم تجد "مظهر"، ألقت بميدالية المفاتيح فوق منضدة صغيرة بجوار الباب، وجرت على الهاتف، واتصلت بالرقم الذي أعطته لها "سهام"

- ألو..

- ألو.. ؟

- "همت"؟ أعتذر أقصد "نجوى"؟

- من معي؟

- معك إنانا.

- "هيلانة"؟ أنت "هيلانة" بالفعل؟

- نعم هي أنا، وحشتيني جدا يا "نجوى".

- وأنت يا حبيبتي، أين أنت ؟ هذا الرقم من اليمن.

- أنا بالفعل هنا بصنعاء

- يا لك من محظوظة! كيف حال الجميع، "سهام" ود. "سرور" وأهل اليمن وأنت؟

- جميعا بخير، كنت أتمنى أن ألتقي بكما حتى تريا "هيلانة" الجديدة.

- الجديدة؟! أنت دائما في تجدد "هيلانة" وإبداع.

- كيف حال "عنود"؟

- هي هنا سأنقل الهاتف إليها انتظري.

- "هيلانة"! كم افتقدناك ياغالية!

- وأنت أيضا، اشتقت إليك جدا، ألن نلتقي "عنود"؟

- الأمر لله "هيلانة"، قريبا إن شاء الله، قريبا تحياتي لأهل اليمن وللأستاذ "مظهر".

- في حفظ الله.

- في حفظ الله.

أنتظر أن أسمع صوتكما مرة أخرى قبل سفري إلى مصر.

أغلقت "هيلانة" الخط، وكفكفت دموعا خرجت من عينيها حزنا وشفقة على "همت" و"عنود".

لقد شعرت إلى أي حد تحول صوت "همت" إلى صوت امرأة مكلومة ضعيفة.

هل هذه "همت"، الممتلئة حياة، الغنية بالأحلام القوية التي لم تهتز يوما أمام أي أزمة، ليته ما زارها الحب يوما! لقد هدم قلاعها وتركها عارية من قوتها.

لكن أعتقد أن "همت" قوية، ما تمر به أمر طبيعي، ستعود إلى كامل لياقتها النفسية والجسدية، بعد أن تنهي ما تركته من أمور معلقة، بمجرد أن تنتهي من مشكلة "شريف"، وتعيد الأمور إلى طريقها الصحيح، ستعود كما كانت، ويكفي أن معها "عنود"، تلك السيدة التي عوضتها عن الأم والأخت.

***

الصفحة السابعة و الستون

تلقى "مظهر" تعافي ساقي بالحبور والفرحة المبالغ بها، ووعدني بالاحتفال بشفائي بين أسرتي في القاهرة، ثم فاجأني بهدية عبارة عن عقد من الذهب وباقة من الزهور، شكرته وقضينا ثلاثة أيام في اليمن ثم عدنا إلى القاهرة.

لم أتمسك بالبقاء في صنعاء، فلقد غاب عنها الأحبة، ودكتورة "سهام" أغلقت الصالون، وصارت متجهمة، انهمكت في عيادتها ومريضاتها، واليمن صار غريبا، شعرت لأول مرة بالغربة، فلا الهواء كما كان، ولا الأماكن، كل شئ أصابه التغيير، وكأن الشوارع تحزن عمن فارقها.

عدنا إلى القاهرة، سعدت أسرتي بعودتي وقدرتي على السير بشكل طبيعي، وباركوا استقرار الحياة بيني وبين "مظهر".

قضينا اليوم بأكمله في بيت أبي، حيث اجتمعنا كلنا إلا "آمنة" لظروف عملها بلندن، حضرت أختي الكبرى رغد وأبناؤها وزوجها و"ميريت"، صحبة الأطفال تبعث بداخلي طفولة لم أعشها بشكل سوي لمرضي في أغلب مراحلها، كنت ألعب وألهو مع بنات أختي أحتضن ابنتيها، وأتشمم رائحتهما، فما أطيب رائحة الطفل وحضنه!!

كنت أحس بحاجتي الملحة إلى ذلك الحضن!!

غادرت أختي إلى بيتها، وغادرت مع "مظهر" إلى بيتي الخاوي، إلا من صوت الفراغ الذي يتحرك بين جدرانه بلا أي عائق يمنعه من استعمار تلك الأركان، فلا طفل، ولا زوج يطيل الجلوس على أريكته.

اعتدت كون "مظهر" ضيفا خفيفا، كثير الخروج والعلاقات والمشاغل، فكنت لا أطيق البقاء طويلا في البيت، كنت أقضي أغلب وقتي في المكتب.

التقيت بـ "نبيل"، كنا بمفردنا، كانت لحظة ضعف وشعور كارثي بالظلم، ورغبة بداخلي في أن أتناول مخدرا ما ينسيني "مظهر".

في غرفة التصميمات أنفذ بعض الافكار، انصرف الموظفون.. طرقات ع الباب:

- تفضل

دخل "نبيل".. كانت تشع من عينيه الرغبة المشبعة بالحب:

- ماذا تفعلين؟

رددت في ارتباك، ومحاولة للانغماس في العمل، والفرارمن عينيه التي تحوطني

- أنهي بعض التصميمات الخاصة بمكتب السيد "سمير".

- ممكن أشوف؟

اقترب من وجهي، وتلامست يده ويدي، وشممت عطره الذي رغم جماله إلا أنه لم يتمكن من اقتحام ذوقي وإثارتي، رفع رأسه لتتواجه أعيننا،

اقترب أكثر لتلتقي شفتاه بشفتي، كان سريعا في قبلاته التي تجوع للحب ولكن كان هناك في معدتي ألم وغثيان، فلم تكن شفاهه تتعرف عليها شفاهي، ولا رضابه يتقبله فمي،هناك تنافر بين كيمياء جسدي وكيمياء جسده.

أبعدته سريعا عني، ودفعت الكرسي ليفصل بيننا.

- ماذا؟ لا أصدق أنك لا تتجاوبين مع عشقي لك، أنا الاقرب إليك من "مظهر"، ما بيننا وفاق وتوأمة، نحن نتكلم لغة واحدة وهي الفن، أما "مظهر" فهو جاف كما عمله الذي يحتاج دوما إلى العقل.

"هيلانة"، أنا أرى داخلك جيدا، أفهمك كأبيك وأمك، أقيم جمالك الذي لايراه "مظهر"،

- من قال لك إن "مظهر" لايحبني؟

من قال لك أنني أحتاج من يكملني غير مظهر؟

- أنا خبير في العلاقات يا "هيلانة"، خبير في الناس، وبحكم تعاملي مع الناس والألوان أعرف الحب وأشمه كما شممت أنا عطرك.

- "نبيل".. مابيننا كان احتراما، وصداقة عائلية امتدت لسنوات، وأنا زوجة صديقك الذي ائتمنك على ماله وزوجته، وعيب أن تخونه وأن تطعنه في شرفه.

- أنا أحبك، وأتألم لألمك، ولتجاهل "مظهر" لك، أشعر أنك غير سعيدة معه، وليس من العدل أن نموت من أجل ناس لايعبأون إن حضرنا أو غبنا.

- "نبيل"، كنت نعم الأخ والصديق، لن أكون جاحدة وأنسى ما فعلته لأجلي، لقد كنت داعما لي دوما وسندا، لكني زوجة، ويحدث الكثير بين الأزواج، ولكن لا يعني هذا أن نبرر الخيانة وهدم البيت.

ماحدث الآن لن يمر بسهولة على ضميري، لقد شاركت في ألمي، أرجو أن يسامحني الله على هذه الغلطة، وأن تنساها أنت أيضا، فأنا لم أحب ولن أحب إلا زوجي.

- زوجك؟! الذي ألقى بك في المستشفى ولم يسأل عنك؟ وأنا الذي ظللت طوال سفرك أسأل، وأتابع تطور حالتك، وأرسل إليك بالزهور، ولم يغمض لي جفن حتى سمعت بخروجك سالمة من غرفة العمليات!

أي زوج هذا "هيلانة"؟!

إخلاصك ماهو إلا نوع من الخنوع والعبودية.

- لن أسمح لك يا "نبيل" أن تزيد حرفا، كفى إهانات، مرة تتهمني بالمازوخية ومرة بالعبودية، هل صار الإخلاص هذه الأيام ضعفًا، وخنوعًا؟

هل هذه طريقتك لتخرب علي حياتي؟!

- أخرب حياتك؟! هل هكذا ترينني؟ خراب بيوت!!

- ربما ضعفت لكلامك المنمق، ولكن أبدا لم أنس حديثك الأخير قبل سفري عن عقلك الحاسوبي وتخطيطك لكل خطوة تخطوها.

أنت تفتش عن مغامرة لا تدفع فيها ثمنا كبيرا، تبحث عن متعة غير مكلفة، وهذه المتعة مع زوجة بائسة تعاني، يسهل إغواؤها.

أفق يا "نبيل"، لست من السطحية والضعف أن أخون أو أغدر، سأنسى ماحدث هنا، وأنت أثق أنك ستنسى.

كنت سأضعف لكلامه، وربما كنت استسلمت، وبعدها أثق بأنني سأتلقى صفعة أخرى، وأنا مكتفية بوجع واحد وصفعة واحدة، كنت أؤمن أنه نصيبي من الحياة أن أظل تحت رحمة حبي لـ "مظهر"، حاولت أن أقنع نفسي بأن أرد له الصفعة بأن أمنح "نبيل" الفرصة أن يشاركني في مشهد خيانة لعلي أصيب "مظهر" في قلبه، إلا أنني لم أستطع، لا تربيتي سمحت لي ولا ضميري، فأنا بذلك أرتكب جريمتين واحدة في حق نفسي وأسرتي والأخرى في حق "نبيل".

طرقات على باب مكتبي لينفتح الباب وأجد "مظهر" أمامي، استدار "نبيل" ليرحب به:

- زوجتك متعبة جدا يا مظهر، فهي عاشقة لعملها وتنسى نفسها فترهقنا معها، فأنا أرجوها أن تنهي عملها، وتتركنا ننصرف لبيوتنا، وهي تصمم على أن تنهي ما بدأت.

- هكذا هي "هيلانة" متفانية في حبها ومخلصة لما تحب ولمن تحب.

أسرعت إلى "مظهر"، أحتضنه، وأغمره بنظراتي المشتاقة، وكأني مسحورة به وبعشقه، وخدم المشهد دخول "مظهر" لحظتها ليرافقني إلى البيت، فانصرف "نبيل" وقد ابتلع حزنه، ولم تتكرر أية تلميحات منه بعدها، بل طلب أن يوفق الأوضاع بيننا، أن يشتري أحدنا نصيب الآخر، عرضت عليه أن أشتري نصيبه في شركته بالقاهرة على أن أبيعه نصيبي في شركة دبي، لم يعارض، فلقد قرر السفر إلى دبي والاستقرار هناك هو وأسرته.

باركت له، وتمنيت له كل التوفيق والخير، فالحب أنواع وأنا أحببت "نبيل" بشكل يخلو من الرغبة والشهوة، حب أقرب لحب الأخ والصديق.

كلما تذكرت "نبيل" شعرت بالحزن، لا أعرف لماذا، هل لأنه كان كما المسكن يقلل من ألم خيانات "مظهر"

وتجاهله لي؟! لا أدري ولكنه ترك فراغا وزاد هذا الفراغ بغياب "همت" و"عنود" و"سهام".

أغلقت صفحة لم تكن لتسبب أية سعادة لأي منا، كانت حياتي تسير بشكل جيد في العمل والفن إلا أنها كانت تحتضر مع "مظهر".

حتى أضاءت "ميريت" حياتي، "ميريت" أختى الصغرى، وابنتي التي لم يمنحها لي القدر، أسماها أبي تيمنا بالملكة المصرية، فلقد ولدت على أرض مصرية، فكانت شروق الشمس على سنابل القمح، كان لون عينيها سواد طمي أرض مصر الولود، كان لون شعرها وطول نيلها، وكان في ذقنها شرم منحوت - يقال إنه دقة الحسن - يمتد من أسفل الذقن حتى أوسطها، حين تضحك تتنزل شلالات جمال من شفتيها بلون حبات الرمان، كانت متوسطة الطول، رشيقة، كانت أعجوبة الله.

اعتادت أمي أن ترسلها إلى بيتي ، كانت أغلب الوقت مقيمة معي، كنت أطبخ وأصنع أجمل الحلوى، وتمتد المائدة بالطعام والضحكات وهي معنا، اعتاد "مظهر" أن يلغي أغلب مواعيده حين تتواجد "ميريت"، كانت تعامله كأبيها، فالفارق بينهما عظيم، وكانت تستمتع بالحياة بيننا، إلى أن أفسد "مظهر" عليّ لوحتي الجميلة، لوحة الأسرة!!

نهضت من النوم، فلم أجده إلى جواري، ناديت عليه لم يسمع، خرجت متوجهه إلى المطبخ لأشرب، كان واقفا أمام الثلاجة ذراعه تتوسدها، منثني الساق، وفجأة أرى "ميريت" تدفع به بعيدا موبخة له:

- أرجوك يا أبيه ... أنت فهمتني غلط.

رأتني، فجرت مسرعة، مندفعة إلى يميني حيث المكان المسموح لها بالانفلات منه، وقفتُ متخشبة، وجرت دموعي دون إرادة مني، و أصابت كل جسدي رعشة وميل للقئ، هرعت إلى الحمام لأفرغ ما في جوفي من قرف وحموضة صنعتها حيوانيته، غسلت فمي ووجهي وعدت أنادي على "ميريت"، لقد أنصرفت باكية..

- لماذا؟ لماذا تكرهني إلى هذا الحد؟ ماذا فعلت لك؟ هل أدين لك بثأر، لذا تقتص مني؟

لماذا تتعمد أن تفسد كل لحظاتي الحلوة، لماذا تشوه كل الصور التي كنت أتمنى أن أجعلها ذات شيخوخة ذكريات أقتات عليها؟

لماذا تستمتع بإذلالي ودلق الماء الوسخ على لوحتي الجميلة؟

هل هان عليك أبي؟ هانت عليك أمي وأخواتي؟ هانت عليك "ميريت"؟

إنها طفلة، لم تخرج من طور المراهقه بعد، إنها تحبو إلى الحياة مليئة بالتفاؤل والثقة فيك، هل كنت عظيما حين استغللت ثورة الهرمونات داخلها فراودتها عن نفسها؟

هل هذا هو مفهوم الشهامة في ثقافتك؟

لقد علمتها أول درس في حياتها، ألا تأمن لرجل ولا لأختها التي استأمنتها على نفسها، لقد قتلت أمومتي وحرمتني من ابنتي، لن أسامحك عمري.

الآن لتغادر هذا البيت، ولا تعد إليه ثانية، وسوف أبلغهم أنك مسافر، في سفر دائم .

لابد أن ألحق بـ "ميريت" لأمنعها من أن تحكي لأمي ما حدث، حتى لا تشوه صورتك التي حاولت أن أبالغ في رسمها ليصدقوا أنك جيفارا.

كانت تلقي بكلماتها، وكان جالسا في صمته المخزي، لم يرفع رأسه، فلم يكن لديه الجرأة أن يواجهها،بالفعل قد بالغ في تعذيبها.

وضعت قميصا وبنطال جينز، ووضعت قدميها في شبشب بسيط، وسحبت مفتاح سيارتها، واتجهت إلى أسرتها.

نظرت في عيني "ميريت"، ثم إلى عيني أمها، وعادت لتنظر إلى "ميريت" لتقوم الأخيرة بهز وجهها بما يعني أنها لم تخبرها بشئ.

- ماما.. لقد سافر "مظهر" في رحلة عمل طويلة وأنا سأقيم في شقتي وحدي، ليتك تسمحين لـ "ميريت" بالإقامة معي حتى تنتهي من الشهادة الثانوية.

- كما تحبين أنت و"ميريت"، اذهبي مع أختك إن أردت يا "ميريت".

- سوف ندخل لنحزم حقيبتها يا أمي.

- انتظرا حتى نتغدى معا، بابا على وشك الوصول، وأختك أيضا.

- حاضر يا أمي.

دخلتا إلى الحجرة، ألقت "ميريت" بنفسها في حضن "هيلانة".

- أعتذر لك يا "ميريت".

- أنا التي يجب أن تعتذر، أنا لم أخنك ولا أجرؤ.

- أعرف يا "ميريت"، أنت في سن المراهقة سن الاكتشاف، تكتشفين نوعك واحتياجاتك، وطبيعي جدا أن تخطئي، تختبري الحياة والناس وذاتك، لكن يجب ألا نتمادى في الخطأ، من الحكمة أن نتعلم سريعا الدرس ونجهز أنفسنا للقادم، ولا نسمح للماضي أن يعرقل مسيرتنا إلى المستقبل، لا يجب أن نسجن أنفسنا في الماضي، لابد بنا أن نتعلم منه ثم نتجاوزه للغد، أنا أسامحك، وأعرف أن الأمر كان عفويا، لم تتعمديه ولم

تخططي له، أنت ابنتي، لست أختي، كما أنني ألتمس العذر لـ "مظهر"، فأنت جميلة يا حبيبتي وتتسببين في ثورة أينما توجدين.

في أبتسامة ناعمة ألقت كلماتها إلى "ميريت".

فهي المخلوق الوحيد الذي منحته توكيلا عاما بالتصرف في حياتها، حتى ولو بإيلامها، فهي كانت بالفعل ابنتها التي تمنتها من الله، ولن تخسرها لأي سبب.

- أنت الأ جمل يا "هيلانة".

- أنا؟! جميلة؟!

- أقسم إنك أجملنا، وقد منحك الله من القبول والمهارة ما ميزك عنا جميعا، سامحيني.

- أنت ابنتي.. ياغبية..

أخذتها بين أحضانها وبكت.

لم أسمح لنفسي أن أهين "مظهر" وأقلل من احترامي لاسمه أمام أختي الصغرى، فكرامته من كرامتي، أما ما بينا فلا يعرفه سوانا.

صوت الأم ينادي:

- هيا، الغداء جاهز، وبابا يدخل المصعد الآن.

الصفحة الثامنة والستون

همت

العودة إلى القاهرة مغامرة كبرى، وضرورة قدرية، ـن نرتد إلى أرض عليها نشأنا، وفوق ترابها ذكرياتنا، وثراها جثامين أحبتنا، وكان لابد من خوض غمارها والمجازفة حتى أحسم أمورا كثيرة، وحتى أنهي مهام معلقة، وأرتب حياتي، وأمهد طرقي غير المعبدة لابنتي.

كان لابد من التنظيم الجيد، وإعمال عقلي بشكل ناضج، حتى أقلل من حجم الخسائر، وألا أحضر ابنتي إلى ساحة معركة، من حقها أن تحيا حياة طبيعية، فلا ذنب لها فيما يحدث خلف الكواليس.

لا أدري ما وقع تغيير ملامحي على أسرتي وأصحابي، فأنا الآن نجوى اليمنية، التي تحمل ملامح هي خليط ما بين الشرق والغرب، لكن لنجرب ونرى.

وصلت إلى المطار، وقمت بالاتصال بأخي الذي تلقى اتصالي بالدهشة المخلوطة بالفرحة، فأنا لم أخبرهم بقدومي لأكثر من سبب، منه أمني الشخصي.

لم أطلب منه المجئ ليقلني، لكن فقط أردت أن أخبرهم حتى أطمئن لوجوده بالبيت حين وصولي.

استقللت سيارة أجرة، ووصلت البيت، وضغطت على جرس البيت.

كانت تعبيرات وجه "عبد الله" تدعو للابتسام، فلقد أعتقد أنني أجنبية اخطات الشقة، إلى أن تحدثت، وتعرف علي من صوتي:

- من أنت؟ لقد تحولتِ إلى امرأة جديدة تماما، صرت فتاة أوربية.

ابتسمت، وألقيت بنفسي في حضنه ودخلنا.

كانت الأسئلة كثيرة وممتلئة الفوضى من أسرتي:

كيف غادرت اليمن وسافرت إلى الدنمارك؟

وما أخبار تلك القضية التي لفقت لك؟

ومن هذا السوري الذي اتهمونك بقتله؟ ولماذا؟

لماذا تركت عملا يتمناه أي إنسان؟ وتغامرين ببداية حياة جديدة في بلد أوربي؟

ولم كل هذا التغيير؟ ولماذا؟

كيف تتخذين قرارات دون استشارة "شريف"؟

كيف سافر "شريف" وتركك هناك وحدك؟

وكيف عاد وحده، وأنت في بلد بعيد عنه لأعوام؟

ومن هي نجوى موسى؟

كنت مجهدة، أشعر كأن هناك من ألقى بي في البحر، أعاني أمواجه العالية، وأنا لا أجيد العوم، فكنت في حالة من مغالبة الموت لا أكثر، أتشبث بالحياة لأجل أبنتي فقط، فلم يعد بداخلي رغبة في المتعة بعد "عدنان"، فقط أعيش لتستند ابنتي علي حتى يشتد عودها.

أغلب الوقت كنت أسكت، لاأرد وإن أجبت على سؤال تكون الإجابة مبتسرة بلا معنى.

تركت مصر، وكنت في مستهل عقدي الثالث، وها أنا ذي أعود وقد تجاوزت عدة أعوام في عقدي الرابع، أعود شخصا آخر واسما آخر، مرت السنون سريعا، أفتقد أحلامي البسيطة، أن أجد فرصة للعيش دون أن أختبر الفقر ثانية، وأن نرتفع للطبقة العليا أنا وأهلي، ها أنا ذي أعود كما تمنيت، ولكن الأهل غابوا، عدت وقد حملت فوق ظهري الكثير من التجارب والأفراح والأحزان.

عدت شخصا جديدا، فلقد غادرتني "همت" هناك بأرض اليمن، وعدت "نجوى" اليمنية، صرت الآن مزيجًا من دماء مختلفة، وشخصيات متعددة، وفكر قومي فرضته الظروف علي وعلى ابنتي .

لم أخطط لرحلتي إلى القاهرة، قررت أن أترك نفسي للارتجال ورد الفعل لا الفعل.

سأنتظر الأحاديث والاستجوابات، وسارد عليها بما يمليه علي إحساس اللحظة، فأنا في حاجة لإراحة عقلي وروحي من أي عمليات حسابية وعقلية، عدت لكي أشحن طاقتي من أرضي وأستعيد ذاتي.

- حتى الآن لم تسألي عن "شريف"، والغريب أنه أيضا لم يسأل يا "أختي"

أخرجت علبة السجائر من حقيبتها، وأشعلت واحدة، وأمسكتها بين الوسطى والسبابة باليد اليسرى، وراحت عينيها تنظر بعيدا، أسندت رأسها على شباك سريرها، وعلى الكرسي الخشبي المجاور لسريرها جلست "هبة" في أنتظار رد.

- "شريف" طلقني من سنوات طويلة.

- ماذا؟ لماذا؟

رفعت سيجارتها من بين شفتيها، نفخت دخانها، وكأنها تطرد معه ذكريتها المؤلمة.

- طلقني، وسافر بلا ورقة، وبلا أي ردود على أسألتي: أين سافر؟ ولماذا؟ ومتى يعود؟ وأين ورقة الطلاق؟ لا إجابات.

ورغم ذلك أجلت التفكير في كل تلك التساؤلات لأكمل حياتي بشكل مؤقت.

كانت إجاباتي محاولة لأن ألغي الهواجس بداخلهم، وأمنع عنهم القلق والخوف، كذبت بأنه كان تشابه في الأسماء، مما سبب لي مشكلة، ثم عثروا على الفتاة التي ارتكبت هذا الجرم، وخرجت، لكن لم أتحمل الموقف، وساءت أحوالي في اليمن، مما دفعني أنا وصديقة للسفر إلى الدنمارك ثم ألمانيا.

نجحنا في عمل شركة كبيرة للاستيراد والتصدير، وعشنا دنيا جديدة، وكان لابد من عودتي لأحسم ما تم تعليقه مع "شريف".

سأقوم بعدة مشاوير مهمة، وعندما أعود سأكمل ما بدأته معك من حكايات.

دخلت الحمام لتأخذ حماما، ثم خرجت، وأخرجت بنطالا من الجينز وبلوزة من القطن الأسود، وألقت بإيشارب على رأسها، حملت حقيبة يدها، ونزلت متجهة إلى العنوان الذي حفظته في ذاكرتها.

دقت جرس الباب، فتحت "هيلانة"، وقفت صامتة لتسألني:

- من أنت؟

- أنا صديقة لـ "همت"، طلبت مني أن أقوم بتوصيل رسالة إليك.

- تفضلي.

دخلت، وأشارت لي أن أجلس على الفوتي المقابل للباب، ونادت "ميريت"..

- "ميريت" تعالي رحبي معي بالضيفة.

- أعتذر لكن لا أعرف اسمك.

- نجوى علي موسى..

صرخت "هيلانة"، وقفزت من مكانها من جمال المفاجأة، احتضنتها وبكت الاثنتان.

- أمسكت بيدي، وأدارتني حول نفسي، وخرجت من فمها صفارة كما الذكور وكلمة "واو"، لقد تغيرتِ تماما، لا أثر لـ "همت".

- نعم "همت" راحت مع "عدنان".. هي أنا "نجوى"

- "ميريت" حبيبتي، اصنعي لنا فنجانين من القهوة.

رحبت بي "ميريت" واستأذنت..

- احكي لي بالتفاصيل المملة كل شئ، لأن هناك أحداثا غابت عني ولم أحضرها، وحقي عليك أن تحكي.

جلستا عدة ساعات يسترجعان الذكريات، وحكت لها "هيلانة" عن الجراحة الناجحة، التي قامت بها في ساقها، وقصت "نجوى" عن علاقتها مع "عدنان" حتى وصول "عاليا"، والجراحة التجميلية التي اضطرت إليها لأمنها.

وأسرت "همت" لها برغبتها في الاستقرار في مصر، وضرورة أن تقوم بترتيب الكثير من الأمور قبل نزول "عنود"، ولكن كيف ستكمل الحياة هنا بجنسيتها اليمنية؟

تناولا الغداء معا، ثم القهوة مع الحلوى السورية التي قدمتها لهما "ميريت"، غازلت "همت" "ميريت" بقولها:

"جمعت "ميريت" الحسنيين: الجمال الشامي، وشموخ المصرية.

- شكرا يا طنط .

- "هيلانة" ! صرت طنط ! كنت بالأمس القريب آنسة، وأطلقت ضحكة تحمل الكثير من الأسى، وجرت دمعة رغما عنها من عينيها، مسحتها قائلة:

- أنا دموعي بتخرج لما أضحك.

- إن زعلتك كلمة طنط أغيرها؟

ليتك تناديني بـ "همت"، قضمت حروف الاسم سريعا وقالت أقصد "نجوى" بل "جوجو".

- كما تحبين "جوجو".

- حبيبتي!

تستأذن "ميريت" لتتركنا نستأنس ببعضنا

- ما بك "هيلانة"؟ أراك شاردة.

اشرت إلى لوحة بجوار الكنبة التي نجلس عليها والتي قلبتها "هيلانة" حينما لاحظت أنني ادقق في تفاصيلها

- لأول مرة تخفين عني واحدة من ابداعاتك كنت ومازلت مديرة أعمالك.

- لم أقصد، فقط لأنها لم تكتمل .

أمسكت باللوحة وأدارتها إليَّ لأشاهدها .. كانت "هيلانة" بين ذراعي رجل ينظر إليها في شهوة، محاولا تقبيلها، وهي تدفعه بعيدا وهي تنظر في الفراغ.

- لقد أرسلك الله لي، فأنت مرآتي وأختي التي لا أخجل أن أفضي إليها بنواقصي.

- ماذا؟

- كنت اعير "مظهر" بخياناته، لأخون أنا أيضا، خنت نفسي وقلبي

- كيف؟ احكي لي.

قصت علي ما حدث من "نبيل" ورد فعلها، أصابني الضحك.

- هل تسخرين مني يا "همت"؟

- لا سمح الله يا حبيبتي.

"نبيل" هو الذي خان، لقد استغل ضعفك وانتهز الفرصة كأي صياد، وأنت لم تضعفي وتبرري لنفسك الحق في الخيانة، بل قاومتِ شيطانك، وتغلبتِ عليه وعلى "نبيل".

- لكنه أقسم إنه يحبني.

- بل إنها الرغبة في تملك شئ بعيد عن متناول يده، فله بيته وأولاده، سيجد المبرر للتملص منك لو كنت استسلمت له.. لكن الحمد لله.. لأنك مخلصة ونقية القلب حماك الله..

"نبيل" لا يختلف كثيرا، لكنه يقدرك، ويعرف كم أنت عظيمة، وتستحقين الأفضل، لكنه ليس هو الأفضل يا "هيلانة".... حتى لوكان حبا حقيقيا فما كان ليصمد، فهو زوج وأب، وأنت زوجة ومحبة لزوجك.

لا تخجلي مما حدث، نحن بشر، نخطئ، ونستأنف الحياة بعد أن نتعلم من أخطائنا.

هوني على نفسك "هيلانة"، وانسي هذا الموقف وامحيه من رأسك.

- أشعر بالخزي من نفسي ومن ضعفي.

- أنت إنسان.. إنسان.

هذه الزلة أخرجت منك لوحة قمة في الإبداع، لقد تمكنت من أن تغوصين بريشتك في أعماق ذاتك لتخرجي عملا له روح ولون وطعم.. ما أبدعك !

أكملي هذه اللوحة وأكاد أجزم أنها ستحقق جائزة ما قريبا.... ما آخر احلامك أيتها النقية؟

- هناك حلم أتمنى أن أراه في نومي وفي الواقع.

- وماهو؟!

- أرجو الله أن يمنحني العمر لكي أقيم معرضا دوليا على أرض سوريا، بحماة واللاذقية، وأن تفتتحه "عنود"،س ونحضره جميعا أنت ود. "سهام" و"عاليا" و"ميريت"... معرض يجمعنا كما جمعنا صالون الحرائر.

- إن شاء الله يتحقق قريبا.

تنظر في ساعتها إذا بها تعدت الثامنة مساء، تنتفض وتستأذن "هيلانة" في الانصراف حتى لا تسبب قلقا عند أسرتها، فهي لم تخبرهم بأنها تزور "هيلانة".

عادت "همت" وكان في انتظارها أخوها "عبد الله" وأختها هبة.

- لابد من الاجتماع مع "شريف" وأسرته حتى نصل إلى حل ما، إما الطلاق الرسمي أو الرجوع، أنت ما

زلت في عصمته قانونا، وهو مسؤول عن نفقتك، هي حقوق لك لابد من المطالبة بها.

- لا أريد شيئا ، لاأريد إلا حريتي، لا شئ يجمعنا، فلقد تفسخت تلك العلاقة قبل أن تكتمل، وأنا لا أريد أن أظلمه، سئمنا الظلم والافتراء.

- لقد دعوته على الغداء، استعدي.

- لماذا لم تخبراني؟ لست مستعدة لذلك الآن.

- ومتى تستعدين، لقد مرت أعوام والعلاقة بينكما متجمدة، وأنا أخوك، ولابد من أن نضع حدا لهذه السخافات.

ارتدت "همت" عباءة سوداء، ووضعت إيشاربا على رأسها، حضرت اللقاء بالزي العربي الذي اعتادت أن ترتديه و"شريف" معها. حاولت أن تتجنب أي سبب للتصادم معه، حتى لو كان طليقها، فهو يغار، وربما تعرضت للإهانة، يجب ألا يمسك عليها أحد من أفراد العائلتين أية غلطة، ويجب أن ينتهي اللقاء بالنتيجة التي تنتظرها.

وهناك فضول أن تلتقي بـ "شريف" بعد كل السنوات التي مرت، كيف صار؟ وأين أختفى؟."

صدم "شريف" وكذلك "سناء" والأم من التغييرات التي أحدثتها "همت" في ملامحها، ولم تخبرهم عن هويتها الجديدة، حتى لاتفتح باب الأسئلة والفضول

الذي قد يسبب لها المزيد من المشاكل، كل ما أرادته ان تصل للطلاق الرسمي حتى يستريح ضميرها، وتعلن ذلك أمام عائلتها، حتى تكمل حياتها الجديدة دون أسرار أومنغصات.

قعد "شريف" على المائدة بجواره أخته "سناء" وأمه، وعلى الطرف المقابل قعدت "همت" بجوار أختها وأخيها، ولم تكن هناك حوارات، مجرد صوت الملاعق واحتكاك الأطباق، لم يأكل الجميع إلا فتاتا، مجرد تذوق فقط، ولم يعلق إلا "سناء" بالشكر على الغداء والدعوة.

كان "شريف" صامتا، يسترق النظرات من وقت إلى آخر إلى "همت"، لتزوغ عيناه من وقت إلى آخر، يحدق في الباب لفترة طويلة، وينتفض فجأة، وكأنه سقط من الحلم ليفيق ويرانا حوله.

- كبرت يا "همت"، صرت أجمل وأرشق، حتى أني أتعامل معك الآن على أنك امرأة أخرى لا أعرفها.

- نعم، كلنا كبرنا يا "شريف"، سنة الحياة.

- صرت أكثر أناقة وثقة بالنفس، وجميلة جدا، ولكني أفضل "همت" القديمة.

- شكرا يا "شريف"، لاشئ يبقى على حاله، أما أنت فصرت أكثر هدوءا ورزانة، وزدت في الوزن، راح عنك الغضب والعصبية، نضجنا.

- نعم ،تعرفين أكل الأم،لذيذ وننسى أنفسنا أمام لذته.

راقب الجميع حوارهما، كانت "سناء" تكتفي ببسمة مجاملة، أما الأم فكانت متجهمة، بداخلها ألم ووجع، فلقد غاب شريك حياتها، وهي الآن تتحمل مسؤولية ابنها وابنتها، وصارت تخشى الهجوم على "شريف" أو توبيخه، فلقد فقدت قوتها مع الكبر، و"شريف" صار رجلا ويعولها، كانت تأمل أن تهدأ الخلافات بين "همت" و"شريف"، لتتحمل معهما "همت" مسؤوليته، فهذا هو دور الزوجة الأصيلة، كانت تثني على "همت" بالكلام والمجاملة من آن إلى آخر.

- "شريف" بيحبك يا بنتي، بس هو تعرض لعكوسات، ما عرفش يتصل بك، واحنا تعبنا لحد ماعرفنا طريقه يا بنتي، كان تعبان ومحسود من الناس، منهم لله، ما حدش بيسيب حد في حاله، مش عارفة حسدوكم على إيه، ده تعب، وأنت تعبت علشان تعيشوا كويس، حسبنا الله ونعم الوكيل يا بنتي، ربنا يهدي سركم، أبعدوا الشيطان يا بنتي وارجعوا، أنتم ما لكوش غير بعض.

نهض الجميع عن المائدة، واصطحب "عبد الله" "شريف" إلى الصالون بعد أن غسلا أيديهما، وجلست الأم و"همت" و"سناء" في الاستقبال لينادي "عبد الله" "همت".

- نعم يا "عبد الله"

- تعالي هنا

تدخل "همت"، تختار مقعدا بعيدا عن "شريف"، نظر "شريف" إليها وقد خاب ظنه كما تعود من "همت".

- "شريف" يريد أن يتحدث معك على انفراد، سأترككما تتناقشان.

يستأذن "عبد الله"، ترفض "همت" انصرافه، ولكنه يرد بأنه سيصلي المغرب ويعود.

صمت يسود لدقائق، وتلعثم من "شريف" كلما أراد نطق كلمة، وكأن بداخله من يمنع عنه الكلمات، ثم ينطق :

-هل تخافين مني يا "همت"؟

- اعتدت الخوف منك، "شريف".

- لقد تغيرت كثيرا، أعرف أنني سببت لك ألما، وكنت أنانيا، سامحيني.

- أسامحك على ماذا؟

- على كل شئ، حتى على عدم تحملي لك ونفورك مني، سامحيني على أخطائك في حقي، وعدم صبري عليها، أنا تعبت يا "همت"، تعبت، وأريد أن أبدأ صفحة جديدة معكن أنا تعبت وأريد أن أستريح، غربتي نهشت بمخالبها في كل جسدي، ارحميني.

مد يده بعلبة مستطيلة مغلفة بالقطيفة.

- هذه هدية بسيطة مني، اعتبريها تعويضا بسيطا عن سنوات ظلمتك فيها.

فتحتها، وجدت بها طقما من الذهب: كولية وأسورة وخاتم.

شكرته على الهدية، ولكنها رفضتها وأعادتها إليه.

- ألم تعجبك؟! أعرف كم تحبين الذهب!

- أبدا، إنها جميلة وثمينة، ولكن لا أستحقها.

- "همت" أنا لا أعرف الجدال ولا أجيده، ولكن أنت تعرفين أنني أحبك. ولا أريد أن أبدأ حياة مع امرأة أخرى غيرك.

- لن ينفع يا "شريف"، نحن لاننزل ماء النهر مرتين، لقد اتسعت المسافات، وتهرأت بيننا، ودخل بشر كثير وعلاقات، فتهنا.

- لا أفهم، تغيرت كثيرا يا "همت"، تتحدثين كالدبلوماسيين.

- لا تنس أني اشتغلت معهم سنوات، كل يوم لاشك يضيف إلينا وينتقص منا أيضا، نزداد حكمة وننتقص سنوات من العمر.

مرت سنوات طويلة بيننا، تغيرت أنت فيها، وتغيرت أنا أيضا، فلم أعد "همت" الفتاة البسيطة الساذجة، لن نصلح لمواصلة الحياة معًا، لا تعقد الأمر، أنت تعرف

أننا انفصلنا منذ سنوات، وأنا أريد توثيق هذا الطلاق فقط، كن كريما وأنهِ هذه العلاقة الفاشلة، وابدأ حياة جديدة مع إنسانة تليق بك، لقد مللت تكرار تلك الجملة صارت من البواخة لدرجة أنني أريد أن أظل صامتة أفضل.. قلت لك كثيرا هذا الكلام ولا أدري لماذا لا تفهمني؟ اقسم أن انفصالنا سيكون في صالحك أنت.

- أعتذر، لست من مستواك يا سيادة السفيرة، أنا مجرد معلم بسيط.

- أنت تصر أن تحول كلامنا إلى معايرة وخناقة بين زوجين، والأمر ليس كذلك، نحن لم نعد زوجين منذ سنوات.

- القانون يمنحني الحق في إعادتك بالقوة، فمازلت زوجتي ولم نوثق هذا الطلاق.

اهدئي يا بنت الحلال ولنعد، لا تهدمي البيت، الطلاق يهتز له عرش الرحمن.

- الرحمن؟ هل تتحدث عن الرحمن الآن؟! لا أريد ان أجادل معك، فحتى الشريعة تلعب بها وبالآيات، أنت تدعي الالتزام والتفقه في الدين، ولاعلاقة لك بالفقه إلا السواك والجلابية والمسبحة التي تنافق بها الناس،حتى لو تحدثنا بحقي الشرعي كزوجة ومسؤولة منك فأين كنت من سنوات؟ تركتني بعد أن أرسلت لي جملة "أنت طالق" باستهتار وغادرت، بكل المذاهب أنا

طالق منك بالفعل، وما أسعى إليه هو أن تعلن ذلك أمام الجميع وتوثقه.

- "همت" أنا لن أطلق.

قالها في أستكانة.. لم أعهدها فيه وكأن هناك من كسر كبرياءه، صارت كلماته ذات صوت خفيض، تخرج من فمه في تردد وخوف.

خرج مسرعا مناديا على أمه وأخته، وخرج بعد أن استأذن "عبد الله" في الانصراف، وشكره على المائدة العامرة.

جلست "همت" ممسكة برأسها، وقد اشتعل وجهها احمرارا، وكأنها خرجت للتو من حريق من شدة الغضب، سألها أخوها وأختها:

- ماذا حدث؟

- لاشئ إنه رجل مريض بلا كرامة.

- ألم تتفاهما على الرجوع؟

سؤال من عبدالله ، والذي استفز "همت"

- رجوع؟ رجوع؟ ألا تفهم، أنا طلقت منه منذ سنوات.

قالتها في عصبية وبصوت مرتفع، فلم تتحمل كل هذه الضغوط غير المفهومة.

- "همت"، يجب أن تعيدي التفكير في أمر الطلاق هذا، نحن ضد هذا، ونعتز بـ "شريف"، فهو زوج صالح محترم، لا تخربي بيتك.

- أخرب بيتي؟! ألا زلت تتعامل معي وكأنني "همت" فتاة الثانوي التي لم تغادر بركة الفيل؟

ابتسمت في سخرية، وواصلت قائلة:

- أعتقد أنني ناضجة بما يكفي، ولست في حاجة إلى من يختار لي، أو يحدد ما يجب علي أن أفعله.

كلما ضاقت الدنيا على "همت" كانت تتذكر صورة "عاليا" وضحكتها، لتستعيد قوتها، ولباقتها وجرأتها على التحدي والقتال.

***

الصفحة التاسعة والستون

اتصال تليفوني من "هيلانة" بـ "همت" تبلغها فيه بأنها تحتاجها، وتريد أن تستغل وجودها بالقاهرة لمساندتها في الإعداد وحضور لقاء تليفزيوني مهم، سوف يلقي عليها الضوء، وعلى أعمالها الفنية بشكل عام، ولوحاتها بشكل خاص، وأنها لابد أن تصحبها كمديرة أعمالها وصديقتها، السند القوي لها.

كان البرنامج ناجحا، وشاهدته أسرة "همت"، وأسرة "شريف"، فرحت "همت" و"هيلانة" باللقاء والذي لم يكن الأخير، فقنوات فضائية عدة تواصلت معها لتنظيم لقاءات متفرقة.

استشاط "شريف" غضبا لأن "همت" تعيش حياتها متجاهلة وجوده، وكأنها قد أقصته عن خطتها وبرنامج حياتها، ليقرر ضرورة إخضاعها وإذلالها كزوجة ناشز، لا حقوق لها، ولم يفارق تفكيره تساؤل: لم قدمت "همت" نفسها باسم "نجوى" علي موسى؟ وما وراء تغييرها للاسم.

دقت "هيلانة" تليفون "همت" لكي تنظم معها تلك اللقاءات، ولكن التليفون مغلق دائما، ساورها القلق، وقامت بالاتصال برقم أخيها، ولكن رده كان غريبا:

- "همت" عادت إلى زوجها.

- كيف عادت ولم تخبرني؟ ثم مستحيل أن تعود "همت" إلى "شريف" إنه أمر لا يصدق.

- أستاذة "هيلانة" هذا ماحدث، إنه زوجها، وكانت خلافات بسيطة وعادت، لنتمن لهما هدوء السر.

أدركت "هيلانة" أن أمرا عظيما يحدث، وأن "همت" تعاني خطبا ما، كانت تتجول في غرفتها في محاولة أن تصل إلى حل أو طريقة لتتواصل بها مع "همت".

فكرت في أن تفتح النت، وتتصل بها عن طريق السوشيال ميديا ولكن "همت" لم تكن متاحة.

***

الصفحة السبعون

أفاقت "همت"، لتجد نفسها فوق سرير بغرفة واسعة، حاولت أن تستجمع صورا متفرقة برأسها حتى تتذكر: ماذا حدث؟ وأين هي؟ ومن جاء بها هنا؟ تصورت للحظات أنها في كابوس.

يفتح الباب ليظهر "شريف"، يقف في منتصف الغرفة وفوق يده صينيه بها أطباق طعام، يضعها فوق منضدة صغيرة بجوار السرير ثم يوجه إليها التحية:

- حمدا لله على السلامة يا "همت"، منورة بيت زوجك.

- أنت أكيد جننت، أنت لا تعي ماذا تفعل ومع من تتعامل؟

- أنت مجرد زوجة ناشز، خرجت عن طوع زوجها، ومن حقي أن أؤدبك حتى بالضرب، وأهلك يوافقونني الرأي، فغرورك أتعسنا جميعا.

- متخلف..

مد يده يلطمها على خدها عدة مرات، ولكنها تماسكت، ولم تبك، أويصدر عنها أي صوت أو حتى دفاع.

- الضرب وسيلة الأغبياء عديمي الحيلة، وأنت أغباهم، بل أفقرهم حيلة.

- أنت عاصية ملعونة، ولا حق لك في المعاملة كامرأة، لن تشمين رائحة الجنة.

سوف أنفرد بك، وستعودين زوجة رغما عنك، أنت هنا في مصر، ومن كنت تستقوين بهم في اليمن لا وجود لهم هنا.

ضحكت في صوت أثار غضبه لأنه وعى لماذا تضحك، أرادت أن توصل له تلك الإهانة التي اعتادت أن توجهها له بنظراتها وصمتها والآن وجهتها له بضحكها الذي يسخر من عجزه.

أغلق الباب، وألقى بنفسه فوقها، دفعت به، وقاومته بكل قوتها، وهي تتسلح بصورة ابنتها و"عدنان"، غرست أظافرها في وجهه، وعضت يده التي كانت تعبث في جسدها، كاد أن يتمكن منها لولا ارتخاء عضوه الذكري الذي أفقده الجرأة ومقاومتها المستميتة.

نهض من فوقها ولستعاض عن فشله بالسب واللعن لها.

كانت نظراتها الممتلئة بالثقة في النفس والتحدي قد زادت من غضبه وحنقه عليها، خرج، وأغلق الباب خلفه بالمفتاح، تذكرت حبسه لها في صنعاء، صارت كل ذكرياتها معه إهانات وحياة يرغمها عليها كما العبيد، وهي ترفض وتبغض أن تجبر على أي فعل.

ظلت تفتش بعينيها عن مخرج، لتثبت عينيها على نافذة ضيقة بأعلى الغرفة، أحضرت المنضدة التي تجاور السرير، ووضعتها فوق السرير، بعد أن أنزلت الأطباق عنها، وأطلت من النافذة تستكشف المكان، رأت بيتا مهجورا بجوار البيت الذي حبست فيه وكان البيت أقل ارتفاعا من غرفتها وسوره بالقرب من النافذة، عادت إلى السرير تنتظر الوقت المناسب للهروب من "شريف"، فلاشك أنها لو حاولت الآن سوف يمسك بها، ولا تعرف ماذا سيكون رد فعله.

شرعت في التجول في غرفتها بحثا عن ملابسها وحقيبة يدها، لتصل إلى التليفون المحمول فلا تجد أيا من ملابسها، ولكن تجد بنطالا له معلقا بشماعة خلف خزانة ملابس صغيرة للأطفال، أدركت أنها شقة مفروشة، فتشت في البنطال فجدت حافظة نقود له أخذت منها عدة جنيهات، ولم تجد زيا مناسبا تستطيع أن تخرج به، فـ "شريف" كان حريصا أن يخلع عنها ملابس الخروج، وألبسها جلابية ترتديها النساء في الريف، ذات أكمام طويلة وقصة على الصدر تسمى سفرة بدانتيل، طويلة، لاجيوب فيها.

سمعت صوت باب الشقة يفتح ثم يُغلق، تأكدت أنه خرج.

استغلت غيابه، وبدأت في كسر زجاج النافذة، تعلقت بها وعبرت من خلالها إلى سطح البيت المجاور، بعد

محاولة أوجعت جسدها لضيقها، لكن حمتها الجلابية من الخدوش.

تسلقت الجدار، قفزت فوق السطح، ثم هبطت درجات السلم، ولكنها فوجئت بأن البيت مغلق بقفل وسلسلة حديدية، صرخت على المارة بالشارع، ولكن المنطقة كانت حديثة الإنشاء، كلها مبان غير مكتملة، فلم يستجب لصراخها أحد.

لم تستسلم، تسلقت الباب الحديدي، وخرجت من فتحة مستطيلة بعرض الباب، وقفزت الى الشارع لتصطدم قدميها في أحجار متكسرة ملقاة أسفل البيت.

تنزف دماؤها، ولكنها تنهض ،ولاتعبأ بالألم أو الدم فكل، ما في عقلها أن تغادر قبل أن يعود "شريف"، ويحدث ما لا تحمد عقباه.

جرت مسافة طويلة حتى وصلت إلى الشارع الرئيسي حيث الناس والسيارات، حاولت أن توقف سيارة أجرة لكن منظرها بالجلابية حافية القدمين كان مخيفا،إلى أن رأف بها أحدهم، ووقف لها، ولكنه طلب مبلغا كبير حتى يعيدها إلى الهرم، وافقت وطلبت منه سرعة التحرك.

***

الصفحة الحادية والسبعون

وصلت إلى بيت الأسرة، طلبت من السائق أن يقترب بسيارته من رصيف العمارة حتى تقصر المسافة بين الشارع والبيت لتتجنب أن يراها أحد الجيران بتلك الملابس .

أغلقت باب السيارة سريعا، وجرت لتركب المصعد إلى الطابق الرابع حيث تسكن أسرتها، لمحها أحد الجيران وهي تخرج من المصعد سألها:

- هل تحتاجين مساعدة، هل نسيت المفتاح داخل الشقة؟

أسعفها بالرد فأكدت توقعه:

- نعم، لقد أغلق الباب وأنا ألقي القمامة، فنزلت لأنادي على البواب ليفتحه لي، ولكن لم أجده، إنه مهمل ولا يوجد أغلب الوقت بمدخل العمارة.

- بالفعل يا ابنتي، هو يتخذ من العمارة استراحة ويخرج للعمل في البناء صباحا، هو ساكن مثلنا ولكن السكان هم من يدفعون له أجرة سكنه، لا نستفيد منه إلا مسح السلالم فقط.

- معذرة، لابد أن أدخل لأن عندي مواعيد هامة.

- كيف ستدخلين والباب مغلق وليس معك المفتاح؟

- يبدو أنني أعاني النسيان، أختي بالداخل ونسيت ذلك، الضغوط أفقدتني التركيز

تهرول إلى شقتها ترن الجرس، بينما انصرف الجار إلى المصعد وهبط به.

دخلت "همت" بمجرد أن فتح لها أخوها.

- يا للفضيحة !

- أية فضيحة يا عبدالله !

- اعتقدت أنك ستقلق لغيابي، ولكن يبدو أنك كنت تعلم أين أنا.

- أعلم أنك مع زوجك.

- هل اتفقت مع "شريف" على خطفي؟!

- خطفك؟ هل تسمين عودتك إلى زوجك خطفا؟!

- أنا لم أعد إلى "شريف" يا "عبد الله"، الأستاذ "شريف" لأنه جبان أرسل لي سائق معرفته ثم ركب معي وخدرني، هل هذه تصرفات رجل عاقل؟! ألم تشعر بأي قلق على أختك بوجودها مع رجل لا تطيقه؟!

هل لمثله كرامة؟! رضي أن يعيش مع امرأة قالت له عشرات المرات إنها لا تريده فيخطفها ليجبرها أن تعيش معه!

هذا هو "شريف" الذي تراه صالحا وسويا.

ابتعد عني يا "عبد الله"، لاشأن لك بي بعد الآن. لااسمح لك بالتدخل في حياتي.

- أنا أخوك الأكبر وولي أمرك بعد أبي.

- ولي أمري؟ وهل أنا فاقدة الأهلية حتى أحتاج لولي؟ أنا التي أدير شركات عدة ومؤتمرات عالمية وأنظم معارض أحتاج إليك لتدبر لي أمري؟ هزلت.

لن تراني بعد الآن، يبدو أنك خشيت أن أعيش معك في الشقة، وأردت أن تتخلص مني حتى تخلو لك، طبعا، فعودتي معناها حرمانك من الشقة التي اشتريتها لأبي.

لا تقلق لن أكون قليلة الأصل، وأطردك، منها فأنت أخي.

- هل تصورتِ أنني أريد أن أتخلص منك ياهمت؟ هل هذه فكرتك عن أخيك؟

- اسمع يا "عبد الله"، همت لم تعد طفلة، وليست في حاجة لمن يتخذ عنها قراراتها، و"شريف" دوره في حياتي انتهى منذ زمن، وقد طلقني، وقضيت عدتي، وانتهت العلاقة الشرعية بيننا، وبعد ما صدر منه ومنك لا أريد أن أراك أو أراه.

ليتني ماعدت!!

دخلت غرفتها، لملمت ملابسها وضعتها في الحقيبة واتجهت إلى الباب، حاول "عبد الله" منعها ولكنها دفعته بعيدا عنها وخرجت.

اتصلت بـ "هيلانة" تطلب منها مساعدتها في إيجاد غرفة في أحد الفنادق القريبة منها.

***

الصفحة الثانية والسبعون

- ماذا فعلت ياشريف مع "همت" حتى تهرب بملابس البيت؟

لم يكن هذا اتفاقنا، لقد وعدتك أن أردها إليك على أن تتفاهما سويا، فإما السكن بينكما أو أن تفترقا بإحسان.

- هي زوجتي، ولم أتعد عليها، إنه حقي الشرعي، هل تعرف شيئا يا "عبد الله" عن سبب تغييرها لاسمها؟.

- أنت غبي، "همت" لا يجب أن تتعامل معها بهذه الطريقة يا "شريف"، هل بعد كل هذه السنوات لم تفهمها؟!

أنت قطعت كل الطرق لعودتكما، حتى أنها غادرت البيت، وربما تكون سافرت خارج مصر.

- ماذا؟ أبوس قدمك يا "عبد الله" أعدها إلي، لااستطيع أن أعيش دونها، لم يعد لي غيرها في الدنيا.

بكى كما الأطفال

- عيب عليك يا "شريف" الرجال لا يبكون، كيف تقبل على نفسك أن تعود إلى امرأة ترفضك، حتى لو كانت أختي؟! أنا الذي أنصحك بأن تتركها، طلقها ودعها

لحالها، وعد إلى حياتك، وابحث عن زوجة أخرى تحترمك وتقدرك.

-أنت لاتعرف شيئا، أنا خسرت كل شئ: عملي وأصحابي الذين لفظوني بسبب سمعتي التي ساءت بسبب خلافاتي مع "همت".

- هل "همت" هي المسؤولة عن سمعتك التي ساءت أم أنت؟

"همت" حتى أمس لم تشتك، ولم تحك لنا أي شئ عن خلافاتكما، ولم نكن نعرف حتى أنك طلقتها إلا منذ عدة أيام، لقد حافظت على اسمك وسمعتك، كانت أمينة عليك، انتهى دوري معك يا "شريف" وآسف لن أتدخل بعد الآن، لقد سببت فتنة بيني وبينها ولا أدري أين هي الآن، حرمت منها كما حرمت من أبي وأخي، ولم أكن أمينا وسندا لها.

حاولت والدة "شريف" إقناع "عبد الله" بالجلوس والتفاهم، ولكنه اكتفى بتحيتها واستأذنها في الانصراف حتى يبحث عن "همت" التي غادرت البيت غاضبة.

- ربنا يهدي الحال يا بني، طمني عليها لما تلاقيها.

- إن شاء الله يا أمي.

أما "سناء" فكانت تشاهد ما يدور في صمت وشرود، فلقد انهالت عليها الفواجع، وأجهدتها المسؤوليات،

شريط سينمائي يمر أمام عينيها، تتذكر موت أبيها، ثم معاناتها بين السفارة المصرية واليمنية لتصل إلى أية معلومات تطمئنها على أخيها، إلى أن توصلت إليه محجوزا في إحدى المصحات، لتصدم بأنها ستواجه كارثة مرضه بـ "همت" وإدمانه لها، اجترت كل الأحداث وهي تتنقل بنظراتها ما بين أخيها والباب الذي خرج منه "عبد الله" وأمها، ثم استدارت ودخلت إلى حجرتها وأغلقت بابها.

***

الصفحة الثالثة والسبعون

- "سناء" أنت الصديقة المقربة من "همت" حاولي تقنعيها بالرجوع

في استكانة وشرود ردت:

- "همت" لم تعد الفتاة البسيطة التي تربيت معها، لقد تغيرت تماما، أنا أدركت ذلك، ولا أدري كيف كنت زوجها ولم تلاحظ هذا التغيير، اتركها يا "شريف"، طلقها وابدأ حياة جديدة.

لا يجوز أبدا أن تعيش مع امرأة لاتريدك، امرأة تعدت قدراتك وقدراتنا، كيف تعيش معها رغما عنها؟!.

- هل هذه هي مساندتك لي؟! هل هذه أختي التي كانت صديقتي؟ تتخلين عني وقت حاجتي إليك؟

-أنت أخي الوحيد، ليس لي أحد في هذا العالم إلا أنت وأمي، لهذا أنصحك أن تتركها، حبك لها سيدمرك.

لا تعاند ولا تدع حبك لها يأخذك إلى حيث تدمير نفسك.

تتدخل الأم بخبراتها البسيطة و تسأل:

- يا بنتي أخوك لو طلقها سوف تأخذ منه القائمة ومِؤخرها، وهو تعب في الفلوس، ولم يعد معه إلا

رصيده البسيط وبلا عمل، وسيتكلف مصاريف جديدة إن أراد أن يتزوج مرة ثانية.

- أي زواج يا أمي الآن؟!

ابنك طلق "همت" من سنوات فعلا، هي تطلب منه توثيق الطلاق فقط، و أعتقد "همت" لن تطلب من "شريف" لا مؤخرا ولا القائمة.

"همت" يا ماما صارت مليونيرة، ليست في حاجة إلى الملاليم التي كتبها "شريف" مؤخرا لها.

شريف :

- أنا السبب فيما هي فيه الآن من نعمة.

- والنصيب بينكما انتهى، اسمع نصيحتي وأنهِ الموضوع ده ياشريف.

- لن أطلق.

لقد اتفقت مع صديق لي لفتح سوبر ماركت، وسنتشارك معا، بعدها ستتحسن ظروفي المادية، ولن أتوقف عن النجاح حتى أعود أفضل منها، دعونا منها ولنتحدث عن أمر مهم.

يحاول "شريف" التماسك والتظاهر بأن أمر "همت" لا يعنيه، ويحول الحوار للسؤال عن زواج "سناء":
- ابن عمك عماد تقدم طلبا للزواج منك، مارأيك؟

- موافقة يا شريف.

- بسرعة هكذا، ألن تطلبي مهلة للتفكير؟

- فيما أفكر؟ هو ابن عمي.

- إذن فلنحدد موعد الزواج

الأم :

- محتاجة وقتا يا بني لتجهيز اختك. المعاش لايكفي وراتب أختك بسيط.

- لا تقلقي يا أمي سوف أساهم في جهاز "سناء" ربنا يتمم لها على خير.

والشقة موجودة.. سوف أتركها لهما ليتزوجا فيها.

زواج "سناء" من ابن عمها فرضته الظروف، لقد انتظرت حبها الوحيد "عبد الله" سنوات طويلة، معتقدة أن زواج أخيها من "همت" سييسر الطريق لارتباطها به، ليحدث خلاف توقعاتها، فتشاهد اتساع المسافات بينها وبين "عبد الله"، و حتى الآن لم تصل إلى تفسير لتهربه منها وبعده عنها، رغم ما كان بينهما من إعجاب، بل كان حبا صامتا، كم من مرات يبعث إليها على الماسينجر أغاني عاطفيه لـ "أم كلثوم" و"عبد الوهاب" كلها تتحدث عن لوعة الحب، لكن أبدا لم يفصح لها عن حبه في كلمات واضحة، حتى دخلت في حلقة العنوسة، لقد كان ارتباطها بحلم الزواج من "عبد الله" يغذيه حبها لهمت وتاريخ طويل يمتد منذ الطفوله حتى الصبا ثم الشباب، تمنت أن تكتمل بأن

يكبروا جميعا معا، حلمت باليوم الذي ينجبون فيه أطفالهم، ثم يتزوج الأبناء ويغادرون، وتجلس هي مع "همت" و"عبد الله" و"شريف" يتذكرون أيام الطفولة، ويتعكزون جميعا على بعضهم البعض.

فجأة ترى نفور "همت" من أخيها، وابتعاد "عبد الله"، بل لم تنجب همت، وهاهي الآن تجاوزت الثلاثين ولابد أن تقبل بالزواج من ابن عمها الذي طلق زوجته التي رحلت عن بيته بابنه، ولقد توقف العرسان عن طرق بابها منذ سنوات طويلة، ففيم الأنتظار؟!

لم يتحقق حلم "سناء"، ولم تجنِ من تعبها وعملها إلا راتبا بسيطا يكاد يكفيها هي وأمها بجانب معاش أبيها.

والآن دخل "شريف" تحت إعالتها بتقلباته النفسية والعصبية، وهروبه إلى غرفته نائما أغلب الوقت، دون عمل، وأفكار للمكسب السريع بلا مجهود، يرفض العمل كمعلم بأحد المدارس الخاصة، فلقد مل مهنة التدريس، كما أن راتب المدارس هنا ضعيف لا يكفي، كان الرضوخ لعرض الزواج من ابن عمها الملاذ الوحيد لها لكي تبعد قليلا عن تلك الهموم، وفكرة انتظار أن يتقدم إليها "عبد الله" صار واضحا لها أنها صارت فكرة مستحيلة، والعمر تسرب من بين يديها، فزواجها من أبن عمها صار حتميا وضروريا.

***

الصفحة الرابعة والسبعون

أتصال تليفوني من "همت" إلى "سناء"، باركت فيها لها على الزواج الذي تم سريعا، واعتذرت لها عن عدم حضورها لحفل الزفاف لسفرها في مهمة عمل بعيدا عن القاهرة، ولأنها علمت بخبر الزواج بعد إتمامه.

تقبلت "سناء" مباركتها، ودعت لها بهدوء السر، وتمنت لها التوفيق، كانت المكالمة باردة، فلقد شعرت "سناء" بالهوة الواسعة التي فصلتهما عن بعضهما، والأيام تفننت في توسيع تلك الهوة، السفر والمستوى المادي الذي رفع "همت" عن مستوى سناء، والخلافات بينها وبين أخيها، وتصرفاته غير السوية في ترميم الشقوق بينه وبينها ليفسد كل الفرص بينهما، وآخرها تخلي "أخيها" عبدالله عنها

حتى أنها شكت أن "همت" بتلك المكالمة أرادت أن تعيرها بعدم زواجها من عبدالله وبفشلها.

***

عادت "همت" من رحلتها السياحية بين بعض المدن الساحلية للترفيه ولدراسة الأجواء لفتح فرص للتوسع في أعمالهم التجارية، فهي لم تكن في حاجة للتسرع في الطلاق الرسمي من" شريف"، فلقد تجمدت

مشاعرها منذ استشهاد "عدنان"، كما أنها تحمل اسما جديدًا وجنسية أخرى، وحاجتها للطلاق ماهي إلا إرضاء لأسرتها وطمنة لها إن جد في الأمر ما قد يعيد "همت" للحياة.

اشترت "همت" شقتين - بعد موافقة "عنود" و"غسان" على الفكرة- في موقع متميز بحي راقٍ بالمدن الجديدة التي تحمل اسم (الكومباوند)، شقة منهما اتخذتها سكنا، والأخرى تعدها تمهيدا للشركة التي تشاركها فيها "عنود" وغسان.

لقد فتحت الفرص للاستثمار العربي، وصار سهلا أن تقيم مشروعك في ظل الانفتاح والتحول الاقتصادي والانسلاخ من الاشتراكية.

اتصل "عبد الله" بها للإطمئنان عليها، وللاعتذار عما سببه لها من إهانة مع "شريف"، وطلب منها السماح له بزيارتها.

دعته لتناول الغداء معها، وسألته عن "هبة"، فأخبرها بسفرها إلى بيتها، فلقد انتهت إجازتها التي أخذتها لكي تقضيها معهما.

حضر "عبد الله" ومعه باقة زهور وعلبة شيكولاته، دعته للدخول.. يبدي انبهاره بأناقة الشقة و(الكومباوند) الذي يشبه مدينة أوربية.

جلسا يتحدثان عن أخبار كل منهما، سألته إذا كان قد حضر حفل زفاف "سناء"، فأجاب: بنعم

كان في رده نبرة حزن

- هل أحببتها ياعبد الله حقا ؟

- نعم أحببتها.

- لماذا لم تتزوجها؟

- ألم تحذرينني من الزواج منها؟

- كان تحذيري مجرد رأي أو نصيحة، لك أن تأخذ بها أو ترفضها

- أقنعتني، فلقد خشيت أن يكون كلامك صادقا فيأتي أبنائي حاملين لهذا المرض.

- لو كنت أحببتها بالفعل ما كنت تخليت عنها حتى لو كان تحذيري صحيحا.

- انتهى الموضوع، وتزوجت، فلا داعي للحديث عنها، فهي في عصمة رجل الآن، لايجوز.

معنى كلامك عن الحب أن "شريف" بالفعل يحبك والدليل على ذلك أنه متمسك بك حتى الآن ولا يفرط فيك رغم رفضك له.

- علاقتي بـ "شريف" مختلفة، فهي علاقة قامت على اسس ضعيفة منذ البداية، فلا تفاهم فكري أو عاطفي

بيننا، هو إنسان طيب ويدعي قوته ولكنه هش داخليا، لديه هاجس أنه معاق.

- معاق؟

- نعم معاق نفسيا وجسديا.

- ما معني كلامك؟ هل يعاني من مرض ما؟

مازالت "همت" تتسم بالرقي، واحتراما لقدسية علاقتها بـ "شريف"، ولأنها ترفض فضحه عملا بقوله تعالى "وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا " سورة النساء

- لم أقصد ذلك، هي كلمات أستخدمها لحظة غضبي منه.

لقد حان الوقت لكي تتزوج يا "عبد الله"، فأنت تعيش وحدك، وهبة عندها بيتها، وأنا لي عملي وحياتي، وأنت كبرت وأخشى أن تنسى موضوع الزواج ولا أرى أبناءك.

- معنى كلامك أنك لن تعودين للعيش معي؟

- هي شقتك الآن، وأنا لابد أن يكون لي شقتي القريبة من مقر الشركة، ولي أعمال لابد أن أتفرغ لإدارتها. طبعا لن أتركك وسأزورك كلما سنحت لي الظروف.

ما أخبار "شريف"؟

- "شريف" قد تشارك مع صديق له لفتح سوبر ماركت ليهرب الصديق بأمواله ويختفي، والكارثة أن "شريف" لم يأخذ أية ضمانات، والأمل ضعيف في التوصل إليه، فلقد اخبرته الشرطة أنه قد غادر مصر، وذهب "شريف" ومعه عدد من الأصحاب إلى المحل، وجمع مابه من بضاعة لا تكاد تفي ربع ما سرق منه، يكاد "شريف" أن يجن

- عنده حق إنه شقى سنوات طويلة.

- أنا أتواصل معه طبعا، فهي عشرة عمر يا "همت".

- طبعا. لا تتخلَ عنه، فهووحيد، لا أخ له ولاصديق، كما أنه يفتقد التفاهم بينه وبين أمه، وسناء طبعا في بيتها.

هيا ساجهز الغداء، اغسل يديك فالطعام جاهز، سأضعه فقط على المائدة.

***

الصفحة الخامسة والسبعون

كانت تلك الحادثة القشة التي كسرت ظهر "شريف" وحطمت آخر أمل له في التعافي المادي وتعويض ماضاع منه، ومحاولة أخيرة له للانغماس في الحياة بعد سنوات ضاعت ما بين البحث عن فكرة ذات قيمة يتشبث بها أملا في النجاة وبين سنة ضاعت بين جدران المعتقل.

فجأة تحول "شريف" إلى شخص آخر، ينام أغلب الوقت، رفض الاستحمام، يرفض الطعام، انعزل في غرفته لايتحدث إلى أحد.

ذات يوم يطل من النافذة، يسب المارة بلا سبب، تجذبه أمه من بيجامته، يدفعها بعيدا، تسقط أرضا، يرفعها من الأرض، يقبل يدها، ويلقي بنفسه في حضنها باكيا، ثم يقف فجأة ويدخل غرفته ويغلقها على نفسه.

تتصل الأم بـ "سناء" تطلب منها أن تغيثها، فأخوها صار يتصرف بطريقة غير طبيعية.

تحضر "سناء" ومعها زوجها، تدخل لتوقظ "شريف" لتناول الغداء، جلس "شريف" لتناول الغداء مع أسرته حيث "سناء" وزوجها وأمه.

كانت كلماته قليلة، ونظراته زائغة، غائبا عن الحضور ذهنيا.

سأله "عماد" لمجرد أن يستحضره ذهنيا للحديث مع الأسرة

- ما آخر أخبار ذلك النصاب؟

- ماذا تقصد بسؤالك؟ أكيد تعني أني أحمق حين وثقت في هؤلاء الناس

- أنا؟ أبدا، أنا أردت أن أطمئن على شقى السنين

- شقى السنين؟! كله راح، عمري، و"همت" والفلوس وأبي.

فجأة يتلفت "شريف" حوله وكأن هناك من نادى عليه، يسمع الجميع جملة خرجت عن فمه ولم تكن تلك الجملة موجهه إليهم، بل كانت لأشخاص أخرين لا يرونهم .. يترك المائدة، وتسقط من يده الملعقة، ويتجه الى غرفته ويغلقها على نفسه

- لم افهم..ماذا به؟

- "شريف" تعرض للكثير من الظلم، وعانى كثيرا، هل يتناول المهدئ الذي كتبه له الطبيب يا ماما؟

- رافض يا ابنتي الحبوب، ولما باديها له بيرميها في الشارع.

ينهض عماد، ويتجه إلى غرفة "شريف"، ويطلب من زوجة عمه إحضار الحبوب وكوب ماء

يطرق الباب، ثم يدخل.

كان "شريف" جالسا فوق سريره، شاردا ينظر من خلال النافذة إلى السماء وعلى الوسادة أجندة وبيده قلم.

يجلس عماد على طرف السرير ليواجهه:

- "شريف" أنت تعبت، والمشاكل كانت كثيرة، ونحن بشر، عقلنا له طاقة تحمل، ونحتاج أحيانا للمهدئ حتى نرحم عقولنا من حجم الأفكار والهواجس.

- أنا لست مجنونا، أنا أعقل منكم جميعا..

- طبعا فأنت من ينصحنا ونلجأ إليه عند أي مسألة فقهية أو مشكلة شخصية.

كان "شريف" ممسكا بالقلم، ومعه أجندة يكتب فيها، ويرد على عماد ويده تكتب.

- "شريف" لابد أن تتناول ادويتك حتى تخمد تلك الهواجس وتتمكن من التفكير في حل لمشكلاتك، وتتعافى ... نحن نخاف عليك من الضغط الذي تعرضت إليه.

يقدم "عماد" الحبوب، ومعها كوب الماء، يتناول "شريف" منه الدواء ويتجرع كوب الماء.

- الأن دعني يا "عماد" أريد أن أنفرد بنفسي.

يربت عماد على كتف "شريف" ويستأذنه ويخرج.

بمجرد خروج عماد يبصق "شريف" حبة الدواء ويلقي بها من النافذة.

يجلس "عماد" مع زوجة عمه وسناء ويتحدثان عما آل إليه "شريف"

- لابد أن نعيد عرض "شريف" على الطبيب الذي يعالجه فحالته ليست بخير.

الأم : نجيب الشيخ اللي عالج أبوه؟

- اسكتي ياأمي والنبي، مش هو ده الشيخ اللي احضرته لصرف الجن عن بابا وكان سبب موته؟! ده جهل وشعوذة.

سوف أحجز له عند الطبيب وننقله أنا و"عماد".

يتم نقل "شريف" إلى عيادة خاصة للأمراض النفسية يقضي بها أسبوعين، يخرج "شريف" وقد هدأت حالته وبدأ في تناول أدويته وتستقر الحالة لفترة قصيرة.

اتصال من "عبد الله" بهمت يطلب منها زيارة "شريف" ربما تكون زيارتها محفزا له للعلاج.

تقبل "همت" طلب "عبد الله" و"سناء"، وتحدد موعد لزيارتها للأسرة..

أستقبلت الأم "همت" بلهفة معتقدة أن علاج ابنها في عودتها لوحيدها.

ترحب بها "سناء" و"عماد"، يجلس الجميع في غرفة الضيوف البعيدة عن غرفة "شريف"

- مبروك يا "سناء" ويا "عماد" الزواج، المباركة متأخرة، لكن الظروف، أعتذر.

- الله يبارك فيك

يرد "عماد" و"سناء".

- أين "شريف"؟

- ليس بخير، الصدمة كانت شديدة، ضاعت أمواله، لم يتحصل من السوبر ماركت إلا على مكرونة وسكر وزيت وأجهزة كهربائية.

وتكمل الأم:

- حاول يبيع الحاجات دي، لكن لم يلم فلوسه كلها، وتعرض تاني للنصب من بعض المحلات التي باع لها الأجهزة الكهربائية.

- لاحول ولاقوة إلا بالله، لي صديقة سورية، عندها سمة موجودة عند أغلب رجال الأعمال الناجحين، دراسة أي خطوة قبل الإقدام عليها حتى الزواج لذا خسارتها نادرة.

شريف مشكلته العنادوالتهور، المهم صحته ما أخبارها؟

تجيبها سناء: واضح أنه يعاني من الإكتئاب.

قد عرضناه على أطباء نفسيين، وهو تحت العلاج، ولكنه يرفض أغلب الوقت تناول أدويته، وسبب لنا الإحراج مع كل أفراد العائلة.

ثم تتجه "سناء" بالسؤال إلى "همت" :

- أتعرفين أين قضى "شريف" سنواته الأخيرة، وماذا حدث له في أفغانستان؟

- لا، لم أكن أعلم، فمنذ تركني وسافر انقطعت الاتصالات بيننا، إلا من رسالة على الفاكس بأني طالق.

يتدخل "عماد": ماذا؟ هل طلقك فعلا؟

- نعم، وكنت أحاول ألا أزعجكم بذلك إلى أن أصل إلى أخبار عنه، وعلمت أنه غادر إلى افغانستان.. بعدها انقطعت الأخبار

تعلق سناء:

- سفره كان مصيبة، فكل من سافر إلى أفغانستان عند عودته يتم احتجازه للتحقق من سبب سفره إلى هناك، وإن كان ينتمي إلى جماعة إرهابية.

- هل هذا ما حدث مع "شريف"؟

- لانعلم شيئا. فهو لم يحكي لنا عما حدث معه هنا أوعن فترة سفره إلى افغانستان.

لقد تعبت أنا و أمي في البحث عنه، وقمنا بالاتصال بشخصيات كبيرة لنصل إلى خبر عنه بعد أن علمنا من جهة عمله باليمن أنه غادر إلى القاهرة بعد أن عاد من أفغانستان إلى اليمن..ظللنا في قلق وحزن لعدم تمكننا من الوصول إليه.

وحين علمنا بأنه تم نقله إلى مركز الخليفة ليخبرونا أنه تم نقله إلى دار استشفاء للعلاج النفسي تسلمناه من هناك، وهو في حالة غير طبيعية، يصرخ أغلب الأوقات، يتهم الجميع بالخيانة، ويسب الجميع، ويتحدث مع نفسه كثيرا..

" كانت الكلمات تخرج من فم "سناء" مرتعشة غارقة بالدموع، وأنا أنصت في صمت، وتهطل دموعي عن غير قصد.

- كانت حالته أبسط مما هي عليه الآن، وكان يتناول أدويته، بصعوبة نعم، ولكنه كان يبتلعها في النهاية، تحسنت حالته، وحمدنا الله أنه صار أفضل، وبدأ يختلط بالناس، وتحسن كثيرا مع مواصلة العلاج، ولكن بعد خسارة نقوده تدهورت حالته، اعتقدت يا "همت" أن عودتك سوف تساعد على تحسن حالته وعودته إلى حالته الطبيعية، لكن ماحدث أن عودتك ورفضك له أحدث انتكاسة له لترتد له الحالة بخسرانه لأمواله.

- لا أعتقد أنني السبب "سناء". فـ "شريف" ابتعد عني سنوات طويلة، لم يكن لي وجود في حياته، فلا تلوميني.

صرخات في الشارع، تجمع من أهل الشارع، تجري "همت" و"سناء" إلى النافذة، لا يظهر من وقع على الأرض، و يعلو صوت صرخات من أم "شريف":

- ابني!

تهرول هبوطا للدرج، تجري، تحتضن وليدها، بكاؤها أبكى الجميع، جرت "همت" و"سناء" ومعهما "عماد".

كان "شريف" ممدا على الأرض، والدم يغطي رأسه ووجهه، يتصل أحدهم بالإسعاف ويتم نقله إلى قصر العيني.

أصيب "شريف" بقصور في العمود الفقري والساقين وارتجاج في الرأس.

ظل بالمستشفى قصر العيني الفرنساوي ما يزيد عن شهر، تحملت "همت" جزءا كبيرا من مصاريف العلاج، حتى قررت "سناء" نقله إلى القصر العيني العام، لأنهم لن يستطيعوا تحمل تكلفة العلاج بالقسم الخاص، وحتى لا تتحمل "همت" أكثر من ذلك، وخاصة بعد تأكدهم من طلاقها من شريف.

أصرت "همت" على تحمل مصاريف المرافق الذي سيتولى رعاية "شريف" بالمستشفى، فلقد استأجرت

أحدهم من هيئة التمريض لصعوبة حالته وحاجته إلى من يمرضه ويتابعه، وكان "عماد" يتبادل مع الممرض ساعات الرعاية له.

لم تتوقف "همت" عن زيارة "شريف" يوما حتى بعد خروجه من المستشفى، وعلاجه بالبيت، فهناك في عمق الضمير توبيخات لها بأنها شاركت في هدم "شريف" وضياعه، كانت تأمل أن ترمم ما أحدثته من انهيارات داخله، لذا أخذت على عاتقها متابعته وعلاجه بمالها الخاص، ولعلها بوجودها بجواره تساعده على أن يتمسك بالحياة وينهض من مرضه، لم تتوان عن عرضه على الاطباء وتوفير اللازم له من أدوية

جلست "همت" بجواره تبكي وأمسكت بيده:

- سامحني، سامحني شريف، لو كنت سببا في عذابك.

- عذابي؟ ماذا تعرفين عن العذاب يا "همت"؟

أنا سأدخل الجنة الآن، فلقد نلت حظي من العذاب، وزبانية العذاب بلا قلب، كما روبوت تعذيب، أو أحد كلاب السجون التي تم تدريبها على القتل والتعذيب، صمم لانتهاك إنسانيتك لا يفهم مفردات مثل الرحمة، أو الحرام.

أنا لم أنتحر يا "همت"، لقد طلبوا مني أن اقفز من النافذة ،فهناك خونة في البيت، يتجسسون علينا، وينقلون أخباري لهم، فأشاروا علي بالقفز كتمويه.

- من هم؟ من الذين شاروا عليك؟

- طعم الشراب لذيذ، لم أذق مثل هذا الطعم من قبل.

- أي شراب؟

كان يشرد في المدى، وكأنه يتحدث مع كائنات مخفية لا يراها سواه، يلتفت إليهم فجاة ويحاورهم، ثم يعود وينظر إلى وكأنني دخلت فجأة.

- ماذا حدث معك؟ احكِ لي، منذ غادرت اليمن وسفرك إلى افغانستان وعودتك إلى القاهرة وأين قضيت تلك الشهور التي عدت فيها الى القاهرة؟

- لا أذكر، بل للصدق لا أريد أن أستعيد تلك المشاهد المرعبة، هل تذكرين "همت" أفلام الرعب التي كنا نشاهدها حين زيارتك لأختي "سناء"، عشتها وعشت ضياع الحلم في الأندلس، بل وعاصرت آلات التعذيب في قبو الكنائس.

- ماذا تعني شريف؟ لاأفهمك

تجري الدموع على خد "همت".

- أقرئي لي سورة يس من فضلك، أشعر براحة عند سماعها، أنا حافظ للقرآن، ولكن أحب أن أسمعه من غيري..

أمسكت الموبايل أبحث عن سورة يس على جوجل وبدأت في قراءتها كان يردد كلماتها معي ثم صدقت وصدق معي ثم غاب.

مات شريف، غادر في صمت كما عودني، تركني في حيرة وعذاب جديد!

لم يعرف أي منا ماذا حدث معه، والفترة التي اختفى فيها، أين قضاها؟ وماذا حدث معه؟ أين أمواله التي عمل بها طوال السنوات الماضية؟ لولا المبالغ التي كان يقوم بتحويلها باسم "سناء" لضاعت كل مدخرات، ولكن ما تبقى من أموال راح ولا يعرف عنها أحد شئ.

كان "شريف" كتوما فيما يتعلق بدخله وحالته المادية بعد انفصاله عن "همت"، واغترب بسببها سنوات، تمكنت "سناء" وأمها من بناء بيت بسيط بما كان يرسله من حوالات ومبلغ التعويض البسيط الذي حصل عليه الأب، وأكملت "سناء" باقي التشطيبات من راتبها.

كان بداخلي يقين أنه لم ينتحر، أصدق ما قال، "شريف" مات شهيدا.

كانت الصدمة شديدة، ولكن تحملتها الأم في إيمان واحتسبت ابنها عندالله شهيدا، فهو لم يكن واعيا.

أما "سناء" فلقد كانت قدرتها على التحمل أقل، فهو أخوها الوحيد، وصديقها، الذي بمغادرته غادرتها السعادة والضحكة، بل و الرغبة في الحياة، فحتى زواجها كان فرضا من الظروف التي عاشت بها، فهي لا تحبه رغم أنه إنسان صالح، طيب، كريم، يعاملها وأسرتها كأنهم أسرته، فهو ابن العم والأخ لها ولـ "شريف".

يبدو أن "سناء" عاشت قصة "همت" هي أيضا. .

اعتادت "سناء" بعد وفاة اخيها الجلوس وتصفح الأجندة التي سجل بها مذكراته كلما اشتاقت إليه.

والتي طلبتها منها "همت" تلفونيا فاستجابت لها وأرسلتها مع "عبد الله"، وطلبت منه أن يعيدها إليها.

الصفحة السادسة والسبعون

جلست "همت" في (الفرندا) المطلة على حديقة تفوح منها رائحة الريحان والنعناع، فاختلطت الرئحتان ليمنحاها نقاء الهواء والسلام، وهي تقرأ ما كتبه شريف، كان أول ما سجله شريف في الصفحة الأولى، أبيات من الشعر لعلي بن أبي طالب، كلها تنعي فاطمة الزهراء..

(لكل اجتماع بين خليلين فرقة،

وكل الذي دون الفراق قليل،

وإن افتقادي واحدا بعد واحد

دليل على ألا يدوم خليل).

وأبيات من صياغته تتحدث عن قِصر الحياة وزيفها..

لم أعهد شريف شاعرا ولا كاتبا، لكن ما تركه كان مذهلا، أشعارا موزونة تتضمن فلسفة الزهد كما المعري، وكأن هناك من أملى عليه تلك الأبيات.

هل كان شريف ملبوسا من الجن كما ادعت أمه؟ اتصال من "عنود" تبلغها سؤال عاليا عنها واشتياقها لها.

- اشتقت لكم، اصبروا معي، هناك بعض الأمور التي ما زالت عالقة وأريد أن أنهيها وسوف أتصل بكم..

- لا تقلقي يا "نجوى" أم أقول "همت" ؟ أردت فقط أن أطمئن عليك وأطمئنك على ابنتنا.

أنا "همت" التي أحبها "عدنان"، و"نجوى" التي تحمل ذكريات اليمن بداخلها، وجزء منها يواريه تراب اليمن، قبلي لي جبينها، سأراكما قريبا.

انتقلت والدة "شريف" للعيش في البيت الذي قامت ببنائه بمنطقة دار السلام بجوار ابنتها، بعيدا عن شقتها التي تحمل ذكريات تؤلمها، وخاصة مشهد سقوط ابنها من النافذة أمام عينيها، كل منا يرتجي الفرار من ذكريات صارت كما الحريق تنهش في جلودنا.

أما "همت"، فلقد اعتادت منذ سنوات العزاء ودفن أحبتها، ورضخت لما يقره القدر، فلقد وعت أنها في قتال مع الموت، تمنحه أحبة ويهبها الوحدة، هكذا في صفقة تتركها في حالة من الغنى عن التشبث بالحياة، فلقد هدأت حدة طموحاتها، ورشدت أحلامها، واكتفت بأمل واحد هو "عاليا" .

هناك مهام تنتظرها، وابنة تتلهف على حضن أمها ودور لها لم ينته بعد.

بدأت في إجراءات فتح المكتب، والانتهاء من السجلات والتصريحات.

اتصلت بـ "عنود"، وطلبت منها أن تأتي إلى مصر في زيارة سياحية ولنتشاور عما يجب أن نفعله الأيام القادمة، وكان هناك اتفاق في غير حاجة للنقاش، ألا يعلم أحد بأمر "عاليا".

فالأجواء هنا تسمح بالاستثمار العربي، وهناك تذليل لأية عقبات أمام المشروعات الخاصة.

***

الصفحة السابعة و السبعون

كلما انفردت بنفسي كنت أتصفح أجندة "شريف"، فهناك فترات انقطعت من قصتي معه لا أعلم عنه فيها شيئا، كان الفضول يدفعني للعيش بين صفحات مذكراته الشخصية، الآن عرفت ما مر به وما عاناه، كان ضحية لتخبط أفكاره وبيئة سلبية لا تنصح ولا تناقش، فالأم لا حضور لها في حياته، والأب اعتكف على بساطة أحلامه، وغرق في لقمة العيش، وقصة الحب أعاقته، ولم تسبب له إلا الألم، جميعنا شاركنا في الإجهاز عليه.

هل كانت قراءتي لمذكراته كانت محاولة لإيجاد منفذ لإثبات براءتي من تهمة يقرعني بها ضميري؟

ربما.

"لاتبالغوا بالحب، ولاتبالغوا بالاهتمام والاشتياق، فخلف كل مبالغة صفعة الخذلان"

"شريف"

يبدو أنه وجد في الاتجاه الديني العوض عن خيبات مني بها في دنياه، فلا حلم له تحقق، حتى الفتاة التي تمناها، تمنى أن يكمل معها حياته وأن يتعكزا على كليهما، استحالت إلى كابوس، ينقبض قلبه كلما واجهها، تخلى عن حلمه الفردي، وأمسى يحلم بالحلم

الأكبر "الخلافة"، أوالشهادة في سبيل عمل أعظم وهو إعلاء كلمة الله.

تباعدت المسافات بينه وبين "همت"، وعلاقته بأسرته كانت جامدة، لم يشعر بلهفة أمه، ولا بحنين أبيه، وبالتالي كانت علاقته بهم جميعا حوالات ماليه بأحد البنوك ذات المعاملات الإسلامية، لقد وجد ضالته في الجهاد، وما أعظم أن تجاهد ضد دولة كافرة كروسيا وبعدها أمريكا، كانت التبرعات التي يتم نقلها من أهل اليمن تتجه مباشرة إلى المجاهدين هناك وفي فلسطين، وتعرف على بعض الأفراد من جنسيات مختلفة لهم الحلم ذاته.

كان هناك من يحذره من السفر إلى أفغانستان، فستلحق به تهمة إرهابية، ولن يتمكن من العودة إلى مصر بسهولة، فكان رده:

- ربما يختارني الله للشهادة، عندها لن أحتاج إلى جواز سفر ولا تأشيرة، فالعودة إلى الوطن الأعظم لا تحتاج إلى تأشيرات ولا تعرف معنى الحدود.

قدم على إجازة للتوجه إلى الحج، ولكنه استبدل التاشيرة إلى العراق عملا بنصيحة دكتور "سرور" الذي يسر له الإجراءات، هو وعدد من المتطوعين للجهاد بأرض أفغانستان، ومنها تنقل حتى وصل إلى (كابول) مع عدد من المجاهدين.

كتب يقول :

الحياة هناك كانت بائسة، لا ملامح لأي تحضر، وعودة سريعة، وردة إلى العصور البدوية الأولى، لغة التفاهم كانت العربية، وهناك من يتولى الترجمة، طبيعة أفغانستان الجبلية، والتي تشبه طبيعة اليمن قليلا كانت صعبة عليه في الجهاد، إلى أن تلقى تدريبات على الصعود والهبوط حاملا أسلحة حديثة، كانت تصل إليهم بطرق عدة من دول مجاورة، أغلبها أمريكية الصنع.

لم يكن هناك تواصل مباشر بالقادة الكبار، ولكن كان المجاهدون ما بين شباب صغار السن وأطفال ونحن.

تعرضت لامتحانات لكسب الثقة، ولكنها كانت المرة الأولى التي أتلقى فيها تدريبات عسكرية، وأرى الموت على بعد خطوات مني، الموت كان حاضرا وسريعا، من تتناول معه وجبة قد لا تلتقي به في الوجبة التالية، بل ستصلي عليه صلاة الجنازة، وأحيانا صلاة الغائب.

صرت أرتعش أغلب الاوقات، لم أعد اتمكن من النوم ولا حتى الغفلة، فقدت قدرتي على التركيز، وأمسيت أعاني الكوابيس، فشلت في مهام القتل التي كنت أرسل إليها، لذا استبدلوا مهمتي بأن أعلم الأفغان العربية، بعيدا عن ساحة القتال.

عشت الموت وكرهته، كرهت فكرة كوني قاتلا أو أن أشارك في القتل، قتل صبيان والتضحية بهم، رغم أحقيتهم في الدفاع عن أرضهم وعرضهم ودينهم، ولكن كنت أبسط من أن أشارك في ساحة القتال، اكتفيت بمهمتي كمعلم، والتي ما لبثت أن فشلت فيها، فلقد أصابني فراق طلابي بالصدمة.

فكلما تعلقت بطالب، سمعت خبر موته واستشهاده.

قررت العودة إلى اليمن، ومحاولة أن أنخرط في الحياة، قد أعود إلى "همت" إذا كانت في إنتظاري.

العودة ليست سهلة، والخروج من هنا لن يكون ممهدا، فسهل أن تلقى علي تهمة الخيانة والجاسوسية والتي ستنتهي بقتلي، لابد من التخطيط الجيد وانتهاز الفرصة للتحرك.

كنت أتحدث مع أحد أصدقائي، فأفشى مخططي للقائد، تم اعتقالي والإلقاء بي في معتقل لا يتحمله حيوان.

تعرضت للتعذيب، والتحقيق، وأسئلة لم أتمكن من الإجابة عنها، وسخرية من أغلب إجاباتي، حين تحدثت عن رفض القتل، وعدم تحمل أعصابي أن أسمع بمقتل تلامذتي، حيث إن الجميع سابق ألى الجنة، أما أنا فسأموت نافقا كما الحيوان، المسلم

يشرف بالموت في سبيل الله، ويسعى إليه جريا وهرولة.

ظللت بالمعتقل الجبلي فترة لم أعد أحصي أيامها ولا شهورها ولاسنواتها، إلى أن تم تفجير المنطقة التي كنت بها، وسقط المعتقل على من به، وراح عدد كبير من الضحايا، ضحايا الاعتراض وضحايا التصديق، وكتب الله لي النجاة!

تمكنت من الفرار بأحد العربات التي تم الاستيلاء عليها كغنيمة، وانتقلت من مدينة إلى أخرى، وتسللنا مع عدد من الفارين إلى الهند، ومنها عبر المحيط الهندي إلى اليمن.

فقدت جواز سفري، ولجأت إلى السفارة المصرية لاستخراج جواز جديد، وتم عمل اللازم، وحصلت على جواز آخر بعد العديد من التحقيقات، ثم تم ترحيلي إلى مصر، وهناك تم ترحيلي إلى المخابرات للتحقيق معي:

لصالح من أعمل؟ ما هي الجهة التي دربتني؟ ومن أين التمويل المالي؟

وأي سلاح تدربت عليه؟ ولماذا عدت إلى اليمن؟ وكيف عدت؟

ثم تم اعتقالي، لأكتشف أنني كنت في كل الحكايات مجرد كومبارس متكلم، وأحيانا كومبارس صامت،

دوري هو الموت بدلا عن الأبطال، أموت ليفوز البطل، أموت ليغتني البطل، أموت ليترأس البطل، ودمي يشربونه كما النبيذ ليرتوا ويستقووا أكثر.

هنا بدأت الأصوات تحوطني.. تسر لي بأسرار من حولي، تخبرني عمن يتجسس علي، من يضع لي السم في الطعام، من يخطط لقتلي.

حولوني إلى مستشفى العباسية للاطمئنان على قواي العقلية، أجبروني على تناول حبوب كانت تخمد جسدي، تحولني إلى وسادة مرتخية أغلب الوقت.

وهناك أبيات شعر تتنزل على رأسي بصوت أحدهم، كنت ألقيها على الممرضات والمرضى حولي.

متى تحولت إلى ناظم للشعر؟ لا أدري!

لم أسأل عن أبي، ولكن تمنيت أن أنام في حضن أمي، حتى لو كان حضننا من حجر، ليت الزمن توقف عند طفولتي، كان حلمي بسيطا، كنت أعبر عنه بلعبي، كنت أمسك غطاء الأواني القديمة، وأمسك حجرا وقادوما لأفرد الثنيات بذلك الغطاء كما يفعل سمكري السيارات، وكنت أغني وأنا أدق على الغطاء، كانت طرقاتي عزفا لأغنية محمد قنديل:

"مكتوب عليا أبص لفوق .. وأجيب لقلبي شوق على شوق .. والحلو دايما حلو وذووق .. ياحلو ياحلو صبح."

ما أروع البيت مهما كانت بساطته!

فيه أمي، ليت عمري توقف عند تلك اللحظات، كنت أتلهف على الكبر، وأن أتحرر من قبضة أبي، وتسلط أمي، تلهفت أن أختبر الحياة وأن ألف العالم، لينتهي بي العالم إلى بيت فاقدي الأهلية، وأن ينعتني من حولي بالجنون، فقدت عقلي وهويتي حين أدركت بشاعة الإنسان حين يدفن ضميره، أدركت أننا لعبة في لوح شطرنج، وهناك من يضحي بالعساكر ليحمي الملك، لا ليحمي الوطن، ضعت حين استجديت حريتي.

لا أدري لم لاتغيب عن ذاكرتي مشاهد "كونتا كنتي" ومسلسل الجذور، الذي كان صادما وقتها، أحداثه لم نكن نصدقها، كنت أشك أنها حبكة درامية خيالية قاسية، بل شديدة القسوة، فلا وجود لهذه النوعية من البشر عديمي الرحمة.

كيف يتحول الإنسان إلى أكثر من ذئب وأكثر توحشا من نمر؟ إلى أن تعرضت لبعض ما لاقاه الزنوج للحصول على حريتهم، كان لابد من التضحية بدماء الآلاف حتى يرضى الرب ويقبل الفداء.

أذكر أيضا "همت" وهي طفلة، كانت جميلة، متفوقة يتمناها كل أصحابي، فصارت حلمي، لتغيب قليلا عن الصورة وتعود إلى عقلي وقلبي بقوة بعد أن صارت

الصديقة المقربة من أختي "سناء"، لتتحول هي ايضا إلى اسوء كوابيسي.

الآن كل أحلامي أن أسترد جسدي، وأن أنام في حضن أمي فقط.

لارغبة لي في مزيد من الأحلام، ولارغبة لي في "همت" أو غيرها، أريد أن أنام، أنام، ففي النوم راحة، الغياب عن الوعي والبشر هو السلام.

أفقت لأول مرة، وتذكرت أمي، وطلبت من الدكتور المعالج أن يتصل بهم ليطمئنهم، فلي سنوات طويلة لا يعرفون عني أخبارًا، ولا أعرف عنهم خبرا، وعدني بالاتصال بهم بعد الاستئذان الرسمي، حيث إنني مازلت مسجونا بتهمة إرهابية، فمازال في بعض البشر بعض الخير، تعاطف معي وصدقني.

تم الإفراج عني بشهادة طبية تفيد أنني أعاني من بارانويا، وأن حالتي لا تهدد الأمن العام.

خرجت، ومعي وساوسي، وتواصلي مع كائنات أعيش معها، أتلقى عنها أغلب أشعاري وأفكاري.

كانت أسئلة أسرتي كثيرة، وغاضبة، وكثيفة، أشعلت النيران داخل عقلي، أجدني أغلب الوقت في رغبة للصراخ والهروب، حيث أتنفس الهواء بعيدا عن فضولهم الذي تحول إلى سكاكين تضرب في جسدي وعقلي، وأصوات أسمعها تصرخ في أذني كما طنين

النحل، هناك زحام وفوضى وضوضاء في رأسي، ضاعت سنوات العمر ومعها ما تكسبته من نقود، لم أحزن على تلك الأوراق البنكونتية ولا حتى على "همت"، ولكن كانت رغبتي جادة في الطيران حيث السلام.

وكانت أصوات الدعوات لي بالفرار من كل هذه الضغوط وتلك الجواسيس التي تتعقبني وتنام معي بغرفتي، أقفز من النافذة، فهناك من ينتظرني وسيتلقفني بين يديه، فلن أموت، إذا بي أجد جسدي يتكسر على الأرض وهو يقف بعيدا مبتسما، فكانت يداه كما السراب، لم يكن يراه غيري.

الصفحة السابعة والسبعون

همت

"الذاكرة تعوق الراغبين في الموت وتجعل الراغبين في الحياة موتى"

كنت كورقة شجرة عالقة بفرعها، وهناك ورقات تتساقط حولي، فصارت العروق ضعيفة تطرد الهالك منها، وتنتظر البراعم الجديدة، وكنت أنا وبعض الآخرين تلك الورقات التي تنتظر سقوطها، غير أني تمسكت ببقائي وبذلك العود الذي هو وطني.

لملمت بعضي ونهضت سريعًا، فلا رفاهية للوقت لدي، وابنتي ما زالت في حاجة إليّ، والجولات كثيرة، والساحة واسعة ممتدة، والصراعات لن تتوقف.

كنا في مرحلة الخصخصة واستقبال جيد للقطاع الخاص والمشاريع الخاصة، وانكماش لكل ما هو قومي أو وطني حكومي، فكان على الأرض متسع لفكر "عنود" وغسان، ونجحنا في إقامة شركتنا في الاستيراد والتصدير، ومصنع للمنتجات القطنية وتصديرها إلى الخارج، وأقمنا عدة (ديفيلهات) نسقتها مع "عنود". وكان لعنود وغسان فكر استباقي يخص الأوضاع في العالم العربي، ألا وهو عدم الإلقاء بكامل رأس مالنا هنا، فالأسواق العربية والبيئة الاقتصادية غير مستقرة، وكل حاكم يأتي ليهدم ما

أقامه الحاكم الذي يسبقه، فالأمس ترحيب وتمهيد للاشتراكية والتأميم، ليأتي من يغير الدستور وتتقلب السوق إلى انفتاح اقتصادي، ثم رأسمالية بلا ضوابط.

يجب أن نتعلم أن الأجواء العربية تختلف عن العالم الغربي، فلا قدسية لدستور، ولا بقاء لقانون، وجب الحرص وتأمين أنفسنا إذا حدثت تقلبات في السياسة.

رفضت "عنود" استكمال "عاليا" دراستها هنا بالقاهرة، وفضلت أن تواصل دراستها بالدنمارك، حماية لها من صدمات قد لا تتحملها، ومن عادات قد تسئ إلى اسمها.

حتى هذه اللحظة لم أتمكن من أن أعلن أن "عاليا" ابنتي، ولم أهتم ما دمت قد نجحت في إثبات ذلك بالدنمارك بجواز سفري اليمني والأوراق مع "عنود" فابنتي تعرف أن أمها اسمها "نجوى" وهي يمنية، كنت أحميها من ثقل السر، وما يصحبه من ألم.

اكتفيت بتلك المعلومة، والتي لم أر فيها أي تناقض، فلقد كان ميلادي الجديد بالفعل في أرض اليمن، حيث حلمت، وحققت أحلامي على أرضها، بل والتقيت بحب عمري هناك.

"عاليا" هي بالفعل ابنة الحب الذي ولد على أرض اليمن، فهي يمنية من أم يمنية مصرية، ولكن يمنيتي في هوية ابنتي تكفيني حتى الآن.

أما "غسان"، فكان يسافر بشكل دائم إلى الدنمارك ثم ألمانيا وهولندا، وتمكن من إقامة فروع عدة لشركاتنا هناك، وكنت أصحبه أنا و"عنود" في بعض تلك الأسفار، وأحيانا نتوزع ثلاثتنا ما بين تلك البلاد لاستكمال صفقات.

ضممت أخي معنا، وكان هناك تعاون مشترك بين شركاتنا وشركة "هيلانة" لتصميم الديكورات، فكنا نسند إليها مهمة تصميم ديكورات أغلب المنشآت.

بل كانت "هيلانة" تتطوع لتصميم الأزياء والأحذية، ويتم تنفيذها في مصنع الملابس الجاهزة التي أنشأته "عنود"، ولم أنس المعارض للوحات هيلانة.

كان دوري أغلبه العلاقات العامة، وتنظيم المعارض الدولية، والمسابقات التي تخص الملابس والعمارة.

كنا في خضم المشاركة في معرض بباريس، وكنا نجتمع لوضع جدول العمال، وخطة المشاركة، والمشاريع التي سنشارك بها، لتسقط "هيلانة" في حالة إغماء، يتم نقلها إلى مستشفى الخاص بالشركة، كانت غيبوبة سكر، كانت قدمها في حالة سيئة للغاية، وكان لابد من استشارة أكثر من طبيب للتعرف على حالتها وإسعافها.

رفضت "هيلانة" السفر وأصرت أن يتم علاجها مصر، فلارغبة لها في البعد عن أسرتها ولا

أصدقائها، ليقرر أغلب الأطباء ضرورة قطع القدم اليسرى، لأن حالتها في خطر، والغرغرينة تتمدد في ساقها بأكملها.

وقع "مظهر" الاقرار، ودخلت غرفة العمليات، وكعادتها طلبت مرآة والتابلت الخاص بها وأوراقا وألوانا.

لم تهنأ "هيلانة" بصحة ساقها لفترة طويلة، لم تستمتع طويلا بالسير كما الجميع بساقيين مكتملتين، فها هي الساق نفسها تتعرض لغرغرينا، رافضة ان تكمل الحياة معها، تتهرب من السير في تلك الطرق.

خرجت "هيلانة" بعد أن فقدت الساق التي كانت قد استعادتها لسنوات قليلة لتروح منها ثانية، وهذه المرة فقدتها تماما، ستعرج باقي عمرها، ستتعكز على ساق خشبية.

أرسلت "هيلانة" برسالة إلى مظهر، ليست رسالة ورقية كما اعتاد جيلنا الذي مازال يألف الورق الملون المعطر والقلم، فزمن الرسائل الورقية ولى، ونحن الآن في زمن السوشيال ميديا، لكنها مازالت تمسك بميولها الفنية والتواصل بالرسم او بالأدب.. كانت رسالتها إلى "مظهر" على الإن بوكس " الماسينجر":

"لقد بترت قدمي لتتحرر من قبضتي، وأنا أحررك معها مني "

كلمات بسيطة ولكنها حملت كل معاني الكبرياء والحب أيضا.

تحررت من سجنه، وحررته من الالتزام معها، وشعوره المستمر بتأنيب الضمير لخيانتها، حان الوقت ليتحرر كلاهما.

قدمت لي "هيلانة" فلاشة، طلبت مني عدم تصفح مابها إلا بعد مغادرتها الحياة.

- لا قدر الله هيلانة، لا تذكري الموت.

- رأيت في حلمي أنني أغادر، إنها آخر علاقتي بالأحلام، فأنا سأغادر إليها بنفسي، وسأكون واحدة من طيوفها التي تزور الأحياء في نومهم.

ابتسمت في ضعف ثم قالت:

- لا تفزعي سأبرأ يا "همت"، وأسير على قدمي.

- أرجوك يا "هيلانة"، لاتتركينني، رصاصات الرحيل ملأت جسدي ثقوبا، لم أعد أتحمل، أنا دونكم ميتة.

- الرحيل، غياب مؤقت يا "همت"، سنلتقي قريبا.

- "هيلانة" انفصالك عن "مظهر" قرار خطأ، ففيه ذبح لك، عودي إليه، لم يترك أي منا إلا وطلب منا التوسط إليك لتغفري له، هو يحبك ولكنه مريض، يحتاج إليك حتى لا يضيع.

- أنا تعبت يا "همت"، أنا في قتال متواصل مع الإعاقات والناس، وقتال مع من اعتقدت أنه سيكون اليد التي تحنو، لأكتشف أنها اليد التي كانت تمسك بسكين، طعنني عدة مرات، لأنزف حتى الموت، أنا أشعر بسلام لم أحسه في حياتي مع "مظهر"، ما يحزنني أنني سأسبب لأسرتي الألم، رغما عني والله، فمهمتي انتهت، وحان موعد الترجل.

شعرت بالعطف الشديد تجاه "هيلانة"، والخوف عليها، فلحظة القوة التي تقمصتها لا شك أنها لحظة غياب عن الوعي، فتعلقها بـ "مظهر" تعلق الروح بالجسد، وانفصال أحدهما عن الآخر هو الموت بعينه، لكن تمنيت أن تكون مخاوفي مجرد مخاوف صديقة لا أكثر، وأن يكون حلم "هيلانة" مجرد كابوس أو هلاوس من البنج.

تبرأ "هيلانة" من الجراحة، وتعود إلى بيت أسرتها، ولكنها تطلب منهم أن تعود إلى شقتها بالعباسية، تلك الشقة التي صممت كل ركن بها، ذلك البيت الذي حوى ذكرياتها وضحكاتها مع "مظهر".

كانت "هيلانة" في شحوب مستمر نورها يخفت، دخلت غرفة نومها، وافترشت السرير وهي تبتسم، كانت "ميريت" تقف أمام باب الغرفة، تراقب "هيلانة" في حب، بينما راحت "هيلانة" مع الذكريات.

- "هيلانة"، أبيه "مظهر" يحبك، ويتمنى أن تعودا، فهو عاشق لك، هو إنسان له أخطاؤه ككل البشر، هوعظيم فلقد كتب الشقة باسمك والسيارة، وتركهما وعاش في فندق حتى ترضي وتعفي عنه.

- ولأني أحبه "ميريت"، فأنا أشفق عليه من أن يكمل حياته مع امرأة لم تشعره بالشبع.

أما عن البيت والسيارة فأنا ضيفة في المكان.

"ميريت"، أنا بخير، ادخلي غرفتك لتستريحي ودعيني أنام قليلا

- هل أصنع لك فنجان قهوة؟

- لا، لست في حاجة إليه الآن، أحتاج إلى النوم.

أغلقت "ميريت" الغرفة وخرجت.

لم تعد هيلانة تلك المرأة المقاتلة متعددة المواهب والغنية بالفن، فجأة عشقت غياب الضوء، تجلس في بقعة مظلمة في غرفتها، رافضة التواصل مع أحد، أو الإفضاء بمواجعها إلى أي منا.

اكتفت بالسكون أو الاحتضار، تم نقلها إلى مستشفى أختها الخاص، لتنهار صحتها، ويرتفع السكر في الدم، ثم ترفض تناول الأدوية، وترسم على إحدى الاوراق آخر لوحاتها، وهناك حلم أوحد كان كل ما تمنته من الدنيا، أن تحل روح "إنانا" بداخلها.

اعتقدت أنها فشلت أن تحقق ذلك الحلم.

نصحو على خبر رحيل "هيلانة"، وانتقال جسدها ليرتاح تحت الثرى، كنت أعلم أن "هيلانة" رحلت منذ نزعت نفسها من "مظهر"، وأنها مجرد أيام وستغيب عني تماما.

الصفحة الثامنة والسبعون

خانتني "هيلانة"، فلقد أوحت لي يوما بأننا أهلها وأحبتها، وأنها أبدا لن تتخلى عنا وخاصة أنا، كذبت هيلانة فلم يكن في قلبها ولا عقلها إلا "مظهر"، ذلك المخلوق الذي كان ابتلاء "هيلانة" وحياتها.

مر الشهر الذي طلبت مني "هيلانة" أن أنتظره قبل أن أتصفح الفلاشة، اشتقت إليها واشتقت إلى أن أعيش معها لحظات، فقلبت في تلك الفلاشة وقرأت روايتها "ليالي إنانا" التي تركتها دون أن تستكمل أحداثها، وفي المقدمة طلبت مني أن أكمل تلك الرواية، وأنسب تأليفها لنفسي، هدية منها لي وامتنانا لوقوفي معها واستخراج الفنانة بداخلها وتقديمها للناس.

"هيلانة" كتبت عنا جميعا فوق السطور، وكأنها من نور، عرفتنا كما لم يعرفنا أحد، رأتنا كما لم يرنا أحد، حملتني أمانتها، منحت نفسي وقتا لكي أعتاد غيابها وألملم بعضي الذي ينقص جزءا يوما بعد يوم لأكمل الرواية قبل أن ألحق بأحبتي: "عدنان" و"هيلانة" و"أمي" و"أخي"، لقد راحوا إلى عالم يمهدونه ليليق باللاحقين بهم، لم يعد الموت مخيفا، كيف أخافه وهناك أحبتي؟! الخوف صاحب الوحدة والغربة، وهناك أهلي وعزوتي.

لقد أخذت مني وقتا في إكمال المشاهد ونسج الأحداث كما رتبتها، كنت أشعر أن يدي تكتب، و"هيلانة" تحرك أفكاري، وتبث بداخلي الجمل والعبارات، أنا لم أكتب الرواية بل هي، تلك "العشتار" ذات الأيادي الثماني.

كنت من وقت إلى آخر أزور مطعم والد "هيلانة" لأرى "عشتار" التي تحمل بسمتها وحاجبيها وروحها المقاتلة، والتي تعبت من القتال، وتمنت الراحة ووجدتها أخيرا في التخلي عن "مظهر" والترجل عن الحياة.

لقد صارت "هيلانة" صامتة، يفتقد الجميع صوتها وعزفها، ويفتقد الأب ابنته وأفتقد أنا رفيقتي.

أما "مظهر" ذلك الرجل الذي كانت صورته في أذهاننا رجلا عابثا يلعب بقلوب النساء، لا مبدأ له، فقد خلقت منه "هيلانة" بطلا، ووضعت على لسانه قيم الحق والخير والجمال، لم تهاجمه "هيلانة"، لم تشوه صورته حتى آخر لحظة، أو ربما كان هو "مظهر" الحقيقي، وكانت خيالاتها عن خياناته مجرد هواجس استدعتها شخصيتها، وقد استكثرت على نفسها أن يعشقها رجل بحجم "مظهر" ووسامته، ذلك الرجل الذي تمنته أغلب النساء، وكان فتى أحلام الكثيرات، فلم اختارها هي؟ ولم تزوجها هي؟!

تمكنت هيلانة بالفعل من ترويض "مظهر" الذي التقيناه وجها لوجه؛ لنشاهد رجلا فقد أمه وأخته وحبيبته، بل راح من يديه البيت، وضاع عنه الوطن للمرة الثانية.

كان عبوسا، حزينا، يبكي كلما نطق اسمها، حاك رابطات عنق تحمل وجهها وأحيانا حروف اسمها في نقوش عربية، صرنا نطلق عليه مجنون "هيلانة".

لم يعرف "مظهر" امرأة أخرى بعد "هيلانة"، فهو لم يتزوج أبدا بعدها، ربما عاشر نساء، ولكنه رفض أن تحمل اسمه امرأة غيرها، أغرق نفسه في عمله بالمنظمة، ورحلاته لأجل السلام في أرض فلسطين، كاد يقتل أكثر من مرة من كلا الجبهتين أو الجناحين، ولكنه حمل راية السلام على جناحه، وظل محلقا في كل أرض عربية، هو ينشد السلام، ونحن نرسم الخطوات لملتقى عربي يجمعنا، نتنسم المساواة، والتنزه عن التنمر، والعنصرية، وجوازت السفر متعددة الألوان والأختام.

هذا هو "مظهر" الذي لم تره هيلانة وتمنينا أن نخبرها بأنها نجحت في أن تعيد الأسد إلى رشده ودوره في الدفاع عن مملكته ورعاياه، كانت أذكى من "إنانا" وأحكم.

***

الصفحة التاسعة والسبعون

حان الوقت لأعلن عن ابنتي للجميع.. مرت الأمور مرت ببعض الرفض من إخوتي، ولكن نظرًا لقوتي المادية وعلاقاتي والنفوذ الذي أسسته، تغاضوا عن تلك المفاجأة، إلا أن "سناء" كان موقفها معاديا، حملتني كل ما أصاب أخاها، واتهمتني بأنني أنا من كنت وراء مرضه وفراره إلى أفغانستان، وأنني أنا من يجب أن تتحمل سبب موته، لتفاجئني برفعها لقضية زنا بالمحكمة، وقد قدمت وثائق وأوراقا تثبت أنني كنت زوجته وحملت من رجل آخر أثناء ذلك الزواج.

صعب ألا يصدقك أقرب الناس، وأن تتهم في شرفك من أقرب الأقرباء!!

حاولت أن أتقبل الأمر وأن ألتمس لها الأعذار، لكن تلك المرة صعب، فالموضوع يمس ابنتي واسمها وسمعتها، بل مستقبلها كله على المحك.

استدعيت طاقم المحامين، وعقدت جلسة لأطلع على ما سيحدث وإلى ما ستؤول إليه تلك القضية،الأوراق تقول إن "عاليا" بنت "نجوى علي موسى"، وأنا أتحرك في مصر بجواز سفري اليمني، وكل الممتلكات هنا باسم "نجوى"، والقضية التي رفعتها سناء على "همت"، وأنا قد تركت "همت" هناك حيث جثمان "عدنان".

القضية سهل أن تنتهي، إن لم يكن بالأوراق الرسمية، فبالسلطة والنفوذ اللذين أتمتع بهما، وشركاتي، ولكن سناء شنت حملتها في ساحة أخرى أكثر اتساعاً وحرية، شنتها على الـ (سوشيال ميديا).. أصابت اسمي وشركاتنا في سمعتها، وبدأت الأمور تتجاوز كل التوقعات.

(للسوشيال ميديا) أسلحة كثيرة مما يصعب مجابهتها.

أتشبث بالحياة لأجل ابنتي، أتمسك بها حتى لا أصيبها باليتم مرة أخرى.

أمسكت بأية قشة تطفو بي على سطح الحياة، وبأن أتنفس بعض الهواء، ورائحة عرق ابنتي لأواصل البناء، البناء لها ولمن هم مثلها، كنت أتحرك وأنا موجوعة، مبتورة مني بعض الأجزاء، معاقة حين قطع من قلبي "عدنان"، "شريف"، "أبي"، "هيلانة"، هنا أدركت معنى الكهولة، وأن تحيا غياب رفقاء الرحلة لتبقى وحيداً لتستقبل الموت بترحاب بلا وجل أو خوف، فلا معنى للحياة بدون أهل أو أصحاب.

اجتمع مجلس الإدارة يترأسه "غسان"، وناقشوا ما توجهه الشركات من هجوم إعلامي استغله المنافسون للنيل من الشركات، وكان لابد من اتخاذ إجراءات صارمة حتى لو اضطررنا للتضحية بأحد الأعضاء.

بالطبع فهمت المقصد وطلبت السماح لي بالكلمة:

- هذه المؤسسة تمت إقامتها بتعب وجهد شاق منا جميعًا، فصارت عدة أبناء، لن نضحي بأي منهم، وأنا أوافق على أي قرار يتخذه المجلس، وسوف أوقع عليه مع مستشاري وأجنبكم جميعا الإحراج.

جمعت أوراقي واستأذنت في الانصراف، هرعت "عنود" خلفي وتوجهنا إلى مكتبي.

- "همت"! أريدك أن تتفهمي الأمر، هي مجرد إجراءات صورية لتهدئة الرأي العام، كما قلت أنت، المؤسسة تعبنا جميعًا في إقامتها وإنجاحها لتصبح واحدة من أهم المؤسسات في مصر والعالم العربي، وهناك المنافسون الذين يتصيدون أية غلطة لهدم هذا البناء، يكفينا الضغوطات التي نتعرض لها من حاشية النظام، وما ندفعه لهم حتى يتركوننا نعمل في سلام.

- لست في حاجة لأن تشرحي لي يا "عنود"، أنا متفهمة، لكني تعبت بالفعل، وأنت تعلمين ما أنا فيه من حروب وسقوط أحبتنا، لا تكوني أحدهم يا "عنود"

أحتاج لوجودك ولا أتخيل أن أخسرك.

تحتضنها "عنود" وتبكيان، فلقد تذكرتا "هيلانة" و"عدنان"، لا شك أن وجعهما واحد ، فهناك "عاليا" التي تتعلق بها "عنود" وتكاد تجن لو تصورت غيابها عن عينها.

- سأذهب لمواجهة سناء لأضع حدًا لتلك الحرب.

الصفحة الثمانون

اتصلت "همت" بسناء وطلبت مقابلتها، حددت مكان اللقاء، شقة همت القديمة بالهرم، والتي تركتها لأخيها قبل أن ينتقل للسكن في مدينة أكتوبر، بعد أن تحسنت حالته المادية وزواجه من زميلته بالعمل.

أرسلت "همت" إحدى العاملات لتنظيف البيت وشراء بعض الحلويات لتضعها بالثلاجة، وطلبت منها أن تكون موجودة في ذلك اليوم لتقوم بالاستضافة.

ذهبت "همت" بملابس بسيطة في سيارة أجرة، لم تكن تريد استفزاز "سناء" أو إثارة غيرتها.

دق جرس الباب لتفتح العاملة، انتظرت "همت" في الصالة لحين وصول "سناء"، انتظرت طويلا، ولكن لم تحضر "سناء"، تجاهلت رسائلها واتصالاتها، فأثار ذلك غضب "همت" التي قررت أن تتواصل معها بطريقة مختلفة، وهي أن تجبرها على الحضور.

اتصلت برجل الأمن وطلبت منه إحضار "سناء" من مكان عملها بهدوء، بأن يرسل إليها اثنين من الأمن وسيارة، كانت طريقة لتبعث برسالة مختصرة لسناء لتجبرها على الإنصات.

دخلت "سناء" بصحبة اثنين من رجال الأمن، كانت "همت" تجلس على المقعد تضع ساقا فوق ساق، ممسكة

بسيجار ماركة "مور" تنفخ دخانها في الفراغ، متجهة بوجهها بعيدا عن وجه "سناء".

- تفضلي يا "سناء" اجلسي، هل سنتحدث وأنت تقفين بجوار الباب؟!

سناء: لن أجلس.. ماذا تريدين؟

- اجلسي يا "سناء"، لا يصح أن نتحدث وكأنني ملكة تخضع أمامها جاريتها.

- أنا جارية لك أنت؟! يا ريت كل واحد ما ينساش أصله.

ابتسمت "همت" في سخرية:

- مقبوله منك يا "سناء"، فما بيننا ليس قليلا، اتفضلي اجلسي لنتحدث، نحن أهل، أرجو ألا تنسي ذلك، بيننا عشرة، وعيش وملح، وصداقة سنين.

- وهل راعيت العيش والملح وعشرة السنين؟

- أنا لم أخُنكم ولم أرتكب في حقك أي ذنب لتحملي لي هذه الكراهية.

- أنت من قتل "شريف"، أنت من دمرت مستقبله، قدم لك كل الخير، وأنت استغللته للوصول لتحقيق طموحاتك، وألقيت به في سلة القمامة.

- هذا ما صوره لك خيالك، لا أصدق أن صديقة العمر التي عاشت معي طفولتي ومراهقتي وشبابي تظن في كل هذا الظن السئ!

أنا تحملت الكثير من الإهانات من "شريف"، وتحملته كما الأخت، لم أكن زوجة بمعنى الزوجة، وحاولت أن أحافظ على علاقتنا لأجل أسرتينا

الغريب أنني أحاول تفسير ما كان بيني وبين "شريف" لك أنت، كنت أتصور انك أنت من ستدافع عني وتتفهم موقفي، كنا نجهل جميعا أن "شريف" مريض نفسي، يعاني من مرض نفسي ورثه عن أبيه، كان يحتاج الأرضية المناسبة ليظهر على السطح، ويتحول "شريف" إلى إنسان آخر.

هناك أسرار بيني وبين أخيك لا يجوز لي كإنسانة أصيلة، تخشى الله، أن أكشف عنها لأحد، حتى لو كان هذا الإنسان هو أخته وصديقة العمر، فما كان بيني وبين شريف رباط له قدسيته، وهناك حرمة لفضح ما بيننا.

وضعت "سناء وجهها" بين كفيها وبكت:

- لقد تعذب طويلا، تعذب بحبك وتعذب لتجاهلك له، وإهمالك له وانشغالك بنفسك، هرب للموت مرات، وفي النهاية تعيرينه بمرضه؟! يا لك من قاسية، خائنة للعشرة!!

إنه "شريف" يا "همت"، الذي جعل منك سيدة أعمال لها "بودي جاردات"، وعلاقاتها التي أحضرتني عنوة.."شريف" هو من انتشلك من فقرك، ورفعك حتى السماء، وتركته أنت ليسقط مكسورا، لن أسامحك، وسأظل أحاربك أنت وابنتك التي جاءت من علاقة زنا، لأنتقم لـ "شريف".

- اطمئني يا "سناء"، لقد تركت الشركة، وأنا الآن بلا عمل، وسأغادر مصر قريبا، لأترك لك الحرية في السب والقذف، والذي لن يعيد لك "شريف" من قبره. يعلم الله أنني كنت ضحية الظروف كما كان "شريف".

- سأمنعك من السفر حتى يتم محاكمتك بالزنا والسجن.

- كل ما تستطعين القيام به هو الكلام والشتم والاتهامات الباطلة على ال (سوشيال ميديا)، ولن أضيع الوقت في علاج ما بداخلك من حقد، لطالما كنت ـحسه منذ كنا اطفالا، كنت تغارين من تفوقي وتغارين مني، حتى حين تمت خطبتي لأخيك، رأيت منك كل الحقد والكراهية وكأنك تستكثرين علي الخطبة من أخيك وتمنيتي أن يتم زواجك قبلي.

عاملتك بأفضلية أكثر من إخوتي، وعندما اشتغلت دفعت أول راتب لي في سوار لك من الذهب، وللأسف لم أر في عينيك أية ملامح تدل على الامتنان او الشكر، تلقيتِ كرمي دوما ببرود وتكبر.

لا ذنب لي أن أهداني الله "شريف" – كما قلت – لينتشلني من فقري، لكنني رددت له الجميل مرارا، رغم أنه واجبه كزوج، وأنا لا أرى أنه تفضل مني، فلقد كنا زوجين وما قدمه لي أو قدمته له هو أمر حتمه كونا زوجين.

أنا تعبت، لقد جرجرتني لمستوى منحدر لم أكن أتمنى أن أهبط إليه، وأن أرد معايرتك لي بمعايرة مثلها، موقف

سخيف ووضع سخيف تافه!!
انشغلي بحياتك يا "سناء"، ابني حياتك، وتفرغي لبيتك وزوجك، لا تهدري العمر في حروب لا ذنب لك فيها، ابتعدي عن هذا الطريق، أنت تدمرين نفسك وبيتك.
بالنسبة لي الفلوس ستحل لي أغلب المشاكل، أما أنت فستنفقين رصيدك، ولن تجني إلا الفقر، تلك القضية تحتاج إلى مصاريف باهظة، المستفيد الوحيد منها هم المحامون.. سأترك لك الفرصة للتفكير لأوفر لك الوقت لإنقاذ بيتك.
"شريف" رحل شهيدا، ورحل معه سره، وترك لك نصيبه في البيت، وقطعة أرض، وأنا أبدا لم أستغل الأوراق التي تثبت أنه زوجي وأطلب هذا الميراث.
كانت توجه نظراتها المحذرة:
- هل تهددينى؟
- أنت من سبق بالتهديد، إن رفعت قضية فسأحصل على أغلب ميراث "شريف"، لن يتبقى لك إلا القليل جدا، وعندي من المستشارين من يستطيع أن ينهي تلك الإجراءات في أقل من شهر.
عموما، رغم كل هذا الهجوم، أقسم إنني أفتقد صداقتنا ودردشتنا وضحكاتنا.
- لقد سرقتِ كل ذلك، وتركت لي الوجع والحزن، ولدي من الشكوك أنك من كان وراء بُعد "عبد الله" عني، لا أدري بماذا أقنعته لكي يبتعد ويخلف وعده معي، ولكن

أثق أنك من وراء فشل علاقتي به.
- الزواج قسمة ونصيب كما نقول دوما، أما عن "شريف"، نحن لن نخلد يا "سناء"، كلنا راحلون، فقط لكل منا ميعاده، سبقنا "شريف" وغيره ونحن بهم لاحقون.
لا تصدقي كل ما قلته، أنا لن أستطيع أن أتعرض لك بأي أذى، حتى لو ارتضيتِ أنت أذاي، فأنت صديقة العمر، رفيقة الكفاح.. أتمنى لك السعادة والسلام.. أنا راحلة، سأغادر مصر قريباً.
- "همت"!
- نعم يا "سناء".
- لا شئ.. مع .
تمنت أن يسعفها لسانها وتخبرها كم تفتقد صداقتها وتحن إليها، وخاصة هذه الأيام، حيث خلت حياتها من أخيها وأبيها، وأمها تغيب في المسجد أغلب الأوقات، وتعيش حياة مملة مع "عماد"، الذي يقضي أغلب وقته في السوبر ماركت ويعود منهكا لا يحاورها ولا يقضي معها وقتا كما أغلب الأزواج، حتى يوم إجازته يقضيه نائما ثم ينزل بعد العصر ليفتح المحل، فالحياة لا ترحم، كما اعتاد أن يخبرها.
لكن كبرياءها منعتها أن تقص عليها أيا من هذا واكتفت بالصمت.
- مع السلامة يا "سناء".

الصفحة الحادية والثمانون

كنت في حاجة إلى أن أرى "هيلانة"، أن أتحدث إليها.. ذهبت إلى مطعم أبيها في أكتوبر، هناك جلست تحت لوحة عشتار، ألقيت التحية على والدها، جلس يحتسي معي فنجان القهوة، وتحدثنا، ثم نشأت فكرة عرضتها عليه:

- أريد أن أقيم صالونًا ثقافيًا هنا بالمطعم في ركن "إنانا " عشتار، وسنطلق عليه صالون "عشتار" لأخلد اسم هيلانة ونحيي حلمها الذي تمنته، صالون أدبي فني يجمع كل المواهب، بلا محاباة لجنسية أو نوع أو ديانة، لن نستخدم لفظ "حصري"، سيكون مفتوحا للجميع، نحتضن المواهب والفنانين، بل وأيضا من لديه اختراع سأدعمه حتى يحقق حلمه، أول كتاب سيتم طبعه رواية كتبتها "هيلانة" وأسمتها "ليالي إنانا"، سأدخل به المسابقات العالمية وسأترجمه، فأنا أعتبر نفسي ما زلت مديرة أعمالها.

- والمؤسسة التي ترأسينها؟

- لا مؤسسة بعد اليوم، سأتفرغ للصالون، ولحلم جمعنا لا شك أنه هو ما سيعيد لحمتنا، الأدب.. الفن، وقريبا سأقيم لها معرضا بحلب، بل واللاذقية وحماة، أنتظر فقط أن تعود سوريا كما عهدناها، أرضا للفن والحضارة، وسيحضر هذه المعارض كل أحبتها.. "ركن إنانا".

السيرة الذاتية

الاسم: مرفت أحمد

اسم الشهرة/ مارا أحمد

حاصلة على:

- ليسانس آداب لغة إنجليزية.
- ليسانس آداب قسم فلسفة
- دبلومة في التربية.

الإصدارات:

- "نون وما يسترن" - مجموعة قصصية – طيوف للنشر والتوزيع.
- "لعنة روح" – رواية - طيوف للنشر والتوزيع.
- "هيباتيا تعود" رواية - طيوف للنشر والتوزيع.
- "صور عارية" - مجموعة قصصية - طيوف للنشر والتوزيع
- "من أجل عينيك.. عشقت" - نصوص نثرية.

تحت الطبع:

- "عتبات العزلة" - نصوص نثرية.

كتاب طيوف